الجمعية التاريخية لخريجى كلية الآداب
بجامعة الأسكندرية

دراسات فى التاريخ الليبى

الأسس التاريخية لمستقبل ليبيا

تأليف

مصطفى عبد الله بعيو

ليسانسيه فى التاريخ «جامعة الأسكندرية»
دبلوم فى التربية وعلم النفس «القاهرة»

الثمن ٤٠ م

مطابع عابدين ٦ ميدان اسماعيل
تليفون ٢١٠٥٦ اسكندرية

الجمعية التاريخية لخريجى كلية الآداب
بجامعة الأسكندرية

دراسات فى التاريخ الليبى

الأسس التاريخية لمستقبل ليبيا

تأليف

مصطفى عبدالله بعيو

ليسانسيه فى التاريخ «جامعة الأسكندرية»
دبلوم فى التربية وعلم النفس «القاهرة»

مطابع عابدين ٦ ميدان اسماعيل
تليفون ٢١٠٥٦ اسكندرية

صفحة ليبيا تاريخ وثقافة على الفيسبوك



مقدمة

بقلم المؤرخ الجليل الأستاذ عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ الإسلامى وعميد كلية الآداب بجامعة اسكندرية سابقاً وعضو المجمع اللغوى بالقاهرة .

من بضع سنوات مضت نشر الأستاذ مصطفى بعيو كتاباً أسماه « المجمل فى تاريخ لوبيا » وطلب إلىّ تصديره ففعلت وقلت فى كلمتى التى صدرته بها أن الأستاذ بعيو شاب عربى يتسم بسمات العربى الأصيل ، فهو هادىء الطبع ، ذكى القلب ، وقلبه ينطوى على آمال كبار .

وهانذا اليوم أقول أن هذه الآمال الكبار قد بدأت تتفتح شيئاً فشيئاً ، وتأخذ طريقها إلى الوجود الفعلى رويداً رويداً ، وآية ذلك هذا السفر الذى وضعه صاحب «المجمل» ضمنه دراسات هامة عن لوبيا ، لم يتسع «المجمل» لإحتوائها وتفصيلها .

... ...

وهدف الأستاذ بعيو من هذه الدراسات إنما هو رسم الأسس التاريخية لمستقبل لوبيا ، وتلك لعمر الحق ، الخطة المثلى والطريقة المستقيمة ، فحاضر كل أمة متأصل فى ماضيها ، كما أن مستقبلها موصول بحاضرها وما من أمة أرادت النهوض ، فبنت نهضتها على أساس من تفهم ماضيها والاهتداء بهديه ، إلا استقامت لها الأمور ، وكتب لها النجح والتوفيق ، وما من أمة ارتجلت أسباب النهوض دون الرجوع إلى عبر الماضى ودروسه ، إلا التوت عليها

المقاصد، وراحت تتخبط فى دياجير الحيرة والإضطراب، فإما تخطفتها الطير أو هوت بها الريح فى مكان سحيق .

إن التاريخ معلم الأمم، ومرشد الساسة والقادة، وعون المصلحين .

يشتمل هذا الكتاب على دراسات خمس، الأولى فى ضبط كلمة «لوبيا» أهى بالواو أم باليـــاء، وقد انتهى المؤلف بعد تحرى النصوص القديمة والحديثة إلى أن الأصح أن ترسم وتلفظ بالواو .

والدراسة الثانيه فيها عرض واف لسيرة السيد محمد بن على السنوسى الكبير مؤسس الطريقة السنوسية وناشرها فى ربوع المغرب والحجاز وخاصة فى لوبيـا ومن هذا العرض نتبين أن السيد السنوسى الكبير كان بحق شخصية من أعظم الشخصيات الإسـلامية المصلحة فى القرن الماضى، ولقد دلت الحوادث من بعْـدُ على أنه كان بعيـد النظر، موفقاً فى اختيـار طريقة الاصـلاح، وانه تنكبَّ الطريق التى ركبها غيره من دعاة الإصلاح، فمضى قدماً حيث تعثروا، وطار حيث وقعوا، وكان من الموفقين . وتتناول الدراسـة الثالثة الأسس الجغرافية والتاريخية للوحدة اللوبية . فيدلل المؤلف على أن لوبيا قطر واحد متماسك الأجزاء، لا كما يذهب إليه ذوو الأغراض من البحاث الأجانب، ولقد أجاد المؤلف النقد وأحكم الإستدلال .

وفى الدراسة الرابعة يستوفى المؤلف الكلام على استعداد لوبيـا لمستقبل بحرى باهر، وذلك لامتداد سواحلها امتداداً شاسعاً، ولماضيها البحرى العظيم ولا سيما فى عهد الأسرة القرهمانلية . وهو يهيب بقومه إلى العمل على استغلال هذا الاستعداد، فالبحر سبيل عظمة الأمم، وطريقها إلى القوة والإزدهار .

والدراسة الخامسة عبـارة عن بحث شيق طريف تناول فيه المؤلف صـلة لوبيا بتجارة القوافل، وهنا ينتقل المؤلف من الكلام على البحر وعلاقة لوبيا

البحرية بالأمم الأخرى قديماً وحديثاً ، إلى الكلام على البر وعلاقة لوبيا من طريق تجارة القوافل ، بشعوب السودان وأواسط افريقية ، ويرينا كيف ازدهرت هذه العلاقة التجارية فى الماضى وكيف يستطيع قومه احياءها واعادتها سيرتها الأولى بالعمل المتصل والجهد الجهيد .

هذه خلاصة بحوث هذا السفر القيم . ولقد بذل المؤلف جهداً عظيما فى إعداده ، فأطلع على ما وسعه الإطلاع عليه من المصادر العربية والأجنبية ، ولئن كانت المصادر العربية قاصرة فى هذا المضمار ، فلقد وجد المؤلف العوض فى المراجع الأجنبية وخاصة الإنجليزية ، فأطلع عليها وأخذ منها ما اقتنع بصحته وصوابه ، ونقد ما استحق النقد والتجريح .

... ...

بارك الله فى هذه الجهود ، ونفع بها الدولة اللوبية الناشئة ، وسدد خطى القائمين بأمرها وأمدهم بروح منه ؟

عبدالحميد العبادى

رمل الاسكندرية فى { ١٠ شوال سنة ١٣٧٢
٢١ يونيه سنة ١٩٥٣ }

كلمــة الجمعيــة التاريخيــة

للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة
استاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بجامعة ابراهيم بالقاهرة

الاستاذمصطفى بعيو يقدم اليوم دراسة تاريخية قيمة جديرة بأن ترفعه إلى مصاف المؤرخين الأصلاء وجديرة أيضاً بأن تكون باكورة لدراسات أخرى كثيرة قيمة . وحبه للدراسات التاريخية كفيل بتحقيق الآمال المعقودة على جهوده . وقد صحبنى سنوات كثيرة ثم استمر اتصالنا بعد ذلك استمراراً يتيح لى أن أقول عن معرفة يقينية إن تاريخ بلاده محور دائم لنشاطه العلمى . بل انى لاجزم أن نشاطه السياسى ـ إن كان ـ ليس إلا مظهراً من حبه لتاريخ لوبيا ومن اهتمامه بماضيها ومن اتصال هذا الماضى المجيد بالحاضر المرتقب ومن حنينه الدائم اثناء اقامامته الطويلة بمصر إلى لوبيا . وهذا الكتاب ثمرة من ثمار الحب للوطن .

وبراعة المؤلف تتجلى فى اظهار الدعائم الاساسية التى قامت عليها النهضة اللوبية فى أول العهد السنوسى . وكتابه هذا يسجل فعلا الاهداف الاساسية التى حددها السنوسى الكبير بنظرته العبقرية . والكتاب إلى ذلك يتبع مابذله المصلح الكبير من جهود فى سبيل الوصول إلي الاهداف . فالكتاب دراسة تاريخية لمناهل الحيوية فى ماضى لوبيا القريب وهو فى نفس الوقت يحمل فى ثناياه توجيهاً سليما الى أهداف جليلة مدعمة بالدراسة التاريخية . ومن فلاسفة التاريخ من يرون أن تاريخ أى أمة يجب أن يعالج تحت ضوء الحاضر وابتغاء فائدته وأن الماضى يجب أن يوصل بالحاضر صلة قوية على نحو ما تتصل شخصية الأمم والأفراد والكائنات .

ومؤلفنا قد اتجه هذا الاتجاه وآمن بأن الأمور تصلح الآن بما صلحت به أوائلها قديماً وبأن العهد الجديد يجب أن يحتذى مثل الاوائل القيمة وهو لهذا يهيب به أن يواصل جهود السلف الصـالح وأن يتجه بالأمة اللوبية الى نفس الاهـداف لـكى تجنى أطيب الثمار من مواصلة السعى فى اتجاه موحد لأطول وقت ممكن .

وهذا الوصل بين الحاضر والماضى على اسس علمية سليمة هو الذى يجعل للـكتاب قيمة حقيقيـة من حيث هو دراسة المـاضى ومن حيث هو برنامج سليم لليوم والغـد . وهو الذى يجعل الجمعيـة التاريخية السكندرية ترحب بهذا الـكتاب وتعتز به . وقـد لا يكون لهذه الكلمة الموجزة محل هنا تعقب كلمـة استاذنا ورئيس جماعتنا عبد الحميـد العبادى وهو عميد المؤرخين الاسـلاميين اليوم ومرجعهم الموثوق به فى ابحـاثهم ، إلا أن صلتى بالمؤلف وتقـديرى له يشفعان لى فى تسجيل الثناء عليه فى هذا المقام بالذات ؟

محمد عبد الهادى شعيرة

مقـــدمة المؤلف

فى صيف سنة ١٩٤٧ أخرجت كتابى الأول « المجمل فى تاريخ لوبيا من أقدم العصور إلى العصر الحاضر » وهو كما يتبين من عنوانه لم يكن إلا عملا متواضعاً قصدت منه رسم الخطوط العامة لتاريخ بلادنا لوبيا . ثم أخذت أوالى البحث بشكل مفصل لهذا التاريخ المجمل وقد أتاحت لى زيارة مدينة لندن فى صيف سنة ١٩٥٠ فرصة التردد على مكانبها العامة والخاصة والتزود ببعض المراجع الهامة فى هذه الناحية مما ساعدنى على السير فى مهمة البحث التاريخى التى استهدفتها والتى أرجو أن أتقدم بثمرتها الأولى فى القريب العاجل . وكان من الطبيعى أن يتفرع من هذا البحث الرئيسى موضوع أو موضوعات قائمة بذاتها لها طابعها الخاص فى تاريخ لوبيا وحياة أهلها بشكل يلفت نظر الباحث فحرصت على تسجيلها والعناية ببحثها واعطائها بعض الاهتمام الخاص وهاهى تخرج فى هذا الكتاب بعد أن أخضعتها للبحث العلمى والطريقة المنهجية .

على أنى لم أقل الكلمة النهائية فى كل موضوع من هذه الموضوعات ولم أنظر إليه إلا نظرة الطائر راسماً الخطوط العامة ولو أنى حاولت استيفاء كل موضوع حقه لأصبح كل موضوع كتاباً خاصاً بذاته . وقد اتبعت فى كتابى هذا الطريقة التى سرت عليها فى كتابى الأول « المجمل فى تاريخ لوبيا » جاعلا الصدق رائدى والحقيقة بغيتى فى مناقشة الأحداث التاريخية فإن أصبت فى ذلك فالحمد لله على توفيقه والشكر لاستاذى الجليل الاستاذ عبد الحميد العبادى الذى تفضل بقراءة الكتاب قبل طبعه وتزويدى بالكثير من ارشاداته وملاحظاته القيمة مع شرف تقديمه إلى القراء ولاستاذى الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة الذى راجعت معه مخطوطة الكتاب وقد أعطانى الكثير من وقته وارشاداته حتى وفقت فى اخراج هذا الكتاب بفضل حسن توجيهه وعنايته ورعايته للكتاب ومؤلفه . وإن كنت قد أخطأت فالحقيقة قصدت ولاشىء غير الحق أردت وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى .

الاسكندرية { شوال سنة ١٣٧٢
يوليو سنة ١٩٥٣ }

المؤلف

لوبيــــــا

لوبيا وليست ليبيا

خطأ كلمة «ليبيا» — المصادر العربية القديمة تذكرها بالواو لا بالياء — أحمد زكى يأخذ بهذا الرأى — المجمع اللغوى فى القاهرة يعتمد كلمة «لوبيا» فى معجمه الجغرافى — اختلاف كتابة هذه الكلمة باختلاف اللغات الأوربية وباختلاف الكتاب فى اللغة الواحدة .

ما زال الكثير من الكتاب يستعملون كلمة «ليبيا» بدلا من «لوبيا» عندما يجىء ذكر اسم هذا القطر العربى وهم فى ذلك إما مدفوعون بحكم العادة وانتشار هذا الخطأ تمشياً مع ما جرى به القول من أن الخطأ المشهور خير من الصواب المهجور وإما أنهم فى استعمالهم هذا يعتقدون صحة هذه الكلمة «ليبيا» . وعلى كل فإن الأدلة العلمية المتعددة تدفعنا إلى تخطئة هذه الكلمة وتحتم علينا تصحيحها بكلمة «لوبيا» وضرورة الأخذ بها ومحاولة التعود عليها وإلا لثبت الخطأ على خطئه وما سعينا إلى الحقيقة ولا اهتدينا بالتالى إليها ولوقف المجهود العلمى الذى يبحث عن حقيقة الأشياء وصحتها ونشرها حتى يعم استعمالها ويتعود الجميع عليها فتضمن بذلك البقاء على أنها حقيقة ثابتة إلى أن يأتى من ينقضها على أسس حقيقية . وقد سبق التعرض لهذه التسمية ووجوب استعمال الاسم الصحيح لهذا البلد العربى فى كتاب «المجمل فى تاريخ لوبيا»(١) إلا أن ما أثير حول هذه التسمية من جدل وأخذ ورد وتأييد ومعارضة جعل من الضرورى تناول هذه الكلمة الصحيحة بشىء من العناية حتى يتبين للقراء صحتها بعد أن كانت الاشارة إليها عابرة فى هامش الكتاب السابق الذكر . ولا عبرة بأن أهل البلاد ينطقونها «ليبيا» .

وبالرجوع إلى المصادر العربية القديمة التى ورد فيها ذكر هذه الكلمة نجدها

١) مصطفى عبد الله بعيو : — المجمل فى تاريخ لوبيا . ص ١ — ٢

تؤيد صحة كلمة «لوبيا» فهذا ابن عبد الحكم فى كتابه «فتوح مصر وأخبارها» يذكرها لنا بالواو لا بالياء فيقول «وكان البربر بفلسطين وكان ملكهم جالوت فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجهين إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية ومراقية ...» (١)

وهذا ابن رسته فى كتابه «الأعلاق النفيسة» يذكرها لنا كذلك بالواو لا بالياء فيقول «... ثم يصير فى عمل لوبية وهى كورة تجرى مجرى كور الأسكندرية ...» وهذا المقريزى فى خططه وجلال الدين السيوطى فى كتابه «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» يذكرانها بالواو كذلك .

وأما شيخ العروبة المرحوم أحمد زكى المعروف بتضلعه فى اللغة وفقهها والتاريخ الإسلامى وحوادثه وبما له من المؤلفات والنشاط العلمى الذى خلد اسمه بين البحاث والمدققين فقد كتب بخصوص هذه الكلمة فى قاموسه(٢) الذى أخرجه ما يأتى «لوبيا اسم لصحراء تفصل ديار مصر وإيالة طرابلس الغرب وتسمى عند الإفرنج «Lybia» وصحة اسمها بالعربية لوبيا كما وردت فى كتب الجغرافية العربية وفى طبقات الأطباء وغيره لا بالياء كما نقله المترجمون مراعاة للفظ الفرنساويين بها مع أن الصواب فى تعريب حرف الياء اليونانية «y» هو الواو كما هو فى أصل اللغة اليونانية وبها سمى النبات المعروف باللوبيا».

هذا وقد تعرض المجمع اللغوى بالقاهرة لهذه الكلمة واعتمدها فى معجمه الجغرافى على أنها «لوبيا» وقد ساهم فى وضع هذا المعجم الأساتذة الأعلام الشيخ السكندرى والأب انستاس الكرملى والدكتور المستشرق ليتمان إلى

---

١) ابن عبدالحكم : — فتوح مصر وأخبارها . ص١٧٠ . (ليدن سنة ١٩٢٠ م) .

٢) أحمد زكى : — قاموس الجغرافية القديمة بالعربي والفرنساوى . ص٣٣ . (المطبعة الاميرية سنة ١٨٩٩ م) .

جانب من عاونهم من الخبراء المصريين المشهود لهم بالدقة العلمية وطول الباع في البحث السليم العميق . وقد استجاب لهذا التصحيح الكثير من المؤلفين الذين يراعون الدقة العلمية في كتاباتهم وكان في مقدمتهم العـــالم الأثرى الأستاذ سليم حسن في موسوعته التاريخية «مصر القديمة» التي بدأ في اخراج أجزائها سنة ١٩٤٠ وغيره من مريدى العلم الصحيح والبحث عن حقائق الأشياء ولم يخرجوا عما ألفه عامة الكتّاب إلا بعد أن تأكد لهم صحة كلمة «لوبيا» .

والغريب أن هذه الكلمة بقدرما صادفت من تعثر في اللغة العربية قد لاقت الكثير من التحريف والتبديل في اللغات الأوربية إذ اختلف رسمها باختلاف هذه اللغات ولم يقتصر الأمر عند هـذا الحد بل كان رسمها أحيـاناً يختلف باختلاف الكتّاب في اللغة الواحدة وإذا كان هناك ما يبرر قبول اختلاف كتابتها باختـلاف اللغات الأوربية ونطق أهلهـا بها فإن اختلاف كتابتها في اللغة الواحدة أمر يدعو إلى العجب والتساؤل فبعض المؤلفين من البريطانيين يكتبونها «Lybia»(١) والبعض الآخر يكتبها «Libya»(٢) . وقد يختلف رسم هذه الكلمة في كتب متعددة تضمها مجموعة واحدة تتناول موضوعاً واحداً من أطرافه المتشعبة كما هي الحـال في المجموعة العلمية(٣) التي أخرجها بعض رجال

---

١) من هذه المؤلفات :

A:— R. L. Playfair: Travels in the footsteps of Bruce, London 1877·

B:— A, J. Cachia:— Lybia under the Second Ottoman Occupation, Tripoli 1046.

٢) من هذه المؤلفات : —

A:— David Randall:— Libyan Notes, London 1901.

B:— Oric Bates.— The Estern Libyans, London 1914.

C:— O; H. Little:— Geology of Cyrenaica, "Part 1, Handbook on Cyrenaica, Cairo, 1944—1947.

٣)

الادارة البريطانية لبرقة بالاشتراك مع بعض الاخصائيين فيما بين ١٩٤٤-١٩٤٧م.

وبالمثل اختلف المؤلفون الإيطاليون فى كتابة هذه الكلمة فبعضهم كتبها «Libya» كما هى الحال فى المجلة التى كانت تصدرها وزارة المستعمرات الإيطالية(١) أما دائرة المعارف الإيطالية فقد كتبتها «Libia» كما هى الحال فى الجزء السادس والعشرين منها. وأما المؤلفون الفرنسيون فقد تعودوا كتابتها «Lybie» كما هى الحال فى كتاب "La Colonisation Italienne en Lybie". لمؤلفه الأستاذ Depois Jean

هذه عجالة قصيرة توضح لنا ضرورة الأخذ بكلمة «لوبيا» وفى ذلك تصحيح لاسم هذا البلد العربى كما ترينا مدى ما تعرض له اسم هذا البلد من اختلاف باختلاف اللغات الأوربية بل وباختلاف الأفراد أنفسهم.

* * *

١)(العدد الثالث السنة الثالثة روما. ميلانو ١٩٢٧) Cià "Rivista Della Tripolitania

كانت طريقته القيــــام بسنة　　نبوية لألآئة الأمر ضاح
ليست لدروشة المريد وجذبة　　بالدف أو بالرقص أو بصياح
كانت معالمها كسيرة جـده　　احيـــــاء دين وانتشار صلاح
أعمال مجتهـــد بخالص نيـة　　للخير منتصر بغير ســـلاح
لو كان عن شيء لغـير الله فى　　أعمـاله ما كللت بنجـــاح
إذ لا يدوم سوى الذى هو نافع　　للنـــاس مرتفع عن الأرباح
ومن الـكرامة للولى نحـــاحه　　فى النصح بالاقنـاع والإفصاح
والمرؤ لا يعجبك منه ما سعى　　بل ما نوى فى السعى من اصلاح
فاذا استوى عمل وحسن عقيدة　　كان النجاح حليف كل طماح
إن العقيـــدة لا يصح يقينها　　إلا بفعل ظاهــــر وصُراح
فإذا أحب الله باطن عبـــده　　ظهرت عليه مواهبُ الفتـاح
وإذا صفت لله نيـــة مصلح　　مال العبـــاد إليه بالأرواح

من قصيدة «لشاعر الوطن» الأستاذ أحمد رفيق المهدوى.

السنوسى الكبير

الحركة الاستعمارية الأوربية فى القرن التاسع عشر — أثرها فى العالم الاسلامى — النشوة الدينية الاصلاحية — حركة السنوسى الكبير — نسبه — مولده — نشأته — تفكيره فى حالة العالم الاسلامى — رحلته إلى الاراضى المقدسة ومروره بالقاهرة — معارضة علماء الازهر له — رجوعه إلى الجزائر وعودته إلى الحجاز — صحبته للسيد أحمد بن ادريس — تأسيس الطريقة السنوسية بالحجاز سنة ١٨٣٧ — السنوسى الكبير يضطر الى ترك الحجاز — مجيئه إلى لوبيا واقامته في برقة — الأسباب التى جعلته يتخذ برقة مقاماً له — تأسيس زاوية البيضاء سنة ١٨٤٣ — دعوة القبائل الى الاسلام الصحيح — الطريقة السنوسية تلقى نجاحاً كبيراً فى لوبيا — دعوته والأسس التى قامت عليها — أهم الانتقادات التى وجهت إليه — انتقاله إلى واحه الجغبوب — أسباب هذا الانتقال — أهمية واحة الجغبوب — برنامجه الاصلاحى بعد الانتقال الى الجغبوب — بناء زاوية الجغبوب — معهدها العلمى — العمل على تموين واحة الجغبوب بعد أن تكاثر أهلها بانتقاله إليها — تنشيط تجارة القوافل — الاتجاه بالاصلاح إلى بلاد السودان — دور الزاوية فى الحركة السنوسية — وصف الزاوية وكيفية بنائها — نشاط السنوسى الكبير فى بناء الزوايا — أهمية الزاوية السنوسية والخدمات التى ادتها للبلاد — نظام «الاخوان» وكيف نشأ وأثره فى الطريقة السنوسية — علاقة السنوسى الكبير بالخلافة العثمانية — تخوف الدول الاوربية من حركة السنوسى الكبير — وفاته . صفاته . مؤلفاته

يعتبر القرن التاسع عشر الميلادى من القرون الهامة فى حياة البشرية التى قدر لها أن ترى الجليل من الحوادث والأحداث ويكفى لتبيين أهميته أن ما يعانيه العالم الآن من ارتباك عام فى الحياة وقلق متزايد فى النفوس وتوتر مستحكم فى العلاقات الدولية يرجع فى أصوله العامة إلى تلك الحوادث والأحداث التى تمخض عنها القرن التاسع عشر وهى وإن تعددت وتباينت وتتابعت فى أهميتها بالنسبة لمن ساهم فيها من بعيد أو قريب فإن هناك بعض

الحوادث التى أجمع الكل على اعتبارها فى المكانة الأولى من الأهمية بالنسبة للحياة البشرية والنظر إليها على أنها عامل هام فى تطورها سواء أكان هذا التطور فى صالح بعض الشعوب أم فى غير صالح البعض الآخر . ومن هذه الحوادث البارزة بالنسبة لشعوب أوربا انتشار الروح القومية بينها على أثر قيام الثورة الفرنسية وما ترتب عليها من ظهور دول جديدة للوجود ما كان يعرف لها اسم أو حدود . ومن هذه الحوادث أيضاً ازدياد النشاط الاستعمارى الأوربى المعروف بحركة « الامبرياليزم Imperialism » وما ترتب عليها من تنافس بين الدول الأوبية واصطدام مصالحها بعضها مع بعض من أجل كسب مناطق النفوذ فى العالم وخاصة فى بلاد الإسلام منتهزة ما حل بتركيا (الرجل المريض The Sick Man) من ضعف عام وتحلل فى كيانها جعل الدول الأوربية تأمن جانبها . ومنها كذلك اهتداء الفكر الأوربى إلى الاستفادة من البخار كقوة محركة واكتشاف الكهرباء وما ترتب على هاتين القوتين الطبيعيتين من اختراع فى الآلات وانقلاب فى عالم الصناعة والتصنيع ، كان له أكبر الأثر فى تقدم الأوربيين وترجيح كفتهم على أعدائهم المسلمين المسالمين عندما استهدف الأخيرون لخطر التوسع الأوربى وحاولوا صده بما توارثوه عن آبائهم من طرق حربية لم تعد مجدية أمام ما جد فى فنون الحرب مما أتاح الفرصة للأوربيين للقيام بأعمال عنيفة تتنافى والشعور الإنسانى العام وقد أخذتهم نشوة الانتصار ورأوا فيها فرصة لشفاء ما فى صدورهم من حقد دفين توارثوه عن أجدادهم يوم أن زحف العرب من شبه جزيرتهم يكتسحون معالم الامبراطورية البيزنطية ويغزون أوربا نفسها وينتزعون السيادة من أهلها ويوم أن فشل الأوربيون فى تحقيق مآربهم عندما جمعوا شملهم وقاموا بما عرف فى التاريخ بالحروب الصليبية ولكن وقوف صلاح الدين لهم بالمرصاد وخلفائه من بعده قضى على جهودهم المشتركة .

* * * * * * * * *

كان لابد أن يكون لهذه الحوادث الايجابية التى شملت شعوب أوربا رد فعل فى العالم الاسلامى بعد أن طالت رقدته فبدأت مصر تتحرك وتستيقظ على أثر تفاعل بذور الحرية التى خلفتها وراءها الحملة الفرنسية بعد جلائها عن مصر فكانت نهضتها فى عهد محمد على وخلاصها من بقايا العهد العثمانى المملوكى الاقطاعى ومحاولتها قيادة الشرق العربى فى هذه الوثبة التى قامت بها إلا أنها سرعان ما اصطدمت بالنفوذ الأوربى وتدخله إذ رأت فيها دول أوربا الاستعمارية خطراً يهدد مشروعاتها التوسعية فسعت إلى الحد من وثبة مصر والقضاء على نهضتها وكان لها ما أرادت بفضل ما لها من قوة وتفنن فى الحيل والدسائس فى الميدان الدولى .

وإذا كانت هذه المحاولة التى قامت بها مصر فى عهد محمد على قد فشلت فإن اليأس لم يتطرق نهائياً إلى نفوس العالم الإسلامى وقد اشتدت عليه وطأة الحركة الإستعمارية الأوربية وبدأ يرى بلاد الجزائر رغم نضالها المستميت تقع فريسة للاستعمار الفرنسى الذى أخذ يهدد بقية شعوب الشمال الافريقى . ولم يجد مفكرو العالم الاسلامى وسيلة تنقذهم من هذا الخطر الداهم إلا الرجوع إلى دينهم يلتمسون منه العون والمساعدة وسرعان ما وجدوا فيه ضالتهم المنشودة وأيقنوا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن ما أصابهم من محن هو نتيجة تفريطهم فيما بين أيديهم من دستور سماوى محكم وأن الله الذى تعهد للمؤمنين منهم بالنصر فى كتابه الكريم حيث قال «ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» وكما قال فى موضع آخر «إن تنصروا الله ينصركم» إنما تركهم لمصيرهم لأنهم حادوا عن السنن الأولى فقام بعض المفكرين من أصحاب العقول النيرة الذين أثارهم ما آل إليه حال العالم الاسلامى وبدأوا يدعون إلى ضرورة تخليص الدين الاسلامى مما علق به من شوائب والعودة بالمسلمين إلى كتاب الله وسنة

نبيه الكريم إذ فيهما اعزاز للسلمين وضمان نصرهم كما كان الحال فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ولنا فى حركة الإخوان المسلمين فى الأعوام الأخيرة ما يقرب إلينا فهم تلك النشوة الدينية التى عمت العالم الاسلامى فى القرن التاسع عشر. وكان من أهم هذه الحركات الدينية الاصلاحية التى ظهرت خلال القرن التاسع عشر الدعوة الوهابية فى نجد والحركة السنوسية فى لوبيا والدعوة المهدية فى السودان ونشاط بقية الطرق الأخرى فى الشمال الإفريقى وقيام حركة الجامعة الاسلامية. وكل هذه الحركات الدينية وإن اختلفت فى الوسائل كانت ترمى إلى هدف واحد هو صد الخطر الأوربى عن العالم الاسلامى والعودة به إلى أيام السؤدد باستنهاض شعوبه ودعوتهم إلى التمسك بما فى قرآنهم من أحكام وسنة نبيهم من تشريع. وكانت أهم هذه الحركات جميعها الحركة الوهابية لصاحبها محمد بن عبد الوهاب والحركة السنوسية لمؤسسها السنوسى الكبير وحركة الجامعة الاسلامية التى وضع بذورها حكيم الشرق جمال الدين الافغانى وقد تعهدها السلطان عبد الحميد الثانى إذ وجد فيها خير عون له ضد أعدائه من الأوربيين.

ظهرت الحركة الوهابية فى نجد واتخذت من شبه جزيرة بلاد العرب ميداناً لنشاطها إلا أن اصطدامها بالعثمانيين واقترانها ببعض أعمال العنف جعل الكثير من العالم الإسلامى لا يعطف عليها وينظر إليها نظرة الشك والارتياب. أما حركة السنوسى الكبير فقد ظهرت فى صحراء لوبيا وإن وضع بذورها الأولى فى الأراضى المقدسة بالحجاز وقد أتبع السنوسى الكبير الطرق السلمية فى الوصول إلى أهدافه وتحاشى الكثير من مواقف الاصطدام ابقاء على قوتها إلى اليوم المعلوم ولم تحاول طريقته الاصطدام بغيرها إلا عندما أجبرت على ذلك أمام زحف النفوذ الفرنسى الذى أخذ يهدد نشاط الدعوة السنوسية فى بلاد السودان وعندما قامت إيطاليا فيما بعد بالاعتداء على لوبيا وغزو أراضيها. وإذا كانت حركة الجامعة الاسلامية قد عم انتشارها فى جميع العالم الإسلامى

ووجدت لها أنصاراً فى كل البلاد فإنها لم تصل إلى هذه النتيجة إلا بفضل نشاط الطوائف الدينية خصوصاً فى الشمال الإفريقى وعلى رأس الجميع الطائفة السنوسية التى وقف مؤسسها ومن بعده بنوه يسندون هذه الحركة لما فيها من تقوية للخلافة الإسلامية الملاذ الأخير للعالم الإسلامى من الخطر الأوربى الزاحف . وقد وضع لذلك السنوسى الكبير سياسة دينية قائمة على أسس مدروسة فيها ما يكفل للشعوب الإسلامية حريتها وعزتها . فمن هو مؤسس هذه الطريقة الدينية العملية وما هى أهم أهدافها وكيف استطاع أن يسير بها فى الطريق السوى لتحقيق أهدافه الاصلاحية وما أثرها فى حياة البلاد ؟ هذا بعض ما سنحاول الكشف عنه فى الصفحات التالية .

* * *   * * *   * * *

أما عن نسبه فهو السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الأدريسى . وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا فى تحديد عام ولادته إلا أنهم أجمعوا على أنها كانت فيما بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.(١) كما أجمعوا على أن ولادته كانت فى قرية الواسطة بالقرب من بلدة مستغانم Mustaghanem ببلاد الجزائر من أسرة شريفة النسب ترجع فى أصولها إلى البيت النبوى الشريف وبمراجعة سلسلة الأنساب النحاسية المعلقة على قبره

---

١) يرى السيد أحمد الشريف فى كتابة «الأنوار القدسية فى مقدمة الطريقة السنوسية» أن مولد السنوسى الكبير كان يوم الاثنين ربيع أول سنة ١٢٠٢هـ — ١٧٨٧ م . أما دائرة المعارف البريطانية فتثبت اختلاف المؤرخين فى تحديد سنة مولده بذكر الاعوام التالية ١٧٩١ ، ١٧٩٢ ، ١٧٩٦ ، ١٨٠٣ . وأما دائرة المعارف الاسلامية فتذكر ان ولادته كانت فى سنة١٧٩١م . وفى دائرة معارف الديانةوالعقائد Encyclopaedia of Religion نجدولادته كانت فى سنة١٨٠٦م.وفى مؤلفات الاستاذ بريتشرد نجد ولادته كانت فى سنة ١٧٨٧م .

بالجغبوب نجد أسماء أجداده الكرام الذين يصلونه بالبيت النبوى الشريف(١) فهو السيد محمد بن على بن السنوسى بن العربى بن حمو بن عبد القادر بن محمد بن يوسف بن عبدالله بن خطاب بن على بن يحيى بن راشد بن مرابط بن منداس ابن عبد القوى بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف ابن حسن بن ادريس بن عبد الله بن احمد بن محمد بن عبد الله بن حمزة بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن على بن عمران بن ادريس الأصغر ابن ادريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن(على بن أبى طالب) وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبدراسة هذه السلسلة النسبية يتبين لنا صحة شرف نسبه كما يتبين لنا انتماؤه إلى الادارسة الذين سبق لهم تأسيس دولة على يد ادريس الأكبر فى مدينة وليلى بمراكش فى سنة ١٧٢ هـ والتى نقل مركزها ابنه ادريس الأصغر من بعده إلى مدينة فاس العاصمة الجديدة لدولتهم . وقد ظلت دولة الأدارسة تحكم البلاد طيلة قرنين من الزمان إلى أن تغلب عليها وعلى ما تفرع منها من دويلات أخرى الأمويون فى الأندلس فى القرن العاشر الميلادى والفاطميون قبل مجيئهم إلى مصر وترتب على ذلك انتشار أفراد أسرة الأدارسة فى كافة بلاد المغرب والأقطار المجاورة . ومن أدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة أخذ السيد السنوسى الكبير لقبه «الادريسى» كما أخذ لقبه الخطابى من جده خطاب ابن على . أما لقبه السنوسى فقد استمده من جده السنوسى بن العربى الذى يقال أنه قد أخذ بدوره هذا اللقب من قبيلة بنى سنوس إحدى قبائل تلمسان بالجزائر وقد نزل بجوارها . وهذه القبيلة بدورها قد اكتسبت هذا الاسم على ما يقال بنزولها إلى جوار جبل يسمى «اسنوس» بالجزائر . على أن عائلة

---

(١) E. E. Evans-Pritchard: Biographical Notes on Members of the Sanusi Family, P. 1.

السنوسى الكبير كانت فى بلاد الجزائر وما زالت تعرف بعائلة الأطرش وهو لقب عرف به السيد العربى الأطرش الجد الأكبر للسنوسى الكبير . أما اسم والدته فلم يصل إلينا فيما كتبته لنا المصادر التاريخية .

وإلى جانب ما عرف به السنوسى الكبير من شرف النسب عرف كذلك بشهرة عائلته العلمية والتفرغ إلى كل ما يمت إلى العلم بصلة . فالتاريخ يحدثنا بأن جميع أفراد عائلته قد انتسبوا إلى العلم سواء فى ذلك والده أو أعمامه بل إن الكثير من سيدات بيته قد عرفن بهذه الناحية العلمية كذلك . وإلى عمته السيدة فاطمة يرجع الفضل الأول فى تنشئة السنوسى الكبير نشأة دينية وتعليمه المبادىء الأولى من العلوم المختلفة لما كان لها من دراية فى هذه الناحية أهلتها للانقطاع للدرس والتدريس والوعظ والإرشاد وكانت حلقاتها العلمية يتردد عليها الكثير من الرجال . وبالمثل كانت جدته لأبيه على حظ كبير من العلم وإن لم تجلس للتدريس. أما أبوه السيد على فقد توفى شاباً فى الخامسة والعشرين من عمره وقد عرف فى شبابه بفروسيته ومزاولة أنواعها المختلفة إلى جانب ما عرف عنه من ميل للعلم ودراسته . وعلى أثر وفاته قامت عمته بالإشراف عليه وتعهدته برعايتها فأحسنت القيام بالمهمة وعرفت كيف تهيء له أسباب النجاح.

هذه عجالة سريعة عن النشأة العائلية للسيد السنوسى الكبير وهى مع اختصارها الشديد ترسم لنا صورة واضحة عن بيئته العائلية التى بدون شك قد تركت لها أثراً واضحاً فى نفسه كطفل ومن ثم كشاب يتلقى العلم ويعد نفسه لمجابهة حياة أخذ يرسم معالمها ويحدد أهدافها وخطواتها الضرورية . أما عن حالة بلاده الجزائر بصفة عامة فقد كانت تعانى ارتباكاً عاماً بسبب سوء حكم (الدايات) لها وضعف سلطتهم مما أطمع فيها الاجنبي وعرضها للغزو الفرنسى فيما بعد . وكان من الطبيعى أن يكون لهذه الحالة أثرها السيء فى نفسه وأن تعتريه الازمات النفسية من وقت لآخر بسبب ما يراه من حالة سيئة أخذت

تعم البلاد وبسبب ما فى هذه الحالة مما يتعارض وما شب عليه وتلقنه من مبادىء على يد أفراد بيئته وأقاربه . كل ذلك ترك أثراً كبيراً فى تطور حياته فيما بعد. والسنوسى الكبير وإن كان جزائرياً فى نشأته إلا أنه ينتسب إلى البيت النبوى الشريف فهو حيث يحل ينزل بوطنه فقد أوتى أهل البيت القدرة على اعتبار العالم الاسلامى كله وطناً لهم وطالما لجأوا إلى أطرافه أو رجعوا إلى مركزه بحسب ما يتعرضون له من الاضطهاد .

بعد أن تلقى السيد السنوسى الكبير مبادىء العلوم فى أسرته وعلى يد عمته السيدة الزهراء خاصة التحق بأحد معاهد بلدة مازون Mazun بالجزائر للاستزادة العلمية حتى إذا أتم علومه بهذا المعهد ذهب إلى مدينة فاس للالتحاق بجامع القرويين بها حيث كانت تأتى وفود الطلبة للالتحاق به من كافة أنحاء بلاد المغرب لما يتمتع به من مكانة ولما كان لأساتذته من شهرة خاصة ويكفى القول أنه فى مهمته العلمية كان لا يقل عن الأزهر الشريف بالقاهرة وجامع الزيتونة بتونس . وهناك أخذ السيد السنوسى الكبير يدرس التوحيد والفقه والتفسير وبقية المواد الأخرى التى كان يدرسها طلبة العلم فى ذلك الوقت. وإذا كان السيد السنوسى الكبير أثناء دراسته العلمية بجامع القرويين بفاس قد عرف التصوف بتتلمذه على يد الشيخ احمد التيجانى صاحب الطريقة التيجانية(١) فإنه بدون شك قد استعرض فى ذهنه تاريخ أسرته القديم عندما كان الادارسة يسودون ويحكمون وعندما خلدوا مجدهم التاريخى باقامة دولتهم وتأسيس عاصمتها فاس ورأى نفسه يدرس فى الجامع الكبير الذى أنشأه

١) أسسها الشيخ احمد التيجانى فى بلاد الجزائر فى نهاية القرن الثامن عشر.واليها يرجع أكبر الفضل فى نشر الدين الاسلامى فى غربى افريقية .وهى متفرعة من الطريقة الخلواتية التى ظهرت للوجود فى القرن الثالث عشر الميلادي . توفى الشيخ احمد التيجانى في ١٧ شوال سنة ١٢٣٠هـ .

أجداده كما درس معه ومن قبله آلاف غيره من الطلبة . ولاشك أنه قد حاول تفهم الأسباب التى أدت إلى انهيار دولتهم فيما بعد وقارن أيامها الأخيرة بما كان يراه من تدهور فى بلاد المغرب بصفة عامة وبلاده الجزائر بصفة خاصة مما جعلها فريسة سهلة للعدوان الفرنسى فيما بعد إذ أنها كانت أولى البلاد الإسلامية فى بلاد المغرب خضوعاً للاستعمار الأوربى بعد تجربة الفرنسيين الفاشلة فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى. ولاشك أن هذه التأملات النفسية قد أوجدت عنده شيئاً من الإنقباض وهو يقارن بين حال المسلمين فى ماضيهم الذهبى وحاضرهم الذى تعصف به الأقدار . ولا شك أيضاً أن تلك التأملات النفسية والمقارنات التاريخية قد شغلت جزءاً كبيراً من تفكيره إن لم يكن كله ودعته إلى ضرورة الاهتداء إلى الأسباب التى أدت إلى هذا التدهور الذى حل بالمسلمين . وسرعان ما نجح فى تشخيص حالة المسلمين العامة وتحديد أسباب تدهورهم مما ساعده على وضع الخطوات الأولية للعلاج الشافى ولكنه قبل أن يقوم بتحقيقها عملياً رأى من الضرورى القيام بزيارة الأراضى المقدسة حيث مهبط الوحى وحيث عرف الإسلام قوته الأولى حتى يستمد من ذلك قوة له وحتى يعد نفسه لمجابهة ما انتواه من أعمال اصلاحية شاملة رأى أنها ستلزمه بالكثير من الصبر مع الاستعانة بتعاليم الدين الإسلامى الحنيف . ولا عجب فى أن يقوم السيد السنوسى الكبير بهذه الرحلة فإن أولئك الذين سبقوه فى الدعوة إلى العقيدة الإسلامية الصحيحة وتخليصها مما علق بها من خرافات وبدع قد سبقوه أيضاً فى القيام بمثل هذه الزيارة . فللاراضى المقدسة بالحجاز أثر روحى قوى فى النفس لا يعرفه إلا اولئك الذين قدر لهم مثل هذه الزيارة وخاصة المتصدين منهم للحركات الإصلاحية ومن أجل هذا شرع الإسلام فريضة الحج على القادرين عليها من المسلمين .

✡ ✡ ✡ ✡ ✡ ✡ ✡ ✡ ✡

ترك السنوسى الكبير مدينة فاس فى الثلاثينيات الأولى من عمره قاصداً الحجاز ماراً بجنوبى الجزائر إلى مدينة قابس بتونس على ساحل البحر الأبيض المتوسط ومنها إلى مدينة طرابلس الغرب فبلدة مسراته فمدينة بنغازى سالكا فى رحلته هذه طريق الحج المعروف وهو يمهد إلى فكرته الإصلاحية الجديدة بدعوة الناس إلى العمل على تفهم عقيدتهم الدينية الإسلامية الصحيحة والتمسك بها حتى يكون لهم فى ذلك خير منقذ لهم ولتراثهم التاريخى المجيد . ولقد كان التوفيق حليفه منذ بداية رحلته هذه إذ استطاع أن يستميل إليه بعض الأشخاص فكانوا له خير رفقاء فى رحلته هذه ثم خير رواد لدعوته الإصلاحية.
استمر السيد السنوسى الكبير فى رحلته هو ومن التحق به حتى وصل إلى مدينة القاهرة وهناك أقام بعض الوقت وقد راودته فكرة الإلتحاق بالأزهر الشريف واتمام ما بدأه من دراسة علمية ولكنه اضطر أن يستجيب لما فى نفسه من رغبة ملحة فى ضرووة القيام بفريضة الحج وزيارة قبر صاحب الرسالة ولهذا لم تطل اقامته فى القاهرة أكثر من عدة أسابيع وكان له فيما وجده من روح معادية من جانب علماء الأزهر ما أسرع به إلى اتمام رحلته هذه . وجد السيد السنوسى الكبير من علماء الازهر نفوراً قوياً وبدا هو لهم شاباً يحاول الخروج عما ألفه العلماء من دعة وراحة وتسليم مطلق للحاكم المستبد إلى جانب جمودهم وضيق أفقهم العلمى الأمر الذى لا يتناسب ومكانة الأزهر الدينية وما تحتمه عليه مكانته كأكبر جامعة اسلامية يقع عليها عبء ارشاد المسلمين وتبصيرهم وقد استطاع محمد على والى مصر أن يسيطر على علماء الازهر بعد أن مهدوا لولايته عل مصر ولم يكن والى مصر ليرحب «بالسنوسى» ولعل موقف علماء الأزهر منه موقف موعز به . كل هذه الأسباب عجلت بتركه للقاهرة وسفره إلى الحجاز وهناك عاش ست سنوات وهو يدرس فقه الدين الإسلامى على يد صفوة ممتازة من علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة دارساً

لمشاكل المسلمين متعرفاً لأحوالهم كلما أقبل موسم الحج وكلما طالت اقامته بالأراضى المقدسة ازداد فهمه لداء المسلمين وزاد دقة فى وصفه للدواء النافع وهو فى أثناء كل هذا لم ينس وطنه الأول الجزائر فلما ازداد به الحنين اليه عاد إلى الجزائر حوالى سنة ١٨٢٩ وبقى هناك حتى سنة ١٨٣٣(١) ثم عاد مرة أخرى فى هذه السنة الأخيرة إلى بلاد الحجاز لإتمام ما بدأه من اعداد نفسه بالوسائل اللازمة لحركته الاصلاحية . وربما كان السيد السنوسى الكبير قد رأى من الضرورى تحاشى الاصطدام بالفرنسيين وقد غزوا بلاده وهم فى عنفوان قوتهم الباطشة قبل أن يعد للأمر عدته حتى لا يعطيهم فرصة القضاء على دعوته الاصلاحية الناشئة التى كانت تهدف إلى توحيد كلمة الاسلام أمام خطر الأوربيين الزاحف. ولا شك أيضاً أن السلطات الفرنسية قد وصلتها أنباء دعوته هذه ورأت فيها ما يهدد كيانها إذا استفحل شأنها بازدياد أنصاره ومريديه فلجأت إلى تضييق الخناق عليه . وهكذا وجـــد السيد السنوسى الكبير نفسه منذ اللحظات الأولى لدعوته الاصلاحية قد بدأ يصطدم بالأجنبى الغاصب القوى ففضل الابتعاد عن الأنظار واختـار الأراضى المقدسة ملجأ له فى هذه المرة كذلك . وأخذ يعد نفسه للقيام بهذه الرحلة البرية الشـاقة . وهكذا كانت الحملة الفرنسية على الجـزائر أقوى محرك لشعور هذا الشـاب الطموح واندفاعه فى حركة الدعوة لاصلاح حال المسلمين بعد أن وضع يده على سر تدهورهم الذى أطمع الأجنبى الغاصب فيهم .

وفى رحلة السيد السنوسى الكبير إلى الاراضى المقدسة اصطحب معه نفراً من أهـل المغرب كاخوان له لازموه طوال اقامته التى استغرقت هـذه المرة ثمان سنوات واظب فى أثنائها على الدرس والتحصيل على يد أساتذة مكة وفى

(١ E. E. Evans-Pritchard:— The Sanusi of Cyrenaica, P. 12.

مقدمتهم السيد أحمد بن ادريس الفاسى الرئيس الرابع للطريقة القـــادرية المراكشية (١) التى تفرعت بدورها عن الطريقة الشاذلية(٢) وقد أصبح السيد أحمد بن أدريس فيما بعد المؤسس الأول للطريقة المعروفة بالطريقة الادريسية أو الطريقة القادرية الادريسية . وكان التجاوب العلمى والروحى قوياً بين السيد السنوسى الكبير وأستاذه حتى إن السيد أحمد بن اددريس عندما وجد نفسه مجبراً على ترك بلاد الحجاز والالتجاء إلى بلاد اليمن أمام ما أثاره فى وجهه علماء مكة من معارضة قوية له ورميه بتهمة مخالفة المذهب المالكى وما جاءت به سنة الرسول اختار السيد السنوسى الكبير لصحبته فى هذه الرحلة لما توسمه فيه من تجاوب روحى فضلا عن فهم كل منهما للآخر وقد رافقهما كذلك السيد الميرغنى أحد التلاميذ المعجبين بالسيد أحمد بن ادريس . وهناك فى اليمن عاش السيد السنوسى الكبير عامين مواصـــلا الدرس والتحصيل على يد أستاذه واجداً فى رفقة السيد الميرغنى خير مشجع له على تحمل آلام الغربة والبعد عن الأهـل والأوطان حتى إذا انتقل السيد أحمد بن ادريس إلى جوار ربه قام من بعـــده تلميذاه السيد السنوسى الكبير والسيد الميرغنى بتنظيم أتباعه فى

---

١) تعتبر الطريقة القادرية من أوسع الطوائف الدينية الاسلامية انتشاراً . أسسها الولى الشهير عبد القادر الجيلانى فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) وقبره فى بغـداد يزار . وقد دخلت الطريقة القادرية إلى بلاد المغـرب فى القـرن الخامس عشر على أيدى مهاجرى واحـة توات Tuat فى جنوبى الجزائر والمعروف أن الزعيم العـراقى رشيد على الـكيلانى صـاحب الثورة المعروفة فى العـراق من أحفـاد مؤسس هذه الطريقة وهو يعيش الآن لاجئاً عند الملك عبدالعزيز بن السعود فى عاصمته الرياض .

٢) من أهم الطرق الدينية فى الشمال الافريقى ومنها تفرع الـكثير من الطرق الدينية الأخرى . وكان مؤسسها ابو الحسن الشـاذلى من رجال القـرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) .

طريقتين فرعيتين هما الطريقة الميرغنية التى أخذت تشق طريقها فى السودان المصرى الانجليزى فيما بعد والطريقة السنوسية التى تولى زعامتها الأولى السيد السنوسى الكبير . وهناك فوق جبل أبى قبيس فى مكة المكرمة أنشأ السنوسى الكبير الزاوية الأولى لطريقته السنوسية الجديدة ويمكن اعتبار سنة ١٨٢٧ بداية ظهورها للوجود . وبفضل ما بذله من جهود موفقة فى سبيل نشر طريقته الجديدة صادف اقبالا من أهل الحجاز وما زلنا إلى يومنا هذا نجد تعاليم هذه الطريقة منتشرة بين أفراد قبيلة حرب الضاربة أطنابها فيما بين مكة والمدينة بحذاء البحر والتى ما زال يواظب أفرادها على الاعتراف بالتبعية لمبادىء هذه الطريقة ويعبرون عن شعور ولائهم لها بدفع الزكاة إلى الزوايا السنوسية المنتشرة هناك وما زالت زاوية أبى قبيس التى تطل من فوق جبل أبى قبيس على الحرم المكى ، عامرة إلى يومنا هذا تحت اشراف شيخها .

... ...

غير أن هذا النجاح الذى صادفه السيد السنوسى الكبير فى التفاف القبائل الحجازية البدوية حوله قد أثار عليه حسد الآخرين فبدأوا يناصرونه العداء كما ناصبوا أستاذه السيد أحمد بن ادريس من قبله وبدأت السلطات العثمانية كذلك تساورها الشكوك وتحسب لنشاطه الف حساب مندفعة فى ذلك بما سبق لها أن عانته من جراء نشاط الزعيم المصلح محمد بن عبد الوهاب وحركته الوهابية ولهذا رأت العمل على الحد من نشاطه وتقييد دعوته الاصلاحية منعاً لأى خطر تتوقعه وقد ساعدها على ذلك ما قام به علماء مكة من معارضة قوية له بحجة اتيانه بالشىء الجديد فى الفقه الاسلامى كما أن أشراف مكة ساهموا بدورهم فى خلق مثل هذه المصاعب خوفاً على مكانتهم بين الشعب . وهكذا تحالفت هذه القوى الثلاث بما لها من سلطة زمنية ودينية . عند ذلك

لم يجد السنوسى الكبير بداً من ترك الحجاز كما فعل أستاذه السيد أحمد بن ادريس من قبله وولى وجهه شطر بلاد المغرب فى سنة ١٨٤١ مصطحباً معه بعض أتباعه . وبعد أن أقام عدة شهور فى مدينة القاهرة لم يسلم فيها من مهاجمة علماء الآزهر له واصل رحلته غرباً إلى واحة سيوة حيث اضطر أن يطيل فيها اقامته بعض الوقت لما ألم به من مرض ومع أن هذه الفترة التى أقامها فى واحة سيوة كانت أشبه بفترة استجمام له إلا أنه استغلها فى تعليم أهلها وتلقينهم مبادىء دعوته الاصلاحية الجديدة . وهكذا كانت تلك الأسابيع المعدودة التى أمضاها فى واحة سيوة كافية لغرس بذور الدعوة السنوسية بين أهلها وترك فرصة تعهدها للسنوات المقبلة . ثم واصل سيره غرباً بالطريق الصحراوى حتى وصل مدينة طرابلس الغرب فى السنة التالية وهناك استراح بعض الوقت قبل أن يستعد لمتابعة رحلته نحو تونس ولكن الأخبار جاءته وهو فى طريقه إلى بلدة قابس بالانتصارات الجديدة التى أحرزها الفرنسيون فى بلاده الجزائر وبسطهم السيادة عليها فرأى من الضرورى التوقف عن متابعة رحلته هذه والعودة مرة أخرى إلى مدينة طرابلس الغرب ولكنه لم يبق فيها هذه المرة بل واصل سيره إلى مدينة بنغازى حيث انتهى به المقام فى اقليم برقة .

لا ندرى عما إذا كان السيد السنوسى الكبير قد كان فى اقامته النهائية فى اقليم برقة مجبراً أو أنه اختار هذه الاقامة لما توفر فى هذه البلاد من أسباب وجد فيها خير معين له فى دعوته الاصلاحيه الجديدة . الواقع أن هذه النقطة هامة بالنسبة لتاريخ الطريقة السنوسية من جهة ولتاريخ البلاد من جهة أخرى وعلينا أن نقف عندها محاولين تفسيرها وإن كانت الأدلة متوفرة لتأييد كل من القولين .

وجد السيد السنوسى الكبير الطريق إلى بلاده الجزائر مقفلا بسبب تقدم

الفرنسيين فيها كما تبين له بعد أن وصلته أخبار هذا التقدم خطر متابعة السير إلى الجـــزائر إذ فى ذلك مغامرة منه ربما كانت نتيجتها القضاء على حركته الاصلاحية الناشئة التى لم تكن قد قويت بعد لتقف أمام مثل هذا التيـــار الأوربى القوى وهو فى عنف سطوته والذى لن يترك أمامه أى مجال للنشاط. أما مدينة طرابلس فقد كانت كذلك فى حالة من الفوضى والارتباك وقد عاد إليها سلطان العثمانيين من جديد بعد القضاء على سلطة الأسرة القرهمانلية ونزع ســـيادة البلاد من أفرادها ولا شك أن الأتراك وقد عادوا حديثاً إلى طرابلس لن يتركوا له ولأمثاله فرصة القيـام بأى نشـاط ربما كان من ورائه السعى إلى تنظيم أى مقاومة شعبية لسيادتهم وهم الذين استعادوا هـذه الولاية بعد أن فقدوا السلطة عليها طيلة حكم الأسرة القرهمانلية.أما فى الجهات المجاورة لمدينة طرابلس الغـرب فلم تكن الحـالة فيها بأحسن عما كانت عليه فى المدينة نفسها بل كان فى بعضها من العوامل الأخرى ما يزيد المصاعب أمام حـركته التى كان يخشى عليهـا التعرض لأى ضغط قوى وهى ما زالت فى الدور الأول من نموها وقد كفاه ما عاناه فى مكة نفسها فى سبيل المحافظة عليها .

أما بلدة ظليتن التى أقام بها بعـد تركه لمدينة طرابلس الغرب وتعرف فيها بعائلة ابن بركة من قبيلة الفواتير المشهورة بالشرف والعلم والورع فقد حاول أن يتخذ منها مقاماً له وأن يقيم بها زاوية له إلا أنه اضطر أخيراً أن يرجع عن محاولته هـذه وأن يواصـل السير إلى الشرق . وإذا كان بعض كبار السن من أهالى ظليتن الذين ما زالوا على قيد الحياة يعللون ذلك بسماع السنوسى الكبير لنصيحة محيا المريقى الفيتورى المعروف بصلاحه وتقواه والذى طلب منه أن يترك ظليتن ويذهب إلى واحة الجغبوب لبنـــاء زاويته هناك ، وإذا كان مرددو هذه الرواية يرون فيها تعليلا لابطال ما انتواه السيد السنوسى الكبير من اقامة فى ظليتن واتخاذها مقراً لحركته إلا أننا نستطيع أن نقول أن السيد

السنوسي الكبير قد استطاع أن يفهم جيداً بلدة ظليتن وما يسودها من ظروف خاصة بحكم وجود قبر الولى الصالح عبد السلام الأسمر الفيتورى بها وما كان له من أثر قوى فى نفوس أهلها مما قد يعرض دعوته إلى الاحتكاك بهم إذا شيد زاويته هناك واتخذ منها قاعدة للتبشير بطريقته الجديدة لهذا فضل الرحيل عنها والابتعاد عن أى نضـــال توفيراً لما كان سيبذله من جهود فى مكافحة تيارات قد تشغله عن صميم دعوته الاصلاحية التى كانت أعم وأشمل وقد تشغله عن توجيهها الوجهة الصحيحة السليمة .

بعد أن ترك السيد السنوسى الكبير بلدة ظليتن مصطحباً معه الشيخ عمران بن بركة اتجه شرقاً ماراً ببلدة مسراته . فلما مرَّ بها راوده التفكير فى أن يتخذها مقاماً له إلا أن ظروفها لم تكن بأحسن حالا من بلدة ظليتن إذ سبقته إليها الطريقة المدنية لمؤسسها محمد بن حمزة ظافر المدنى والتى بلغت فى فى ذلك الوقت أوج قوتها وقد اتخذت لها من بلدة مسراتة قاعدة لها حيث يقوم قبر مؤسسها السابق الذكر . لقد كان السنوسى الكبير مسالماً فى تأسيس طريقته ودعوته الاصلاحية ولذا كان كثيراً ما يتجنب مواطن الاصطدام لا لضعف فى عقيدته الاصلاحية ولا لقصور عما نصب نفسه له من غاية ولكن توفيراً لجهوده وعدم تشتيتها وهى مازالت فى دور التكوين حتى يضمن سلامة الأسس القويمة لدعوته الاصلاحية واستعداداً للمستقبل الذى سيتطلب منه الكثير من الجهود بعد أن يشتد ساعد حركته ويتهيأ لها اكتساح ما يعوق نجاحها . هذه كانت سياسة السنوسى الكبير فى تأسيس حركته الاصلاحية وهذا ما يمكن أن نعلل به كثرة تنقلاته ونقل مركز دعوته من مكان إلى مكان آخر حتى إذا جاء ابنه من بعده ووجـــد من قوة حركته ما شجعه على تغيير هذه السياسة فعل ذلك وأحرز النصر فى الكثير من المواقف .

تابع السيد السنوسى الكبير سيره نحو الشرق وهكذا وجد نفسه مجبراً

على اتخاذ برقة مقاماً له فالطريق إلى المغرب وبلاد الجـــزائر بالذات مسدود أمامه باحتـلال الفرنسيين لبلاده كما أن الحالة العامة فى لوبيا الغربية ليس فيها ما يشجعه على الاقامة بها والاعتماد عليها كقاعدة لدعوته الاصـلاحية الجديدة لما كان يسودها من ظروف سياسية واجتماعية . أما التفكير فى الذهاب إلى القاهرة فلم يكن هنـاك ما يشجعه عليه بل كان هناك ما يدفعه إلى الاعتقاد فى عبث مثل هذه المحـاولة وقد سبق لنا أن ذكرنا أن علاقاته لم تكن طيبة مع محمد على والى مصر فى ذلك الوقت فضلا عما كان يضمره له بعض علماء الأزهر من عداوة اتخـذت شكل المهاجمة والاتهام الدينى . أما العودة إلى بلاد الحجـاز من جديد فلم يرتح باله إليها لخبرته السـابقة بأحوالها ولهذا فضل الاقامة فى إقليم برقة وكانت ظروف هـذه البلاد وأحوالها مهيأة لقبول دعوته الاصلاحية وبالتالى لضمان ســـلامة جهوده وحمايتها من الرجات العنيفة التى قد تعرقل انتاجها . وهكذا أحسن السنوسى الـكبير اختيار التربة الصالحة لوضع بذور حركته المباركة فكان التوفيق حليفه وكان الانتشار الناجح لدعوته . وهكذا اختار هذا المصلح الـكبير وطنه ومجال دعوته .

وإذا كان الموقع الجغـرافى لشبه جزيرة برقة قد لعب دوراً هاماً فى تاريخ هذه البلاد وحيـاة أهلها فإن أثره كان أوضح ما يكون فى قيـام الحركة السنوسية وانتشارها فيما بعد فهى ببروزها فى البحر الأبيض المتوسط وعزلتها عن دلتا النيل بسبعمائة كيلو متر من الأراضى الشبه صحراوية قد كانت فى أمن من طمع محمد على والى مصر الذى أخـــذ يعمل على توسيع رقعة ولايته بالتوسع فى السودان وبلاد الشـام ولا شـك أن محمد على قد رنا بنظره إلى بلاد المغـرب وحاول أن يرث الدولة القردمانلية المتداعية فى ذلك الوقت وما تفكيره فى مساعدة الفرنسيين فى الحملة على الجزائر إلا دليل على هـذا الاتجاه والتفكير فى شأن لوبيا. وإذا قدر لمحمد على النجاح فى فتوحاته ببلاد الشام

وطال به العمر بعض الوقت لكان من المرجح أن يتجه بنشاطه الحربى فيما بعد نحو المغرب ولبسط نفوذه على برقة بل كل الأراضى اللوبية كما فعل ولاة مصر من ملوك البطالسة الذين سبقوه فى الحركة الاستقلالية بمصر وتأمين حدودها بالاستيلاء على ما يجاورها من البلاد الملاصقة. وهكذا كانت هذه العزلة الصحراوية من جهة الشرق وقيام الدعوة السنوسية فى برقة فى الوقت الذى بدأت فيه جهود محمد على التوسعية فى الانهيار خير واق لها من خطر محمد على وأطماعه. وبرقة من الغرب تفصلها أرض شبه صحراوية كذلك عن طرابلس العاصمة التى عاد إليها النفوذ العثمانى فى أقوى ما يكون بعد انهيار حكم الأسرة القرهمانلية وعودة البلاد للحكم العثمانى. وكان لبرقة فى هـــذا البعد خير حام لها من الحكم العثمانى المباشر الذى كان أوضح ما يكون فى طرابلس العاصمة. وإذا كانت السيادة العثمانية قد عادت إلى لوبيا بأجمعها بعد زوال حكم الأسرة القرهمانلية فإن ذلك لم يكن واضحاً تماماً فى جميع أنحاء برقة بل اقتصر على المدن الساحلية بصفة خاصة ولم تصل إلى ما كان عليه الحال فى المدن الساحلية الأخرى بلوبيا الغربية بحكم قربها من العاصمة حيث مركز السيادة العثمانية.

أما أهالى برقة فقد كانوا وما زالوا من العرب الخاضعين للنظام القبلى إذا استثنينا المدن الساحلية. وإذا كانت القبـــائل العربية التى غزت البلاد وأقامت فيها قد اختلطت بما سبقها من عناصر بربرية وغيرها فإنها على العموم قد احتفظت بحياة البساطة الغير المعقدة. وإذا كانت هذه القبائل العربية قد اعتنقت الدين الاسلامى منذ قرون متطاولة قبل مجىء السنوسى الكبير إليها وتأثيره فيها بدعوته الاصلاحية إلا أنها بحكم الزمن وتوالى السنين وتكاسل الأئمة المسلمين فى مهمتهم قد حادت عن الأصول الصحيحة للعقيده الاسلامية كما حدث لغيرها من أهالى البلاد الأخرى مما جر البلاء على العالم الاسلامى. الواقع أن السيد السنوسى الكبير قد وجـــد أهالى برقة مؤلفين من البدو

المسلمين ورآهم فى عقيدتهم الدينية مقلدين لا عن فهم حقيقى ولهذا لم يكن السنوسى الكبير يدعو شعباً وثنياً ليفهمه حقيقة دينـــه ويبصره بما جاءت به تعاليم هذا الدين فهو كان فى حركته مصلحاً ومرشداً ولم يكن داعياً لعقيدة جديدة لم تكن معروفة قبـــل مجيئه بل كانت مهمته العودة بالأهالى إلى أصول الدعوة الاسلامية الصحيحة وإزالة ما علق بالعقائدمن شوائب.

وإذا كان السنوسى الكبير قد وجد «مسلمى برقة سادرين فى غيابات الضلال معرضين لخطر الاضمحلال السريع من الوجهتين الدينيـة والخلقية فأراد أن ينتشلهم من هـــذه السقطة .» كما يقول الرحالة أحمد حسنين فى كتابه(١) فإن هذا الوصف بعض ما كان يشترك فيه أهالى برقة مع بقية البلاد الاسلامية الأخرى إلا أن السنوسى الكبير رأى فى المجتمع البرقاوى خير فرصة لإجراء تجربته الاصلاحية لما امتاز به من قلة فى عدد السكان لا تتطلب جهوداً كبيرة وأشخاصاً كثيرين وزمناً كبيراً . كما كان هذا المجتمع أكثر تجانساً فى تكوينه الجنسى وخلواً من الأقليات التى تفت دائماً فى عضد الحركات الاصلاحية. وهكذا كانت هذه البلاد خير حقل لاجراء هذه التجربة الاصلاحية حتى تكون نتيجة العمل فيها مقيـــاساً يستفاد منه فى نشر الدعوة الاصلاحية فى البلاد الأخرى.

لم يكن مجىء السنوسى الكبير إلى برقة من بلاد المغرب بالشىء الجديد بالنسبة لأهلها وكان الجديد هو دعوته ولم يتبين أهل برقة هذه الجدة إلا بعد دخولهم فى الدعوة فكثيراً ما رأى بدو برقة «العالم» وهو فى نظرهم كل شخص يستطيع القراءة والكتابة وكانوا يعهدون إليه بتربية أولادهم ويستعينون بما يقدمه لهم من من إرشادات كما كان يقوم بتعليمهم القواعد الاسلامية حسب فهمه لها

---

١) أحمد حسنين : فى صحراء ليبيا ، ص١ ، ص٤٨

واستعدادهم لقبولها كما عرف بدو برقة كذلك «المحكم» "Muhakkam" الذى كانوا يعهدون إليه أمر الحكم فيما يقوم بينهما من خصومات ومنازعات كما كان يقوم بالتوثيق بينهم فى المناسبات وهو فى العادة رجل غريب عن البلاد وأهلها ولهذا كانوا يطمأنون إليه وإلى نزاهته وعدم محاباته لأي طرف من المتخاصمين كما أنهم عرفوا نوعاً آخر من الرجال هو المرابط الذى اشتهر بينهم بالتدين والتعبد مما دفعهم إلى طلب العون منه فى الملمات . وكانت بلاد المغرب بأجزائها المختلفة تمد قبائل برقة بهذا النوع من العلماء والمحكمين والمرابطين حتى زمن مجيء السنوسى الكبير اليها وبدايته بالدعوة الاصلاحية الجديدة وقد وجد منهم اثنين قد اشتهرا بين القبائل . كان أحدهما أحمد بن عبد الله السقورى El-Sakkuri وكان يعيش فى الجهـات الغربية من برقة أما الآخر فهو المرتضى فركاش وكان يعيش فى الطرف الشرقى من الجبل الأخضر . وكان كل منهما يقوم بتعليم أبناء القبائل المجاورة له وفض المنازعات بين الأهالى وقد أصبح كل منهما من أتباع السنوسى الكبير وقد تولى أحفاد كل من هذين الشيخين رئاسة بعض الزوايا السنوسية فيما بعد . والواقع أن قبائل برقة مدينة كثيراً لهؤلاء الرجال لأنه رغم ما كان عليه بعضهم من جهل إلا أنهم علموا القبائل عادة احترام العلم وغرسوا فى نفوس أفرادها محبة الدين والعمل على المحافظة على هذين الأساسين باستمرار . وهكذا كان فى نشاط مثل هؤلاء الرجال على ما فيه من نقص خير مهد لبذر بذور الدعوة السنوسية الاصلاحية بين قبائل برقة لأن أصولها قد تغلغلت فى نفوسهم بفضل جهود مثل هؤلاء الرجال أو على حد تعبير الأستاذ ايفنز بريتشرد قد انغرست فى عظامهم „It is planted in their bones„ (١)

جاء السنوسى الكبير إلى إقليم برقة وقصد الجبل الأخضر بالذات وهناك

E. E. Evans-Pritchard:— The Sanusi of Cyrenaica, P.68 —1

فيما يعرف الآن ببلدة «البيضاء» حيث قبر الصحابى المعروف رافع الأنصارى اتخذ السنوسى الكبير مقاماً له وبدأ فى وضع أساس زاويته الأولى فى لوبيا سنة ١٨٤٣ . ولم يكن اختياره لهذه البقعة اعتباطاً بل بناء على دراسة وتفكير عميق . فهى من حيث المناخ الطيب والماء العذب والخضرة الدائمة شىء يصعب علينا وصفه . أما من حيث الموقع فهى بتوسطها فى الجبل الأخضر يمكنها أن تشرف عليه بسهولة وتجعل أصحابها على اتصال دائم ببقية مراكز الحياة الأخرى كما أن قربها من أطلال قورينا المعروفة الآن بشحات جعل أهلها يستطيعون استغلال أحجار هـــذه الأطلال فى تشييد مبانيهم وسرعان ما أزدهر شأن هذه الزاوية وأصبحت بمثابة الأم لجميع الزوايا الأخرى التى شيدت فيما بعد .

... ...

وببناء هذه الزاوية يبدأ الدور الأول من دعوته فى لوبيا التى كانت بمثابة الحلقة الأولى فى سلسلة البلاد الاسلامية التى خصها بحركته الاصلاحية ذلك أن السيد السنوسى الكبير قد أزعجته الحالة العامة التى آل إليها العالم الاسلامى حتى أصبح أهله فريسة للتوسع الأوربى وغنيمة باردة لكل من غلب من الدول الأوربية وهم الذين كانوا سادة إلى عهد قريب وقد شاهد بنفسه كيف سقطت بلاده الجزائر طعمة فى أيدى الفرنسيين وأصبحت ضحية للحركة الاستعمارية الأوربية التى أخـــذت تركز جهودها فى القارة الأفريقية طيلة القرن التاسع عشر ولم يكن السنوسى الكبير بالشخص العادى الذى تمر به مثل هـــذه الحوادث دون أن تثير اهتمامه أو يلتفت إلى التفكير فيها ومحاولة إيجاد مخرج منها ولم يكن ذلك من الصعب عليه بحكم نسبه ونشأته وتربيته وثقافته وطموحه ورحلاته المتعددة التى ساهمت

كثيراً فى توسيع مداركه وفهمه الدقيق لحال المسلمين عامة لذلك كان موفقاً فى تشخيص الدواء الناجع لهذا الداء الاستعمارى الأوربى الذى أخذ يهدد كيان العالم الاسلامى . رأى السيد السنوسى الكبير ألا نجاة للعالم الاسلامى مما يعانيه من أزمات شديدة إلا بعودة أهله للاسلام الصحيح الذى كفل لهم العزة يوم أن كانوا خير مسلمين محافظين على عقيدتهم متمسكين بتعاليمها . على هذا الأساس قام يدعو القبائل فى برقة ويبشر بينها بحركته التى تنادى بضرورة العمل بالقرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة وعدم الاكتفاء بالأذكار والأوراد والاعتماد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل الجدى ومراعاة أحكام الشريفة الاسلامية فى الأعمال الخاصة والعامة كما كان العهد فى أيام الرسول والخلفاء الراشدين من بعده . والخلاصة أن السنوسى الكبير كان يرى ضرورة قيام الحكم فى البلاد الاسلامية على أسس اسلامية شرعية صحيحة فى ظل أمام عادل يجمع بين الزعامة الدينية والزعامة السياسية جمعاً فعلياً .

... ...

ومع أن الطريقة السنوسية التى وضع أساسها السيد السنوسى الكبير سنة ١٨٣٧ تعتبر من أحدث الطرق الدينية بالنسبة لزميلاتها الأخرى التى يبلغ عددها ثمانية وثمانين طريقة دينية اسلامية(١) إلا أنها تعتبر من أهم وأنجح الطرق الدينية عامة فإنها عمت كل الشمال الإفريقى بصفة خاصة حتى أصبح نشاطها فيما بعد خطراً على السياسة الأوربية التوسعية ومع

---

١ — E. E. Evans-Prichard:— The Place of the Sanusiya Order in the History of Islam, P. 20

أن قارة افريقية قد عرفت الكثير من هـــذه الطرق الدينية الصوفية التى كانت نتيجة لحركة الإحيـاء الدينى العامة التى عرف بهـا القرن التاسع عشر إلا أن الطريقة السنوسية كانت أكثرها نجاحاً فى لوبيا والبلاد المجاورة لها . وهذا ما دعا فرنسا ثم إيطاليا فيها بعد إلى التخوف من حركة السنوسى الكبير وإتبـاع طريقته وتصويرها بصورة المهدد للتقدم الأوربى فى قارة افريقيـة المظلمة وهـذا أيضاً ما دعا الأستاذ ايفنز بريتشرد أستاذ علم الاجتماع بجامعـة اكسفورد بانجلترا إلى أن يدعو إلى عـدم التقليل من شأن هـذه الطريقة واتباعهـا فى الآونة الحـاضرة ثم يقول «كل الدول الأوربيـة بما فيهـا نحن أنفسنا فى هـذا الوقت قد قدرنا عـدد أتباع السنوسية وقوتهم الحـربية فوق قدرها»(١)

وربما كان من أسباب النجاح الكبير الذى أحرزته الطريقة السنوسية أن مؤسسها السيد محمد بن على السنوسى قد انخرط قبل تأسيسه لهذه الحركة فى عدة طرق دينية كالطريقة التيجانية أثناء أقامته بمراكش والطـــريقة الشاذلية والطريقة الناصرية والطريقة القادرية أثناء إقامته بالحجاز وتتلمذ على يد الشيخ أحمد بن أدريس مؤسس الطـريقة الادريسية التى اشتقت تعـاليمها من الأسس الشـاذلية فاستفـاد من كل هـذه الطرق واستطاع أن يقتبس منها أحسن ما فيها وليس معنى هذا أنه قام بمجرد الخلط بين بعض قواعد هذه الطرق ولـكنه كان فى التحاقه بها دارساً لها مختـاراً منها ما يصلح أن يكون أساساً قوياً لطريقة عملية يستطيع بها أن يعود بالمسلمين إلى عهـد الرسول والخلفاء الراشدين مع الاستفادة بما جد فى العالم من تقدم فى الحضارة والمدنية فى النواحى

(١) المصدر السابق ص٢٨

"All the European Powers, including ourselves, at this time greatly overestimated the number of Sanusi adherents and their military strength,,

الزراعية والاقتصادية فى ظل عدل عام وأمن شامل.

ومع أن كل هذه الطرق الدينية كانت سنية فى أسسها إلا أن الطريقة السنوسية تعتبر من أكثرها تمسكا بالسنة لاعتمادها على القرآن الكريم والسنة المحمدية كمصدرين أساسيين للتشريع الاسلامى "Of all the Orders the Sanusiya are perhaps the most Orthodox", (١)

وإذا كان الأستاذ ايفنز بريتشرد يرى أن السنوسى الكبير لم يعترف بغير هذين الأساسين كمصدر للشريعة الاسلامية فانه قد جانب الصواب فى قوله هذا لأنه أنكر على السنوسى الكبير الاعتراف بالقياس والاجماع كمصدرين آخرين للتشريع الاسلامى بعد الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة المحمدية لأن فى هذا تعارضاً وما كان عليه السنوسى الكبير من اقدام على فتح باب الاجتهاد وعدم الاعتراف بقفله كما كان يدعى علماء ذلك العصر الذين كانوا يزعمون أن باب الاجتهاد قد أقفل منذ سنة ٨٢٥م أى بعد الأئمة الأربعة المشهورين. وإذا عرفنا أن الاجتهاد لا يكون إلا إذا اعتمد صاحبه على القياس كمصدر أساسى من المصادر الأربعة للتشريع الاسلامى فإن الزعم بانكار السنوسى لهذا المصدر يتنافى وحالة الاجتهاد التى تزعمها السنوسى الكبير وأيدها الأستاذ ايفنز بريتشرد وإن كان هـــذا الأستاذ قد عاد وقال بأن السيد محمد بن على السنوسى كان من الناحية العملية يطبق ما يسمى بقياس المماثلة (٢)

١ـ E. Evans-Pritchard:— The Place of the Sanusiya Order in the History of Islam.

٢ـ المصدر السابق ص١٣

"Some of the more strictly orthodox Sunni groups, including the Sanusls, acknowledge, at any rate in theory, only these two sources of doctrine and law, but the rest recognize two further sources, Ijma'(Agreement) and Qiyas (Analogy). Muhammad bin Ali al-Sanusi rejected both, though in practice, he made use of what amounts to Analogy."

كان السنوسى الكبير مالكياً فى مذهبه أسوة بما هو عليه سواد الشمال الإفريقى إذا استثنينا أهالى الدلتا فى المملكة المصرية حيث يتبع معظمهم المذهب الشافعى . وقد جر عليه قيامه بالاجتهاد عداوة بعض علماء الاسلام فى القاهرة والحجاز فى ذلك الوقت إذ رأوا فى حركته ما يجبرهم على النشاط وإمعان النظر فيما عليه العالم الاسلامى من ضعف عام وكان نشاطه يتنافى وما عودوا عليه أنفسهم من دعة وراحة غير ناظرين لما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة مست كيان الشعوب الاسلامية فهم لا يهتمون لشىء ما دام الخطر بعيداً عن أشخاصهم وما دامت أبواب الرزق مضمونة لهم فى المرتبات التى يتقاضونها والأوقاف الخيرية التى يبتلعون ريعها . وإذا كان هناك من العلماء من كان مؤمناً بحركة السنوسى الكبير وفائدتها للعالم الاسلامى إلا أن روح الحسد المكبوتة بين ضلوعهم قد أبت عليهم أن يعترفوا بالفضل لأهله واستكثروا أن يكون ذلك على يد غيرهم خصوصاً وأن لا يكون لهم فى التجديد شأن وزاد فى هذا الحسد ما كان عليه السنوسى الكبير من روح وثابة وطموح كبير واستخفاف بالمصاعب وكلها صفات ساعدته على الصمود أمام هذه المعارضة القوية من علماء القاهرة والحجاز وأمام الاتهام بالكفر والالحاد شأن كل المصلحين الذين استهدفوا لمثل هذه الاتهامات كلما ظهر منهم واحد . وبفضل صموده نجح فى التغلب عليها وتحقيق بغيته وأصبحت كل هذه الاتهامات أشبه بزوبعة فى فنجان من الشاى(١) "a storm in a tea cup" وكان من أبرز المعارضين له من علماء القاهرة الشيخ عليش المعروف الذى أصدر

١ـ E. E, Evans-Pritchard:— The place of the Sanusiya Order in the History of Islam, P. 28

فتوى فى حق السنوسى الكبير ولكنه عاد فسحبها عندما تأكد من عدم صحة ما وصله من أخبار عنه.(١)

وكان أهم ما وجه إلى السنوسى الكبير فى دعوته من اعتراض إلى جانب فتحه لباب الاجتهاد يتناول مسائل صغيرة تافهة رأوا فيها تعارضاً مع المذهب المالكى كالإطالة فى السجود أثناء الصلاة بشكل يسبب مضايقة للغرباء عن الطريقة المساهمين فى الصلاة معه . وقراءته للبسملة بصوت عال بينما يقرأها المالكيون الآخرون بصوت خفى وقبض اليدين فى الصلاة ورفعهما وكلها مسائل لا تتناول الأسس الجوهرية للمذهب المالكى فضلا عن أن السنوسى الكبير استطاع أن يدعم رأيه فيها بما يثبت صحتها ومن أراد الاطلاع على ذلك فعليه الرجوع إلى ما تركه لنا من مؤلفات فقهية تناول فيها كل ذلك بالشرح الوافى والإبانة الواضحة . وإذا كان السنوسى الكبير قد سمح لنفسه بما تأتّى له من استعداد فقهى أهله للاقدام على الاجتهاد أن يستفيد من الرخص الأخرى الوارد ذكرها فى بقية المذاهب الثلاثة الى جانب ما فى المذهب المالكى من من رخص فليس معنى ذلك السماح لأى انسان من أتباعه بأتيان هذا العمل دون التقيد بأحكام مذهب خاص كما ادعى الأستاذ ايفنز بريتشرد(٢) وإلا لأصبح كل انسان مجتهداً وفتح باب الاجتهاد للجميع حتى العامة دون التقيد بشروط خاصة للاجتهاد الأمر الذى يتنافى والحقيقة المعروفة عن السنوسى الكبير وطريقته .

أما بخصوص حالة التصوف فى هذه الطريقة التى أسسها السنوسى الكبير

---

١ — لوثروب استوارد الامريكى . — حاضر العالم الاسلامى . تعليقات الامير شكيب ارسلان ص١ ص٧٧ .

٢ — E. E. Evans-Pritchard:— The place of the Sanusiya Order in the History of Islam, P. 28.

فإنها سنية كذلك فى جميع أسسها ويكفى أن نعرف أن أتباع الحركة الوهابية المعروفين بشدة محاربتهم للطرق الاسلامية المختلفة لم يجدوا فى طريقة السنوسى الكبيرما يتعارض وحركتهم الاصلاحية ولهذا لم يحدوا من نشاطها فى الحجاز كبقية الطرق الأخرى وما زالت الزوايا السنوسية إلى يومنا هذا منتشرة فى بلاد الحجاز . وقد منع السنوسى كل أشكال المبالغة فى الحماسة الخاصة بالذكر كما هى العادة فى معظم الطرق الأخرى وقصر الذكر فى طريقته على اسم الجلالة وجعل لها ما يعرف « بالورد » ومنع الاستعانة بالدفوف والمواكب والحركات العنيفة التى ترمى إلى ازدياد حماسة الأشخاص فى الذكر بهز الأجسام بشكل خاص وربما كان السنوسى الكبير فى هذه الناحيـــة سائراً على نهج الطريقة الشاذلية التى اشتقت منها معظم طرق الشمال الافريقى ومنها الميرغنية .

. . .   .

هذه خلاصة دعوته وأهم الأسس التى قامت عليها طريقته وقد أخذ يبشر بها بين قبائل برقة بعد أن اتخذ من الجبل الأخضر مقاماً ومن زاوية « البيضاء » مركزاً ولكن مقامه بها لم يطل كثيراً إذ سرعان ما قام برحلة إلى مكة فى سنة ١٨٤٦ ربما كان الداعى اليها القيام بجولة تفقدية لما سبق له أن وضع أساسه هناك مع التزود من روحانية الأراضى المقدسة بما يساعده على ما هو قائم به من إصلاح حتى إذا ما عاد إلى برقة فى سنة ١٨٥٣ بدأ يشعر بحاجته إلى العزلة التامة والوحدة للتفرغ إلى التعبد المطلق والتأمل النفسى وقد اقترب عمره من السبعين فقصد إلى حيث تقوم زاوية العزيات Azziyyat على الحافة الجنوبية لهضبة برقة حيث أقام له زاوية هناك ولكنه لم يقم فيها إلا مدة قصيرة انتقل بعدها إلى واحة الجغبوب التى تبعد عن ساحل البحر الابيض المتوسط مسافة مائة وستين كيلو متراً .

ويذهب البعض (١) فى تفسير توغل السنوسى الكبير فى الصحراء والابتعاد عن الساحل مركز الحياة فى برقة بهذه المسافة الكبيرة إلى رغبة السنوسى الكبير فى الابتعاد عن السلطات العثمانية الحاكمة التى كانت أوضح ما يكون فى الجهات الساحلية والتى بدأت تهتم بحركته الاصلاحية وأخذت تعمل ألف حساب لنموها وانتشارها بين قبائل الجبل الاخضر كما أن البعض الآخر (٢) يفسر هذا الابتعاد بأن السنوسى الكبير شعر بقرب استيلاء الاجانب على البلاد فاختار التوغل جنوباً والاقامة فى الصحراء . قد يكون كل هذا صحيحاً إلى حد ما ولكننا لا نستطيع أن نسلم به على أنه التفسير الحقيقى لهذا الابتعاد فى داخل الصحراء ولكن الذى نستطيع أن نقوله أن السيد السنوسى الكبير رأى بعد عودته الأخيرة من الاراضى المقدسة أن يخطو خطوته العملية الثانية فى دعوته الاصلاحية وأن يكون أكثر ايجابيه بعد أن مهد لذلك بنشر بذور دعوته ولا يمكن أن يقوم بهذه الخطوة العملية وهو بعيد عن ميدانها الذى اختاره وانتوى أن يتجه إليه بجهوده . ولاشك أن القارىء سيتبين صحة هذا الرأى باستعراض البرنامج العملى للسيد السنوسى الكبير بعد انتقاله الى واحة الجغبوب كما سنبينه بعد .

كانت واحة الجغبوب فى سنة ١٨٥٦ عندما اختارها السيد السنوسى الكبير قاعدة له واحة غير مأهولة بالسكان لمياهها الغير العذبة مع قلة فى كميتها التى لا تساعد على ارواء اكثر من مساحة صغيرة من البساتين ذات النخل القليل العدد فضلا عن أن تربتها بصفة عامة مستعصية على الزراعة . وخلاصة القول أنها لم تكن مكانا صالحا لأى نوع من الحياة المستقرة الناعمة رغم ماتمتاز بهمن

---

(١) E.E. Evans-Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica, P. 14

(٢) لوثروب ستودارد الامريكى . حاضر العالم الاسلامى ، ترجمة نويهض وتعليقات الامير شكيب أرسلان . ج ١ ،

جو صحى بعكس ما كانت عليه جارتها واحة سيوة المعروفة بانتشار الملاريا بين أهلها لكثرة عيونها ومياهها العذبة الراكدة إلا أن السنوسى الكبير فى اختياره لواحة الجغبوب كقاعدة له لم يكن يعتبر راحته هى الهدف الأول من الحياة وإلا لما حمل نفسه مشاق كل هذه الانتقالات والغربة عن الأهل والوطن والتعرض للهجوم والنقد وترك أماكن قد تهيأت له فيها سبل الراحة التامة والحياة الناعمة . ولم يكن السنوسى الكبير فى اختياره لواحة الجغبوب ايضاً قد اختار اعتباطاً أو من باب الصدفة وإلا لتحول عنها بعد أن تبين له خلوها من وسائل الراحة والنعيم المطلوب ولكن اختياره لها كان بعد دراسة وتفهم لأهميتها وتقدير لقيمتها الاستراتيجية فهى على مسافة تجعل من الصعب فى ذلك الوقت على السلطة العثمانية الممثلة فى حكام المدن الساحلية أن تهتم بشأنه وتتبع نشاطه كما أنها تجعل من العسير على الحكومة المصرية فى ذلك الوقت أيضا أن تلتفت إلى نشاطه أو تحاول الوصول إليه . أما بالنسبة للنفوذ الفرنسى الذى أخذ يتغلغل فى وسط افريقيا ويقترب من الاملاك العثمانية الساحلية فهى فى أمان منه لبعدها الكافى عن متناوله مع اليقظه التامة لأعماله ونشاطه . وهكذا رأى السنوسى الكبير فى واحة الجغبوب قوقعة صلبة لتحتويه وتكفل له السلامة من أى خطر يتوقعه أو احتكاك بالسلطات الحاكمة التى كانت ترتعش من حركات المصلحين ويذهب بها الخوف من خطرها إلى حد يجعلها تحسب للامر الف حساب مما يفوت الفرصة أمام كل محاول للاصلاح أو ناشده . وواحة الجغبوب كذلك تقع عند ملتقى طريقين هامين للقوافل أحدهما للحجاج يسلكه بعض أهالى شمالى غربى افريقية عبر الأراضى المصرية الى الأراضى المقدسة فى الحجاز والآخر لتجارة القوافل يصل ساحل البحر الأبيض بمراكز التجارة فى الواحات المنتشرة فى الصحراء الكبرى ومنها الى بلاد السودان جنوبا وهكذا بفضل هذين الطريقين أصبحت هذه الواحة على اتصال بالعالم الخارجى بقدر

ماهى فى عزلة عن بقية جيرانها بما يفصلها عنهم من أراض صحراوية واسعة . والجغبوب كذلك أكثر الامكنة توسطا لتكون مركزا على مسافة متساوية مع ما أنشأه من زوايا وما سينشئه فى لوبيا بأجمعها وصحراء مصر الغربيــة والسودان لاسيما وأن برقة التى وقع عليها اختياره للقيام بتجربته الاصلاحية شبه جزيرة أقرب ماتكون إلى الشكل الدائرى . وواحة الجغبوب بحكم موقعها كذلك تصلح أن تكون مركزا لنشر الوفاق بين قبائل الصحراء المتعــددة والقضاء على مابينها من خصومات ومنازعات واحلال السلام بينها كخطوة ضرورية للقيام بحركته الدينية الاصلاحية وقد تم له ذلك بعد انتقاله اليها اذ سرعان ما انقطعت تلك الاغارات المتواصلة التى كانت تشنها قبائل الشرق والغرب على بعضها البعض بل استطاع أن يقضى على ماكان بين قبائل برقة نفسها من مشاحنات وعداوة قديمة بحكم هذا الموقع الجغرافى المنعزل الذى مكنه من أن يكون فى موقف المحايد بالنسبة للجميع وأن ينظر نظرة الفاهم لمشاكل كل القبائل وما أشبه ذلك بموقف حكم المباريات الرياضية فبقدر حيدته وتتبعه لحركات اللاعبين يكون حكمه اقرب الى الواقع والصواب بعكس ما لو اندمج فيهم وحصر اهتمامه فى زاوية خاصة من مبارياتهم .

وربما كان السنوسى الكبير فى نقل قاعدته الى الجغبوب مقدمة لاتجــاهه بنشاطه نحو الجنوب حيث رأى فى السودان وأهله ميدانا فسيحا للتبشير بالدين الاسلامى بين الجماعات الوثنية هناك وقد أخذت موجات البعثات التبشيرية المسيحية تغزو أواسط افريقية فى القرن التاسع عشر على أثر نشاط الحركة الكشفية فى افريقية ولا شك أن من أهم اغراض حركته الاصلاحيــة نشر الدين الأسلامى بين الجماعات الوثنية وهدايتها إلى جانب تفهيم المسلمين عقيدتهم الدينية الصحيحة وارشادهم الى مواطن القوة فيها حتى يعود للاسلام مجــده السابق وذلك هدف انسانى جليل فطن إليه السنوسى الكبير وليس هنــاك

أحسن من واحات الصحراء الكبرى وبلاد السودان وما وراءها من افريقية الاستوائية للقيام بتحقيق هذه الغاية خصوصا وأنه بدأ يطمئن بأن صدى دعوته قد أخذ فى الظهور بوضوح فى بلاد الشمال الافريقى بفضل أعوانه واتباعه الذين كانوا خير ممثلين له وناشرين لدعوته فانتشرت زوايا طريقته فى لوبيا بأجمعها .

كل هذه العوامل يمكننا أن نعتمد عليها كمفسر لأهمية واحة الجغبوب بالنسبة للسنوسى الكبير وتفضيله الاقامة بها على ما فيها من عسر وضيق بالحياة المستقرة وهكذا أيضا تحققت له نبوءة محيا المريقى الفيتورى عندما نصحه بالذهاب الى الجغبوب لبناء زاوية له بدلا من اقامتها فى ظليتن عندما كان السنوسى الكبير فى زيارته لعائلة ابن بركة الفيتورى بهذه البلدة

... ...

كانت دعوة السنوسى الكبير فى أول أمرها حركة اصلاحية داخلية فى الاسلام نفسه ثم أصبحت بانتقاله الى واحة الجغبوب الى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة وبذلك يمكننا أن نعتبر انتقال السنوسى الكبير الى هذه الواحة بداية مرحلة جديدة فى دعوته الاصلاحية تقوم فى اسسها على سياسة مرسومة ثابتة تضمن لها البقاء والاستمرار بعد أن عرف كيف يختار لها ما يلزمها من استعدادات وقد تمثلت جهوده الاصلاحية بعد انتقاله الى واحة الجغبوب فى القيام بالأعمال الآتية :

أولا : شرع السيد السنوسى الكبير فى بناء زاويته بالجغبوب على اساس ما تتطلب سياسة العهد الجديد الذى هو مقبل عليه ولهذا أتت زاوية الجغبوب فى بنائها وهندستها متمشية مع المرحلة الجديدة محققة لاهداف الدعوة فى طورها الحديث وقد استعان فى بنائها بالحجر وكان بعض أقسامها مكونا من طابقين وهى تضم جامعا أقرب الى المربع فى شكله يتسع لخمسمائة أو ستمائة شخص من

المصلين وبه امام للقيام بواجب الصلاة بالناس ومؤذن يدعوهم اليها عند حلول أوقاتها وبالزاوية مدرسة قرآنية «كتّاب» لتحفيظ القرآن الكريم تحت اشراف فقيه مخصص للقيام بهذا العمل وبها ايضا معهد دينى يلتحق به من أتم حفظ القرآن الكريم لدراسة علوم الشريعة الاسلامية وما تتطلبه من دراسة لغوية ومنطق وفلسفة وتاريخ وجغرافية وفلك ومبادىء العلوم الرياضية وكل مايساعد الطالب على تفهم حقيقة دينه نظريا وعمليا وكان يقوم بالتدريس فى هذا المعهد اساتذة مشهور لهم بالكفاءة العلمية والمقدرة الشخصية كان فى مقدمتهم السيد أحمد عبد القادر الريفى . وقد استطاع هذا المعهد أن يمد البلاد بحاجتها من رجال للقيام بالمسائل الشرعة وارشاد الناس وتفهيمهم قواعد دينهم وقد تخرج فيه علماء افذاذ استطاعوا أن يبرهنوا على تفوق ملموس فى هذه الناحية . أما من كان منهم يريد الاستزادة والتبحر فى العلوم الشرعية فكان فى استطاعته أن يلتسب الى الجامع الأزهر الشريف دون أن يشعر بصعوبة تعوقه عن متابعة حلقات الدروس لما له من استفادة سابقة تحصل عليها فى معهد الجغبوب .

ولما كان معظم الطلبة الملتحقين بالمعهد غرباء عن واحة الجغبوب فقد خصص لهم أماكن لسكناهم عرف كل منها باسم « خلوة » كثيراً ما كان الطلبة يختلون فيها للتعبد أثناء الليل ومن هنا جاءت إليها التسمية . وكان لهذه «الخلوات» نظام أشبه بنظام الأروقة فى الجامع الأزهر الشريف إذ كان جامع الجغبوب يضم عدداً من « الرباطات » كل منها يضم بدوره عدداً من « الخلوات » . وقد خصص المشرفون على جامع الجغبوب كل « رباط » لبلاد معينة من البلاد لإيواء أبنائها مما يدل على اتساع هدف هذه الحركة وعدم قصرها على لوبيا وحدها . فهذا رباط « السوادين » وكان يضم الطلبة الملتحقين بالمعهد وينتمون إلى بلاد السودان وأولئك الذين كانوا يقومون بالخدمة فى زاوية الجغبوب من أبناء السودان وما زال هذا « الرباط » قائماً إلى يومنا هذا . وكان هناك « رباط

السيوية » للطلبة الآتيين من واحة سيوة . وملحق بالمعهد مكتبة (١) علمية اهتم السنوسى الكبير بشئونها وتزويدها بأهم المصادر اللازمة فى حركته الاصلاحية والعلمية إذ استطاع بجهوده الموفقة رغم قصر المدة التى مضت على تشييدها أن يقتنى لها ثمانية آلاف (٢) مجلد معظمها كان خاصاً بالشريعة الاسلامية والفقه الاسلامى وعلوم الفلسفة والتاريخ وتفسير القرآن والشعر وعلم الفلك . وبفضل هذه الجهود الموفقة واستعانته بالأساتذة الأكفاء أمكن الاستفادة من هذه المكتبة وهذا الجو العلمى الهادىء الخاص حتى كان من الصعب على الانسان أن يجد فى ذلك الوقت بيئة علمية خالصة تضارع ما كان عليه معهد الجغبوب فى ذلك الوقت (٣) إذا استثنينا القاهرة بجامعها الأزهر . وكان الشعر العربى من الفنون العربية التى ازدهر شأنها فى واحة الجغبوب وقد وصل إلى مرتبة سامية بقيت آثار ذلك واضحة فى بداية القرن العشرين عندما قام الشيخ عثمان الحشائشى الرحالة التونسى برحلته العلمية إلى الجغبوب. وحول هذه الزاوية المركزية كانت تقوم بيوت « الإخوان » وكانوا أعواناً للسنوسى الكبير وأساتذة بمعهد الجغبوب. هذا إلى جانب السكن المخصص للسنوسى الكبير نفسه وعائلته . وملحق بالزاوية غرف خاصة بالطبخ وتقديم الطعام والشراب وتهيئة الراحة للضيوف النازلين أو للاجئين إلى جانب صالة الاستقبال الكبيرة المعروفة « بمجلس الضيوف » وقد فرشت بالبسط والوسائد وما زالت باقية إلى يومنا هذا وقد اتخذها سكان واحة الجغبوب مأوى لهم أثناء الغارات الجوية فى الحرب العالمية الثانية . وهناك أيضاً أماكن معدة لإيواء الخدم السودان المعروفين بالعبيد المساهمين فى خدمة شئون الزاوية وأهلها . أما آبار المياه فقد حفر منها ما يسد الحاجة المطلوبة .

(١) ضاعت هذه المكتبة بما جد عليها من كتب فى عهد خلفائه باستيلاء الايطاليين على الجغبوب اذ تعمدوا نهبها وحرق معظم كتبها .

(٢) E.E. Evans-Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica, P. 17

(٣) „ „ „ „ , P. 17

وحول كل هذه المبانى والمرافق أقام سوراً حجرياً له عدة أبواب لضمان سلامة أهلها كما جرت عليه العادة وقتئذ .

وبفضل هذا النشاط العلمى أصبحت واحة الجغبوب تضم مجتمعاً جامعياً بما فى هذه العبارة من معنى علمى دقيق It was in fact almost purely a University Society (١) . وربما كان السنوسى الكبير فى سياسته العلمية هذه سائراً على نهج أجداده الأدارسة عند ما جاء ادريس الأول إلى بلاد المغرب وقام ابنه من بعده بتأسيس جامع القرويين بعاصمته فاس الذى أصبح منارة للعلم والفقه الاسلامى والذى حمل لواء هذه المهمة وما زال يحملها طيلة هذه القرون وقد سبق للسنوسى الكبير أن درس فى جامع القرويين ولا شك أن الأفكار عادت به أثناء الدراسة إلى تلك الأيام التى حمل فيها أجداده مشعل العلم فأضاءوا أركاناً كان مقدر لها سيادة الجهل لولا هذه المؤسسة العلمية . وهكذا كان معهد الجغبوب فى لوبيا حلقة هامة أكملت ذلك الفراغ الملموس فى سلسلة المعاهد الاسلامية المنتشرة بطول الساحل الافريقى الشمالى الممثلة فى الجامع الازهر بالقاهرة وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس وقد احتفظ معهد الجغبوب بأهميته العلمية الممتازة إلى أن قضى عليه الايطاليون بالاستيلاء على لوبيا . وإذا كان من حق مصر وتونس ومراكش أن تفخر بمعاهدها الدينية وما لها من فضل كبير فى حماية أهلها من الزيغ الدينى وتفهيم الناس حقيقة دينهم مما حبب اليهم التفانى فى سبيل رفع كلمة الاسلام والاستشهاد دونها فمن حق لوبيا أن تفخر بمعهدها فى الجغبوب وما تفرع عنه من زوايا منتشرة فى أنحاء البلاد وقد أتت بنتيجة مدهشة ولم يمض على إنشائها زمن طويل حتى يحق لنا أن نقول دون تردد أن البـــلاد مدينة فى موقفها أمام الغزو الأجنبى عندما استهدفت له فى سنة ١٩١١ من طرف الجيوش الايطالية لأولئك الذين غرسوا

---

(١) E. E. Evans-Pritchard : The Sanusi of Cyranaica, P. 17.

بذور حب الاستشهاد فى سبيل الله بين أفراد الشعب وعلموا أفراده كيف يبذلون أرواحهم فى هذا السبيل . وهكذا قام معهد الجغبوب وما تفرع عنه من زوايا بواجبه كما قام من قبله بقية المعاهد الاسلامية الأخرى.وما أجدرنا وقد تحققت بعض أهدافنا أن نلتفت إلى هذا التراث العلمى فنعمل على احيائه من جديد حتى نضمن له البقاء والاستمرار فنكون بذلك ضامنين لروح الشعب الفتية واستمرارها .

ثانياً : كان على السنوسى الكبير وقد اختار واحة الجغبوب مقاماً له أن يتغلب على مشكلة تموين أهلها حيث إنها لا تنتج إلا القليل من التمر وهو شىء لا يكفى إطعام أهلها فضلا عن توفير الجو اللازم للحياة العلمية المستقرة التى وضع أساسها وقد أصبح عدد سكانها بعد تشييد معهد الجغبوب حوالى الألف ولا شك أن هذا العدد كبير بالنسبة لما يجب أن تستوعبه واحة الجغبوب وبالنسبة لما كانت عليه قبل مجىء السنوسى الكبير إليها كوكر لبعض قطاع الطرق الذين كانت مهنتهم التربص للقوافل ونهب أمتعتها واتخاذ هذه الحرفة وسيلة لضمان رزقهم . أما الآن وقد استحالت من مركز للصوصية إلى مكان يطلب الجميع عنده الأمن والسلام إلى جانب ما يجدونه من ضيافة وإرشاد وتعليم فكان على السنوسى الكبير أن يجد حلا لمشكلة تموينها وقد وفق فى هذه المهمة أحسن توفيق مستعيناً فى ذلك بما كان له من إبل اتخذ لها من أعشاب الأراضى الواقعة إلى الغرب من واحة الجغبوب مرعى وبما له من أبل فى العزيات فى استجلاب المؤن الضرورية من المراكز الساحلية إلى واحته كما استعان فى حلها أيضاً بما كان يرسله إليه أتباعه من رؤساء الزوايا الأخرى من سلع بعد أن يأخذوا لأنفسهم ولزواياهم ما يكفى ادارة هذه الزوايا . وكان معظم واردات هذه الزوايا من البضائع العينية والمؤن اللازمة لحياة الأفراد ولكن أنى لمثل هاتين الوسيلتين أن تقوما بسد حاجة أفراد المجتمع الذى كونه على ما فيها من

اعتماد على الغير وتعويد أتباعه روح التواكل ، لهذا نراه يلجأ إلى طريقة عملية فيها كل الخير له ولأتباعه فضلا عن أنها تعودهم الاعتماد على النفس وغرس روح العمل بين صفوفهم ولهذا أخذ يقرن التعليم فى معهده بالحياة العملية وما أقرب هذه الطريقة التربوية التى اختطها بما نعرفه الآن من طرق حديثة فى التعليم كطريقة المشروع للأستاذ ديوى الامريكى وغيره من أصحاب الطرق التربوية الأخرى . كان السنوسى الكبير يخصص يوم الخميس من كل أسبوع دراسى للمنهج العملى من الدراسة فيقوم الطلبة تحت إشراف أساتذتهم وبرئاسته بأعمال يدوية يحققون بها معظم ما يحتاجون إليه من بناء ونجارة وحدادة ونساجة وإعداد ملابس وبذلك يتحول المعهد إلى أشبه بورشة صناعية ترى الكل فيها مشغول بعمل يدوى نافع يحقق المصلحة للجميع . كل ذلك إلى جانب اهتمامه بتوسيع رقعة الأرض المزروعة فى واحة الجغبوب بالاكثار من حفر الآبار والقيام بغرس الأشجار وزراعة بعض أنواع الخضر والفاكهة التى يحتاجون اليها فى حياتهم اليومية . وكان من تشجيعه للزراعة أن يقول للطلبة إذا سألوه تعليمهم الكيمياء بأن « الكيمياء تحت سكة المحراث » وأحياناً يقول لهم « الكيمياء هى كد اليمين وعرق الجبين » وكان يشوق الطلبة والمريدين إلى تعلم الحرف والصناعات ويقول لهم جملا تطيب خواطرهم وتزيد من رغبتهم فى حرفهم حتى لا يزدروها أو يظنوا أن طبقتهم هى أدنى من طبقة العلماء فكان يقول لهم « يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية وليس غيركم بأفضل منكم » وأحياناً يدفع بنفسه بين أهل الحرف ويقول لهم وهو يشتغل معهم « يظن أهل الأوريقات والسبيحات أنهم يسبقوننا عند الله لا والله مايسبقوننا » . يريد بأهل الأوريقات العلماء وأهل السبيحات العابدين والقانتين فكأنه يريد أن يقول للمحترفين والصناع لا تظنوا أنكم دون العلماء والزهاد مقاماً بمجرد كونكم صناعاً وعملة وكونهم هم علماء وقراء . هذا ليزيدهم رغبة وشوقاً ويعلم الناس حرمة

الصناعة التى لامدنية إلا بها (١) .

بهذا المنهج العملى ساهم السيد السنوسى الكبير فى حل مشكلة تموين واحة الجغبوب وبهذه السياسة العملية التى تقوم على مبدأ الاكتفاء الذاتى عمل السيد السنوسى الكبير على تنشئة جيل جديد فاهم لحقيقة دينه وبهذه الروح التعليمية العملية كان السنوسى الكبير فى طليعة رجال التربية العمليين بل سبق بعضهم فيما نادوا به فى الأعوام الأخيرة من اتباع لطرق خاصة كطريقة المشروع وغيرها . وهو فى ذلك مستلهم ما كان يفعله علماء المسلمين يوم أن كان العرب فى أوج مجدهم فما أحوجنا إلى هذا النوع من التربية فى مدارسنا وما أحوجنا إلى الكثير من أمثال هذا المربى المصلح الفاهم لماهية التعليم وأهدافه !!!

ثالثاً :ـ كان أيضاً على السنوسى الكبير وقد انتقل إلى واحة الجغبوب أن يستغل ما لهذه الواحة من موقع هام فى تجارة القوافل وأن تكون له سياسة واضحة فى نشاطها تعود على أصحابها بالخير وعلى مؤسسته الناشئة بالفائدة المطلوبة . وكان عليه أن يعمل على نشر الأمن والسلام فى ربوع الصحراء حيث تمتد شرايين هذه التجارة حتى يزدهر حالها ويتحقق المطلوب منها وسرعان ماوصل إلى غايته هذه لاعن طريق القوة وتوزيع رجال الأمن كما يفعل الحكام وأصحاب السلطان لأنه يعلم أن ذلك فوق طاقته وشىء لا يمكن الاقدام عليه لاستحالته عملياً فضلا عن تعارضه وما يجب أن يكون صدوره كسلوك تلقائى من أفراد الشعب لأن مصير القوة الكابتة الزوال ومصير السلوك الفردى الظهور على حقيقته . نجح السنوسى الكبير فى تحقيق هذه الغاية رغم قلة السنوات التى صرفها فى هذا المجهود بماله من سلطة روحية استطاع أن يبثها بين رجال القبائل المنتشرة فى الصحراء وفى مقدمتها قبيلة المجابرة فى واحة جالو وقبيلة « زوية » المنتشرة فى جخرة فيما بين واحة الجغبوب شرقاً وواحتى جالو وأوجلة غرباً .

---

(١) لوثروب ستودارد الأمريكى : حاضر العالم الاسلامى ج ١ ـ تعليقات الامير شكيب ارسلان

وكان رجال هاتين القبيلتين يسيطرون على تجارة القوافل في الصحراء الكبرى بمالهم من استعداد خاص وبفضـــل اكتساب هاتين القبيلتين أصبح السيد السنوسى الكبير يتحكم فى معظم تجارة القوافل ويهيمن على مسالكها وأصبح التجار يأمنون على تجارتهم من النهب والسلب فازدهر أمر التجارة وعم الرخاء وكان سكان الواحات أول من استفاد من هذا الانقلاب الكبير الذى طرأ على هـذه التجارة وأصبحت الجغبوب حلقة هامة فى تجارة القوافل بعد أن كانت ملجأ لقطاع الطرق وناهبي القوافل .

وبفضل اعتراف رجال قبيلة زوية بالتبعية للطريقة السنوســية استطاع السنوسى الكبير أن يمد نفوذه إلى الكفرة جنوباً التى تبعد مسافة ٧٠٠ك م عن واحة الجغبوب ذلك أن قبيلة زوية كانت تملك معظم أشجار النخيل فيها بعد أن استولت عليها سنة ١٨٤٠ (١) من أهلها قبائل التبو الذين كانوا يمثلون بقايا العناصر البربرية التى لجأت إلى الكفرة كمنطقة للعزلة أمام الزحف الاسلامى وانتشار العنصر العربى فى شمالى افريقية . وقد وعدت قبيلة زوية السنوسى الكبير بالسيادة التامة له على هذه الاحراش من النخل وعيون الماء الموجودة بالكفرة اذا قام ببناء زاوية سنوسية لهم هناك وقد رحب السنوسى الكبير بهذا العرض واستجاب لرغبتهم هذه وأرسل إليهم أحد أعوانه للاشراف على تشييد زاوية فى واحة الجوف Jauf عرفت فيما بعد بزاوية الاستاد (بقلب الذال دالا) وقد اتخذها خليفته السيد محمد المهدى قاعدة له بعد أن انتقل إليها من واحة الجغبوب وبامتداد نفوذ السنوسى الكبير إلى واحة الكفرة ازداد أمر اشرافه على تجارة القوافل وتنظيمها باكتسابه لحلقة أخرى هامة فى نشاط تجـارة القـــوافل الصحراوية كما أن سياسته فى اقامة الزوايا فى بقية الواحات الأخرى كانت خير

---

(١) K. D. Bell – Kufra 1. P. 4

مشجع لها فى الميدان لما كانت توفره لرجال القوافل من أمن وسلام وضيافة يجدونها عند وصولهم إليها . حقاً لقد خلق السنوسى الكبير عالما جديدا فى قلب الصحراء !

رابعا : وكان كذلك على السيد السنوسى الكبير بعد انتقاله إلى واحة الجغبوب أن يتجه بنشاطه إلى الجنوب وقدهاله نشاط البعثات المسيحية التبشيرية فى ربوع السودان خصوصا وانه قد بدأ يطمئن إلى تغلغل دعوته الاصلاحية فى البلاد الساحلية بانتشار مراكز دعوته الممثلة فى الزوايا بجميع بلاد الشمال الافريقى . وقد نجح السنوسى الكبير فى وضع أسس هذه السياسة التبشيرية وسار فيها بخطى واسعة حتى إذا ماأتى خليفته السيد محمد المهدى من بعده وجد الطريق ممهداً واستطاع أن يصل إلى نتائج طيبة . وما كان للسيد السنوسى الكبير أن ينال مثل هذا النجاح لولا إيمانه الصادق بدعوته وتفانيه فى نشر مبادئها الاسلامية ورسم الخطط السليمة المؤدية إلى هذه الاهداف وقد استعان فى كل ذلك بوسائل متعددة كان فى مقدمتها استغلال تجارة القوافل فى هذه الغاية بارشاد القائمين عليها إلى حقيقة دينهم وتفهيمهم للقواعد الاسلامية الصحيحة خصوصا ما يتعلق منها بالتجارة والمعاملة حتى يكونوا خير رسل للدعوة الاسلامية فى الجهات الجنوبية التى يتاجرون مع أهلها . وهكذا استطاع تجار القوافل أن يكتسبوا ثقة أهالى السودان ويحببوا اليهم الدين الاسلامى بما كانوا عليه من اخلاص فى المعاملة وصدق فى البيع والشراء حتى أن كثيرا منهم كان يقوم بمهمة التبشير بالدين الاسلامى بين جماعات الوثنين من أهالى السودان وينجح فى مهمته دون أن يكلف نفسه مشقة المناقشة والتفهيم والتحايل كما كانت تفعل بعض البعثات المسيحية التبشيرية المؤيدة بقوة النفوذ والسلطان . بهذه الطريقة السلمية البسيطة نجح السيد السنوسى الكبير فى الوصول بالدعوة الاسلامية الى أماكن بعيدة فى بلاد السودان ما كان يستطيع أن يصل إليها الغير وما كان يستطيع أن

يصل اليها السنوسى الكبير لو لم يلجأ الى هذه الوسيلة الطبيعية .

وبفضل تجارة القوافل ايضـــا استطاع السنوسى الكبير أن يكون على اتصال بالأمير محمد الشريف الذى أصبح سلطان واداى سنة ١٨٣٨ وأن يجدد علاقته به اذ كان كل منهما زميلا للاخر أيام طلب العلم فى مكة المكرمة وقد نشأت بينهم صداقة متينة جعلت العلاقة بينهما دائمة فكانت خير معين للسنوسى الكبير بين رعاياه بواداى . وليس بالكثير على السلطان محمد الشريف أن يتخذ مثل هذا الموقف اذ كثيرا ما كانت الزمالة المدرسية خير معين على تهيئة الأسباب وحل بعض المشاكل والتقريب بين وجهات النظر وكثيرا ما لجأ إليهـــا بعض رجال السياسة للوصول الى الكثير من الحلول المقبولة .

ولم يكتف السيد السنوسى الكبير بهاتين الوسيلتين لنشر الدين الاسلامى جنوبا بل استطاع كذلك أن يجد فى تجارة القوافل وسيلة اخرى لتحقيق هذه الغاية اذ بدراسته لحركة التجارة مع بلاد الجنوب وجد أنها تضم بين سلعهـــا المتبادلة مايأتى به تجار القوافل من رقيق يبيعونه فى الاسواق الساحلية فقـام بشراء قافلة تجارية كانت تمر بواحة الجغبوب فى طريقها إلى الموانى الشماليـــة وكل بضاعتها من العبيد المجلوبين من بلاد السودان ثم قام بتعليم افرادها عقيدة الدين الاسلامى وبعد أن اطمأن لاستيعابهم لهذه الدعوة الاسلامية واعتقهم عمل على اعادتهم إلى موطنهم الأصلى فكانوا له خير دعاة لدعوته التبشيرية بين مواطنيهم لأنهم أقرب من سواهم إلى التفاهم مع بنى جنسهم وبفضل هذه البعثة التبشيرية العملية عرف الاسلام طريقه الى الكثير من الجماعات هناك .وهكذا عرف السنوسى الكبير كيف يستغل حكمة إباحة الرق فى الشريعة الاسلاميـة من أجل العمل على نشرها ورفع لوائها فى مجاهل افريقية وفى هذا العمل تبرير واضح لمشروعية الرق فى الاسلام .

هذه هى الاسس الهامة التى رسمها السيد السنوسى الكبير لدعوته بعد انتقاله

الى واحة الجغبوب ولاشك أنها أسس محكمة الوضع مدروسة النتائج وقد برهنت التجارب والأيام على صحتها وسلامة أهدافها . كل ذلك فى فترة قصيرة لا تعدو سنوات معدودات.

... ...

إن الكلام على السنوسى الكبير وحركته الاصلاحية لا يكون وافياً بالغرض المطلوب مالم نستعرض الدور الذى لعبته « الزاوية » فى هذه الحركة والأثر الحميد الملموس الذى خلفته فى البلاد وأهلها . فهى اسم حقيقى أطلق عليها لما قامت به من أهمية خاصة فى هذه الحركة حتى أنه يمكننا أن نجعل كلمة « ركن » مرادفاً لها فى هذه الدعوة . ويبدو أن هذه الكلمة « الزاوية » لم تكن بغريبة عن هذه الدعوة لأهمية عملها وإن كان المعنى الأصلى لها هو ركن البناء، ثم أصبحت هذه الكلمة « الزاوية » تطلق على «الخلوة» التى يختلى فيها المتعبدون للتفرغ للعبادة الخالصة . وبهذا صارت ملجأ كل شخص يطلب العون من هؤلاء النساك المعتزلين بها . ومن ثم أيضا أصبحت مصدراً للارشاد الدينى للجماعات . والواقع أن قيام دعوة السيد السنوسى الكبير ونجاحها وإن اعتمدت على شخصية السنوسى الكبير وإيمانه بحركته ومساعدة الاخوان له فإن قيام « الزاوية » كان الاساس الثالث فى نجاح هذه الحركة وضمان استمرارها من بعده . وإذا كانت هذه الزوايا قد اختلف بعضها عن بعض من حيث الكبر وتعدد الحجرات فإنها قد اتفقت جميعها فى الغاية وتعاونت فى سبيل الوصول بالحركة الاصلاحية إلى مرتبة الكمال عن طريق العلم .

وتضم كل زاوية فى العادة مسجدا للصلاة ومدرسة قرآنية لتحفيظ الصبية القرآن كما يلحق بها « مضيفة » خاصة لاستقبال الضيوف للقيام بواجب الضيافة طيلة ثلاثة أيام كما جرى به العرف عند العرب من اهل البلاد . وملحق بالزاوية

كذلك بيت شيخها وعائلته وقد يلحق بها غرف للاساتذة والطلاب والاخوان والمريدين والخدم وعائلاتهم اذ كان للزاوية مكانة تقتضى توسيعها على هذا النحو وموارد تساعدها على القيام بجميع واجباتها . وبناء الزاوية أو مبانيها يقوم حول مساحة داخلية متسعة حيث يأمن رجال القوافل على بضائعهم ودوابهم وكثيرا مايكون هناك بئر فى الساحة الداخلية هذه أو على مقربة من الزاوية لامداد أهلها والنازلين بها بالمياه اللازمة . ولحصانة ومتانة الكثير من هذه الزوايا تحول بعضها إلى أشبه مايكون بالقلاع عندما تعرضت البلاد للغزو الايطالى فيما بعد بعد أن أدخل الإخوان السنوسيون عليها بعض الاصلاحات والترميمات البسيطة . وكثيرا أيضا مايكون للزاوية حديقة أو حدائق صغيرة على مقربة منها تزود أصحابها بما يحتاجون إليه من أنواع الخضروات والفواكه المطلوبة فضلا عما فى العمل فيها من مساهمة فى تعويد الاساتذة والطلاب روح الاعتماد على النفس . وجرت العادة كذلك أن تكون مقبرة الموتى لأهل المنطقة على مسافة قريبة منها تبركا بها وكثيراً ما كانت بعض الزوايا تضم عدة مئات من الأشخاص ولكنها فى المتوسط كانت تضم مابين خمسين ومائة شخص بما فى ذلك زوجات المتزوجين منهم وأطفالهم . وعلى العموم فإن أهمية الزاوية لم تكن تقدر بكثرة عدد من يشغلها ولكن بمركز قبيلتها وعدد اتباعها من بدو الجهات القريبة . وجرت العادة بأن تكون الأراضى المحيطة بالزاوية منطقة حرام لايسمح لغير المشرفين على الزاوية باستغلالها . وكثيرا ماكان يزداد دخل الزاوية بكثرة التبرع لها بالأراضى والأشجار والحيوانات والعيون المائية والآبار وكثيراً ما كان يقوم النزاع حول ملكية أى عقار وينتهى النزاع حوله بالتسليم به الى الزاوية المجاورة حلا للاشكال فللزاوية شخصية معنوية قانونية تخولها حق ادارة اوقافها . كما كانت هناك طريقة اخرى تتحصل بها الزاوية على تنمية ايرادها وذلك بالحصول على الاذن من اصحاب بعض الاراضى بزراعتها

وبالممارسة المستمرة لهذه الزراعة تكتسب الزاوية هذا الحق لها . وكان رجال القبائل المجاورة للزاوية كثيرا ما يقومون بمساعدة شيخ الزاوية فى زراعة الاراضى المحيطة بها وإن كان الاعتماد الاساسى لشيخ الزاوية فى هذه الناحية على رجال زاويته . وتعتبر هذه الاملاك الخاصة بالزاوية وقفا عليها أو «حبسا» لها كما يقول اللوبيون . وكثيرا ما تكون هذه «الأحباس» مقدمة من فرد أو أفراد أو من قبيلة أو قبائل . ويقوم بادارة هذه الاوقاف ويسأل عنها شيخ الزاوية ويقدم عنها تقريرا اجماليا إلى السيد السنوسى الكبير كل نهاية عام هجرى ويرسل مايزيد عن حاجته وما يتطلبه منه أمر المحافظة على شئون الزاوية إلى المركز الرئيسى للزوايا السنوسية حيث كان يقيم السيد السنوسى الكبير سواء فى الزاوية البيضاء فى أول الأمر أو فى واحة الجغبوب بعد أن انتقل اليها وكان دخل هذه الزوايا يشمل الكثير من الاشياء المتنوعة مثل الشعير والجلود والصوف والحبوب والمسلى والعسل واللحوم والاغنام وقد يكون من بين دخلها النقود أو البضائع المستوردة من الخارج كالارز والشاى والسكر والاقمشة.

وخلاصة الامر أن الاهالى كانوا يقومون بخدمة هذه الزوايا عن طيب خاطر ويرون فى ذلك مساهمة منهم فى النهوض بالدعوة السنوسية واكتساب رضاء صاحبها . وهكذا نشأ نظام التعاون التام بينهم وبين المشرفين على الزوايا فى سبيل خدمتها . وكان تعاوناً من النوع التلقائى الذى يحفظ للأمة حياتها وبقاءها وما يمكن أن نلخصه فى هذه العبارة «الجميع فى خدمة الزاوية والزاوية للجميع».

أما عن الكيفية التى كان يتم بها تأسيس هذه الزوايا فغالباً ما تكون بالطريقة التالية وهى أن ترى احدى القبائل أو فخذ منها أن جيرانها قد أنشأوا زاوية لهم فتبعث برسول إلى السنوسى الكبير يطلب منه تزويد عشيرته بشيخ ليعلم أطفالهم ويقوم بمسائلهم الدينية ويفض خصوماتهم وغير ذلك من الأمور التى يرون الشريعة الاسلامية المرجع الأساسى فيها . وكان السنوسى الكبير

يرحب بمثل هذه الطلبات بل ويشجع أصحابها بشكرهم على سعيهم اليه ويرسل معهم شيخاً يختاره من بين رجاله المتعلمين المحيطين به فى الجغبوب والمتخرجين فى معهده وكثيراً ما كان هذا الشيخ المبعوث يصطحب معه واحداً أو أكثر من رفقائه المعروفين بالاخوان لمساعدته فى تأسيس الزاوية الجديدة التى كان يقوم ببنائها رجال القبيلة بأنفسهم فى أحسن بقعة من أرضهم يقع عليها الاختيار بعد الاسترشاد برأى هذا الشيخ الموفد وصحبه . ومع أن الكثير من هذه الزوايا كان بسيطاً فى بنائه إلا أن عملية البناء كثيراً ما كانت تستغرق عدة سنوات ثم يأخذون فى تزويدها بوسائل الراحة حسب مقدرة أصحابها . والكثير منها كان يتطور مع الزمن بحكم ما يطرأ عليها من نمو فى إيرادها والملاحظ أن هذه الزوايا كان الكثير منها يقوم على أنقاض الاطلال الاغريقية والرومانية أو على مقربة منها حتى يمكن الاستفادة من أحجارها فى عملية البناء . كما أن الكثير منها قد أقيم فى طريق تجارة القوافل للاستفادة منها كوسيلة للمواصلات تربطها بالعالم الخارجى . هذا إلى جانب ما كانت تتمتع به من توفير سبل حمايتها من أى خطر طارىء يهددها وقد وزعت جميعها لتشمل معظم المجموعات القبلية الهامة وفى مراكز الحياة القبلية كما يشاهد خاصة فيما بين القبائل الرحالة الجنوبية التى كانت تتوغل فى كل صيف إلى المراكز الداخليـة مثل « المخيلى » و « النيان » Al - Nayyan و « القطافية » و « النوفلية » وبعبارة أخرى حيث وجد الإغريق والرومان فيما مضى والاتراك فيما بعد من الضرورى بناء محطات وقرى لتثبيت سيادتهم بصد الهجمات التى تقوم بها القبائل المتوغلة فى الصحراء وبالمثل استعان الايطاليون فيما بعد بهذه المراكز لتثبيت حكمهم فى البلاد باتخاذها مراكز لحركتهم الاستعمارية التوطنية .

. . .   .

وعلى الرغم من قصر الفترة التى قضاها السنوسى الكبير فى لوبيا كقاعدة لدعوته الاصلاحية والتى تبلغ فى مجموعها حوالى العشر سنوات(١) استطاع أن يؤسس احدى وعشرين زاوية فى جميع أنحاء البلاد اللوبية وكثير من هذه الزوايا قد تم انشاؤه فى الواحات الواقعة على جانبى خط عرض ٢٩° شمالا ومن هذه الزوايا على سبيل الذكر ما يوجد فى سرت وزلة وسوكنة وهون وودان وكلها أنشئت حوالى سنة ١٨٥٥م ومن المرجح أيضاً أن زاوية واحة الفقهة بفزان قد أنشئت فى ذلك التاريخ كذلك أما زاوية مزدة الواقعة فى جنوبى مدينة طرابلس الغرب فكان انشاؤها سنة ١٨٤٥م .

وبدراسة توزيع الزوايا التى أنشئت فى عهد السنوسى الكبير نلاحظ أن معظمها قد اختصت به الواحات بسبب أهميتها كمراكز لتجارة القوافل واهتمام السنوسى الكبير باستغلال هذه التجارة وتنشيطها هذا إلى أن أهالى الواحات كانوا أكثر استجابة لدعوته الاصلاحية من القبائل البدوية لما كانوا عليه من حياة استقرارية فى هذه الواحات سهلت دوام الإتصال بهم وأعطتهم فرصة أكبر للمساهمة فى الحياة الدينية واصلاح شأنها . وإذا كان أيضاً من الملاحظ أن الزوايا التى أنشأها السنوسى الكبير تبدو قليلة العدد فى المدن الساحلية بالنسبة لما هى عليه فى الجهات الداخلية فذلك يرجع إلى السيادة العثمانية التى كانت أكثر ما تكون نفوذاً فى المدن الساحلية بعكس ما كانت عليه الحال بين القبائل البدوية وسكان الواحات حيث كانوا لا يعرفون للسلطة العثمانية أى وجود . كانت السيادة العثمانية على البلاد ممثلة فى حكام المدن تحول دون أن يتخذ منها السنوسى الكبير مراكز لدعوته الاصلاحية ولم يكن من المستطاع أن تقوم فى هذه المدن الساحلية حكومتان خصوصاً وأن

(١ E. E. Evans-Pritchard:- The Sanusi of Cyrenaica, P. 14.

السنوسى الكبير كان يخشى الاحتكاك بالسلطات العثمانية كما كانت هذه السلطات نفسها فى حذر من دعوته وعلى تتبع دائم لنشاطه وحركاته .

ولم تقم الزوايا السنوسية التى وضع السنوسى الكبير أساس قيامها بمهمة نشر العقائد الإسلامية الصحيحة ونشر الدعوة السنوسية بين أفراد القبائل فحسب بل كانت أشبه بالمراكز الثقافية "Centres of Culture" (١) التى نرى الدول الراقية الآن تعمل على إنشائها فى أنحاء البلاد إذ قامت بتعليم أولاد القبائل القراءة والكتابة ومبادىء الحساب إلى جانب تلقين القواعد الاسلامية الضرورية لكل مسلم بل كان بعضها يذهب إلى أكثر من هذا من حيث التخصص العلمى حتى تخرج فى بعض الزوايا من استطاع أن يتمم دراسته العالية فى معهد الجغبوب أو الجامع الأزهر بالقاهرة وليعود لبلاده ليكون مسئولا عن تثقيف أهله وعشيرته ويمكننا أن نقدر القيمة الثقافية لهذه الزوايا وأهميتها إذا عرفنا أنها كانت بمثابة المدارس التى تقوم الآن بفتحها الحكومات الحالية دون أن تكلف من يلتحق بها شيئاً من النفقات بل كثيراً ما كان يستعين بعضهم بما تقدمه له الزاوية من معونة فى مقابلة تكاليف الحياة . والواقع أن البلاد تعتبر مدينة لهذه الزوايا بالمحافظة على تراثها الدينى والثقافى خصوصاً إذا عرفنا أنه لم تكن هناك مدارس حكومية فى البلاد(٢) حتى سنة ١٨٩٥ إذ كانت الثقافة الشعبية كلها مستمدة من هذه المدارس القرآنية الملحقة بالزوايا . وكان لهذه الزوايا أيضاً أثر كبير غير مباشر فى ازدياد ثروة البلاد الاقتصادية بما لعبته من دور كبير فى تشجيع تجارة القوافل التى كانت تعتبر حتى بداية القرن العشرين مورداً هاماً فى حياة البلاد الاقتصادية إذ استطاعت هذه الزوايا بما لها من

١– E. E. Evans-Pritchard:– The Sanusi of Cyrenaica, P. 79

٢– D. C Cumming: The Modern History of Cyrenaica, P. 14

نفوذ روحى أن تبسط الأمن فى البلاد وتجعل الجميع يشعرون بالمسئولية تجاه هذه القوافل التجارية فيقدمون لها كل المساعدة والعون بعد أن كانت هدفاً للنهب والسلب . هذا فضلا عما كانت تجده القوافل التجارية من مساعدة وراحة إذا ما وصلت إلى إحدى هذه الزوايا . وهكذا بفضل مساهمة هذه الزوايا نشطت الحركة التجارية بالبلاد . ومع ما كانت عليه البلاد من فقر ملحوظ فى ظل إدارة تركية ضعيفة فإن الأهالى كانوا ينظرون إلى تلك الفترة التى تلت استرجاع الأتراك للبلاد بعد انهيار سلطة الأسرة القره مانية حتى الغزو الإيطالى على انها تمثل عصراً ذهبياً فى تاريخ حياة البلاد(١). ولاشك أن مرد هذا الشعور يرجع إلى ما ساهمت به هذه الزوايا فى نشر روح الاطمئنان بينهم بعد أن وجدوا لديها الحل للكثير من مشاكلهم الاجتماعية . أما بالنسبة لأثرها فى تحسين حالة الأمن العام بالبلاد فقد عملت الكثير ونجحت إلى حد كبير فى فض الخصومات والقضاء عليها بين القبائل وبذلك منعت الكثير من الاضطرابات القبلية التى كان لها أسوأ الأثر فى أمن البلاد وفى ظل هذا السلام والأمن انتابت البلاد فترة من الرخاء رغم ما تعرضت له من مجاعات شديدة وأوبئة فتاكة عامة ولكن كل هذا لم يعق تقدم البلاد اقتصادياً وازدياد ثروتها الحيوانية وازدهار تجارتها فى ظل هذا الأمن المكفول بالسلطة الروحية دون أن يكلف الجميع نفقات باهظة.

وكان لهذه الزوايا كذلك أثر ملحوظ فى تحسين انتاج البلاد إلى درجة كبيرة بتشجيعها للأهالى على حب العمل وتنمية الانتاج . ومع أن البلاد لم تكن قد عرفت وسائل الانتاج الزراعى الحديث إلا أنها بفضل جهود هذه الزوايا فى الناحية الزراعية بما كانت تستغله من أراض وتشجيع الغير على

١- D.C. Cumming: –The Modern History of Cyrenaica, P.14

المساهمة فى هذا الميدان تقدم الانتاج الزراعى للبلاد مما ساعد على رفع مستوى المعيشة بين أفراد الأهالى والانتقال بالكثير منهم من حياة الرعى إلى حياة الزراعة والاستقرار ولانجد هنا ما يفى ببيان هذا الأثر فى تقدم البلاد أحسن مما قاله الأستاذ كمنج Cumming فى كتابه بهذا الخصوص «ليس هناك شك فى أن السنوسية زادت من المقدرة الانتاجية لبرقة إلى درجة ملحوظة بتحسين الأمن العام وبتشجيع العرب على العمل الأكثر. إن البلاد لم تدخلها الوسائل الزراعية الحديثة وأنها ما زالت بعيدة عن الوصول إلى إمكانياتها الاقتصادية تماماً ولكن باعتبار شعبها الصغير وعجزها الطبيعى فإن مستوى المعيشة فى برقة أصبح عالياً نسبياً بالمقارنة مع البلاد العربية المشابهة»(١).

أما عن أثرها فى وضع أسس حياة الاستقرار بين القبائل البدوية التى تعودت الانتقال من مكان إلى مكان آخر فشىء قد لمسه الجميع إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعاً من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلا حتى إذا ما دعتها

١ـ D.C. Cumming:- The Modern History of Cyraenaica, P.26

"There is no doubt that Sanussism increased the productivity of Cyrenaica to a marked degree both by improving public security and by encouraging the Arabs to do more work. No New agricultural methods were introduced and the country was still far from reaching its full economic potentialities, but considering its small population and physical disabilities,the standard of living in Cyrenaica became relatively high in comparison with similar Arab Countries"

حاجة البحث عن الماء والمرعى أرسلت بعض أفرادها للقيـام بهذه المهمة دون الانتقـال بجميع أفراد القبيلة حتى لا يبتعدوا عن زاويتهم ولا يحـرموا من الاتصال بها .

وخلاصة القول أن موضوع هذه الزوايا التى وضع أساسها السيد السنوسى الـكبير وأثرها فى حيـاة البلاد جدير بأن يكون موضع بحث خاص لتشعب نواحيه مما يجعل من الصعب استيفائه حقه فى مثل هـذا الموضوع من الحلقة الدراسية العامة وأننا لا نجد لها تسمية حقيقية تنطبق عليها وعلى ما أدته للبلاد من خدمات ثقافية وزراعية واقتصادية وتعاونية وتحسين عام للأمن ونشر لوائه وإيواء للفقراء وأبنـاء السبيل إلا اصطلاح « المراكز الاجتماعيـة » "Social Centres" الذى أطلقه عليها الأستاذ ايفنز بريتشرد ولـكن مع الأخذ بهذا الاصطلاح بأوسع معانيه ، وهكذا أثبتت لنا هذه الزوايا بما وضعه لها السيد السنوسى الـكبير من سياسة وأهداف أن صاحبها كان مصلحاً اجتماعياً كبيراً بكل مافى هذه العبارة من معنى حقيقى .

... ...

عرفنـا باختصار فيما سبق الدور الهـام الذى لعبته الزوايا فى نجاح دعوة السنوسى الـكبير وإن كان جزء كبير من هذا النجاح أيضاً يعود إلى حسن اختياره للرجال الذين عاونوه فى مهمته هـذه والذين أخلصوا له بدورهم وكان معظم هـــؤلاء الرجال من بلاد المغـــرب ويكفى أن نذكر من بينهم السيد أحمـــد بن عبد القادر الريفى الذى ينتمى إلى بلاد الريف من بلاد المغـــرب والذى تعرف بالسيد الســـنوسى الـكبير فى مكة

---

١ — E.E. Evans-Pritchard:- The Sanusi of Cyrenaica, P. 79.

المكرمة وأخــــذ عليه الطريقة ولازمه فى نشاطه وحضر معـــــه إلى برقة. وكانت له مكانة خاصة فى نفس السيد السنوسى الكبير لما كان عليه من ورع وتقوى وعلم غـزير حتى أنه عهد إليه بالاشـتراك مع السيد عمران بن بركة الفيتورى بالوصاية على السيد المهدى والسيد محمد الشريف بعد وفاته وقد استمر السيد أحمد الريفى يسند الدعوة بجهوده فى عهد السيد المهدى ولازمه فى رحلته إلى «قرو» بالسودان وعند وفاة السيد المهدى هناك رجع بالتخت الذى كان يضم جثمانه إلى الكفرة . وهناك توفى السيد أحمد الريفى فى سنة ١٩١١ قبيل الغزو الإيطالى للبلاد بعد أن عمر ما يقرب من التسعين سنة وقد عهد إليه السيد السنوسى الكبير فى حياته بمهمة تدريس الفقـــه الإسلامى والنحو والفلك والتصوف فى معهد الجغبوب وكان شاعراً ولـكنه من النوع المقل ولذا لم يصلنا شىء من شعره . ومن المعروف أن السيد أحمد الريفى قـد تلقى علومه فى جامع القرويين بفـاس واتقن العـلوم حتى الفلك والاسطرلاب والهندسة والرياضيات(١) . ومنهم أيضاً السيد على عبد المولى من بلدة سفاقس بتونس والسيد عمران بن بركة الفيتورى من بلدة ظليتن بلوبيا الغربـية والسيد محمد مصطفى المدنى وأصله من بلدة تلمسان بالجزائر وكذلك السيد محمد البكرى من واحـة بسكرة بالجزائر . وكان هؤلاء السـادة يكونون مجلساً عُـرف باسم «مجلس الاخوان» اعتمد عليه السيد السنوسى الـكبير فى حركته الاصـلاحية بأخذ رأيه والتشاور مع أفراده بعد أحسن اختيـارهم فكانوا خير مخلصين له له ولدعوته الاصـلاحية . وهكذا كان لهذه البطانة المنتقاة فضـل كبير فى نجاح هـذه الدعوة وربما كانت النتائج قد أتت مخيبة للسنوسى الـكبير لو أساء الاختيار وفرط رجال هـذا المجلس فى الأمانة التى عهد لهم بها . وهكذا أيضاً

١ — لوثروب ستودارد الامريكى : حاضر العالم الاسلامى ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

كانت فراسة السيد السنوسى الكبير فى اختيار الرجال المعاونين له أكبر عامل فى نجاح دعوته فكثيراً ما كانت بطانة السوء عامل هدم للحركات الاصلاحية وأصحابها إذا كانت لا تراعى إلا مصلحتها الخاصة ولا يهمها من الأمر إلا ما يمس كيانها والتاريخ حافل بالكثير من الأمثلة والحوادث المؤيدة .

وبمرور الزمن اكتسبت هذه البطانة نظاماً خاصاً بها هو المعروف بنظام «الاخوان» وهم أولئك الذين التفوا حول السيد السنوسى الكبير وساعدوه فى مهمته وقد زاد عددهم بانضمام الكثير ممن تخرج فى هذه الزوايا على يد السنوسى الكبير وخلفائه . وإليهم يرجع الكثير من الفضل فى نجاح هذه الزوايا فى قيامها بمهمتها إذ كانوا هم المشرفين عليها المحركين لها وقد خدموها باخلاص وتفانوا فى سبيلها منذ أن أسس السيد السنوسى الكبير زاويته الأولى المعروفة بزاوية «البيضاء» بالجبل الأخضر فى سنة ١٨٤٣ . وبفضل جهودهم استطاع السيد السنوسى الكبير أن يطمئن على حركته أثناء غيابه عندما غادر البلاد فى رحلة إلى الأراضى المقدسة سنة ١٨٤٦ وبقائه هناك حتى سنة ١٨٥٣ عندما عاد إلى زاويته بالبيضاء وانتقل منها إلى الجغبوب . وكثيراً ما كان السيد السنوسى الكبير يغيب عن زاويته الرئيسيه . متفقداً بقية الزوايا وهو مطمئن لسير الأمور فى مركز دعوته على ما أحسن ما يكون. والحقيقة أن هؤلاء الاخوان كانوا حلقة الصلة بين السيد السنوسى الكبير وزوايا دعوته المنتشرة فى جميع أنحاء البلاد وخارجها كما كانت هذه الزوايا نفسها حلقة الصلة بين الدعوة السنوسية وأهل البلاد واستطاع السيد السنوسى الكبير أن يخلق منهم قادة للطريقة تولوا أمرها فيما بعد بفضل ما وجده فيهم من استعداد خاص وإيمان بمبادىء دعوته . وقد ترك الكثير منهم أهله وبلاده وفضل الالتحاق به وصحبته فى جميع تنقلاته حتى استقر به الأمر أخيراً فى واحة الجغبوب . ومما ساعد هؤلاء الأخوان فى نجاح مهمتهم أن معظمهم كان غريباً عن البلاد

ونظامها القبلي بما حماهم من الانغماس في الولاء للتقاليد المحلية الموروثة وبما أكسبهم مكانة خاصة في نفوس القبائل ضمنت لهم الاحترام والطاعة التامة وقد تدعم مكان الكثير منهم بالمصاهرة مع أفراد البيت السنوسي نفسه حتى إذا ما انتهت حياة السيد السنوسي الكبير كان هؤلاء الاخوان خير حفظة لتراثه الاصلاحي وكان فيهم خير وصى على ابنيه وبفضل حسن رعاية من كاف منهم بالوصاية عليهما استطاع السيد المهدى السنوسى أن يتابع سيرة والده وأن يسير بالدعوة السنوسية إلى الأمام .

وقد نجح هذا النظام «الأخوانى» الذى وضع أساسه السيد السنوسى الكبير فى مساعدة قادة الطريقة السنوسية فيما بعد وكانوا خير عون للبلاد فى المحن التى صادفتها وإليهم يرجع الفضل فى خلق مجتمع حساس بالبلاد وفى اثارة الحمية الوطنية والدينية بين صفوف الأهالى عندما أغارت ايطاليا على البلاد فيما بعد ونجحوا فى صبغ نضال الشعب ضد الايطاليين بالصبغة الدينية مما جعل العالم الاوربى يخشى نشوب حرب دينية صليبية باستثارة شعور العالم الاسلامى لما كانت ترتكبه إيطاليا من أعمال عنيفة بغية الوصول إلى إخضاع البلاد وكبت روح المقاومة المستعرة فيها والتى نجح هؤلاء الاخوان فى إلهابها ودوام استمرارها . ويكفى أن نذكر من خريجى هذا النظام الاخوانى الشهيد عمر المختار بطل المقاومة الشعبية فى الأعوام الأخيرة من كفاح لوبيا وكيف استطاع بما فى نفسه من ايمان عميق بوطنه ودينه أن يكون أقوى من قوى القوات الايطاليـــية ووسائلها . وما كان ليصل إلى هذه المرتبة العالية من الايمان لولا أثر تعاليم السيد السنوسى الكبير فى نفسه ونظامه الاخوانى فى صقله إلى أن لاقى ربه شهيداً مع بقية الشهداء فسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيا .

... ...

ولا يمكن استيفاد الكلام عن السيد السنوسى الكبير وحركته دون تناول علاقته بالخلافة العثمانيـة أو بتعبير أدق مدى التعاون بينه وبين السلطة العثمانية الحاكمة . وقد سبق الاشارة بصورة عابرة فى الصفحات السابقة الى ماكان بينه وبين السلطات العثمانية ممثلة فيما ساور رجال ادارتها من شك وتخوف من نشاطه وحذر وانتباه من جهته . والواقع أن العثمانيين كانوا ينظرون إليه وإلى دعوته بشىء كثير من الارتياب لمـا قد يترتب عليها من تطور فى سيادتهم على البلاد خصوصاً وأن السيد السنوسى الكبير فى دعوته الاصلاحية قد جاء عقب دعوة المصلح محمد بن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربيـة وما اقترنت به من عنف كاد يعرض السيادة العثمانية على الأراضى المقدسة للزوال لولا استنجاد الباب العالى بمحمد على والى مصر الذى أعاد للعثمانيين سيادتهم من جديد على شبه الجزيرة العربية وتحمس محمد على لحرب الوهابيين رغبة منه فى توطيد مركزه لدى رجال الباب العالى . ومما زاد فى خوف العثمانيين من السيد السنوسى الكبير ودعوته اعتقادهم فى اتصاله بالدعوة الوهابية وقد أمضى فى الأراضى المقدسة حوالى العشرين عاما وإن كان السيد السنوسى الكبير وخلفاؤه من بعده ينفون أى صلة لهم بالحركة الوهابية وإن تشابهت دعوته الاصلاحية بدعوة محمد بن عبد الوهاب فى بعض مسائل اقتضاها ما جاء بخصوصها فى القرأن الكريم والسنة المحمدية الشريفة . كل هذه القرائن جعلتهم ينظرون إلى السيد السنوسى الكبير فى دعوته نظرة التخوف والارتياب وهم الذين لم يمض وقت طويل على استردادهم للبلاد اللوبية وضمها من جديد للحظيرة العثمانية بعد زوال حكم الاسرة القرمانلية . وكان على العثمانيين أن يعملوا على توطيد هذه السيادة وتدعيم نفوذهم فى الشمال الافريقى فإن فرنسا قد جاورتهم بعد أن احتلت الجزائر وأخذت تتجه بانظارها إلى املاك الدولة العلية المجاورة . وخلاصة القول أن السيد السنوسى الكبير قد ظهر بدعوته فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية تعانى الكثير من الحركات الاستقلالية

والانفصالية من شعوبها الخاضعة لها وقد سلك قادة هذه الحركات الاستقلالية طرقاً مختلفة إلا أنها جميعا قد اصطبغت بالصبغة الاصلاحية حتى تكسب عطف الغير وتدعم نفسها . لهذا لا نعجب إذا رأينا العثمانيين قد ساورتهم الوساوس من ناحية السيد السنوسى الكبير ونظروا إليه هذه النظرة الارتيابية وقد استطاع أن يخلق من قبائل لوبيا لا سيما فى لوبيا الشرقية مجتمعا آخر يختلف عما كانت عليه بفضل نشاطه الاصلاحى حتى أصبح هذا المجتمع الجديد فى ظل السيادة العثمانية وبفضل دعوة السيد السنوسى الكبير اشبه بامبراطورية داخل امبراطورية اخرى An Empire within an Empire[1]. والحقيقة التى يجب أن يسلم بها الجميع أن حركة السيد السنوسى الكبير الاصلاحية كانت تحمل فى طياتها بذوراً طيبة تصلح أن تكون أساساً لايجاد كيان سياسى للبلاد على قواعد اسلاميـــة خالصة كما تصلح أن تكون نواة متماسكة لامبراطورية اسلامية كبيرة . فشأن كل دعوة دينية أن تنتهى بدعوة سياسية اصلاحية اذ الاسلام لا يعرف حداً فاصلا بين سلطتيه الدينية والزمنية وما كان سيدنا محمد صلوات الله عليه فى دعوته إلا رسولا ورئيساً للحكومة الاسلامية الأولى.

وهذا ايضاً ما دعا بقية الدول الأوروبية الأخرى إلى أن تتوجس خيفة من حركة السيد السنوسى الكبير وخليفته وأن تحسب لها ألف حساب وأن يهتم مفكروها بدراسة اسسها وتحليلها واخراج المؤلفات عنها ولنا فى اسم بعضها[2] فضلا عما تحتويه من آراء وتحليلات ما يبين لنا مدى ما كان يسيطر على العقل الأوربى من تقدير لخطرها . وقد اخبرنى الشيخ بشير السعداوى أنه قرأ فى شبابه كتابا باللغة التركية بعنوان « اسيلاى جهان »[3] وهو ترجمة تركية منقولة عن الأصل الفرنسى وقد شرح فيه مؤلفه الفرنسى الحركة السنوسية وأهدافها

---

(١) P. C. Cumming : The Modern History of Cyrenaica, P. 20

(٢) راجع قائمة المصادر الافرنجية

(٣) العالم الاسلامى .

راهياً من وراء ذلك إلى بيان خطورة هذه الحركة على شعوب أوربا محذراً العالم منها متنبأ لها بالنجاح فى ضم شمل العالم الاسلامى فى شمالى افريقية وآسيا ثم توجيه هذه القوة الاسلامية الفتية المتحدة إلى أوربا لاسترجاع اسبانيا والزحف منها إلى بقية القارة الأوربية وقد كتبه مؤلفه بطريقة شيقة تدفع الانسان إلى الانكباب المتواصل على قراءته .

وقد فطن السيد السنوسى الكبير إلى ما كان يضمره له العثمانيون من شعور خاص فعمل على عدم الاحتكاك بسلطانهم الممثل فى رجال ادارتهم حتى أنه اضطر إلى التوغل فى الصحراء ليكون بعيداً عن متناول شرهم إذا ما فكروا فى النيل منه (إذا أخذنا بالرأى القائل فى علة انتقاله إلى الجغبوب) ولم يبد من السيد السنوسى الكبير من الأعمال والشعور ما يجعله عرضة للمؤاخذة بل عمل على المحافظة على إظهار الولاء للخلافة العثمانيـــة وسلطانها فى كل المناسبات والظروف . وإذا كان بعض المؤرخين (١) يرون أن السنوسى الكبير كان يضمر شعوراً خاصاً نحو الأتراك لاغتصابهم للخلافة الاســـلامية حتى أنها اصبحت بهذا الاغتصاب غير قرشية ولا عربية فإن هذا القول مبالغ فيـــه ومحاولة غير ناجحة لتفسير شىء غير موجود فما اغتصب الترك الخلافة بل حملوا عبئها ورفعوا لواءها ولم تنبت فكرة الاغتصاب إلا بعد ضعف العثمانيين . وليس بغريب أن تقترن دعوة السيد السنوسى الكبير بمثل هذه الأقوال إذ كثيراً ما كان موضوع الخلافة الاسلامية خصوصاً أثناء الحرب العالمية الأولى محل بحث ونقاش عند ما وجدت دول الحلفاء من المصلحة كسب شعور العالم الاسلامى إلى جانبها على أثر انضمام العثمانيين إلى الألمان والقول باغتصاب سلاطين آل عثمان للخلافة وعدم تنازل المتوكل آخر خلفاء العباسيين بمصر لهم عنها عندما غزا السلطان سليم الأول مصر واستولى عليها وأخذ معه المتوكل إلى

(١) E. E. Evans Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica, P. 92

القسطنطينية وذلك حتى تكون الشعوب الاسلامية فى حل من الوقوف إلى جانب الأتراك فى نضالهم ضد الحلفاء . والواقع أن موضوع تنازل المتوكل الخليفة العباسى بالقاهرة عن الخلافة الاسلامية للسلطان سليم الأول لم ينتـــه البحث فيـــه بالنفى أو الإثبات وأنه ما زال إلى يومنا هذا موضع مناقشة المؤرخين والبحاث .

وقد كان السيد السنوسى الكبير أكبر من أن يتأثر بمثل هذه الأقوال التى أخذت تنتشر فى القرن التاسع عشر خصوصاً وأن بنى عثمان قـــد احتفظوا بالخلافة الاسلامية فى أيديهم مدة طويلة دون أن يفكر أحد فى منازعتهم إياها وقد كانت تركيا هى القوة الاسلامية الوحيدة المستقلة التى لها من القدرة رغم ما كانت تعانيه من ضعف على حماية كافة مصالح المسلمين فلم يكن من الحكمة ولا من المصلحة الاسلامية العامة التفكير فى الخروج على السيادة العثمانية وخلق مشكلة جديدة للعثمانيين الذين كانوا يعانون الكثير من أمثالها بسبب طموح بعض المغامرين ومساعدة الدول الأوربية لهم رغبة فى تحقيق بعض المآرب الاستعمارية .

وكان الزمن كفيلا بتحسين العلاقات بين العثمانيين والسيد السنوسى الكبير خصوصاً بعد أن اطمأنوا إلى حركته ولم يتمسكوا عليه بما يتعارض وسلطانهم بل وجدوا فيها كل معونة لهم . وإذا كانت البلاد قد تمتعت بشىء من الأمن وما يتبعه من رخاء نسبى وباستقرار فى الحكم فالفضل فى الكثير من هذا يرجع إلى دعوة السيد السنوسى الكبير وزواياه التى ساهمت إلى حد كبير فى فض الخصومات بين القبائل المتنازعة قبل أن يستفحل خطرها فتهدد الأمن العام باضطرابات دائمة ولهذا تميزت فترة حكمهم الثانية عما كانت عليه فى العهد العثمانى الأول مع أن العثمانيين لم يعملوا الكثير من أجل تغيـــير نظمهم الادارية وتحسينها إلا فى الأعوام الأخيرة السابقة للإحتلال الايطالى للبلاد . ويبدو أن

الاتراك وقد رأوا تغلغل نفوذ الدعوة السنوسية فى البلاد بفضل نشاطها ووسائلها السلمية أن من الخير العمل على كسب رئيسها وأنصارها إلى جانبهم ولهذا نرى السلطان عبد المجيد الأول يمنح «السنوسية» فى سنة ١٨٥٦ عهداً "Charter" يعفى جميع أملاكها من دفع الضرائب ويسمح لرئيسها بجمع الاعشار الدينية من أتباعها وقد صدر فرمان هذه الارادة السنية من اسطنبول وحمله إلى برقة السيد عبد الرحيم المغبوب الذى تمكن من مقابلة السلطان عبد المجيد الاول رغم ما وجده من صعوبات فى سبيل ذلك كما كان يحدث عادة لأولئك الذين يقصدون العاصمة العثمانية بغية الحصول على مثل هذه المقابلة وقد تأكد هذا الاعفاء مرة أخرى من جانب العثمانيين فى عهد السلطان عبد العزيز شقيق السلطان السابق عند ما أحضر السيد أبو القاسم العيساوى فرماناً آخر من اسطنبول إلى والى طرابلس فيه ما يؤيد استمرار هذا الامتياز ويضيف اليه حرمة الزوايا السنوسية فى حدود الاراضى الخاصة بها .

وعلى كل فإن الأتراك وإن خامرهم الشك من جهة السيد السنوسى الكبير ودعوته إلا أنهم كانوا على بينة من أنه وأتباعه سيقفون إلى جانبهم فى أى نضال يخوضونه ضد القوى المسيحية فى أوربا ولن يكونوا عليهم . وهذا ما حققته الأيام فى الأعوام التالية عندما غزت إيطاليا البلاد واشتبك معها العثمانيون فى حرب كان معظم اعتمادهم فيها على أهل البلاد وما ذلك إلا لتغلغل الأسس التى وضعها السنوسى الكبير فى نفوس خلفائه وأتباعه .

... ...

وفى اليوم السابع من شهر سبتمبر سنة ١٨٥٩ انتهت حياة السيد محمد بن على السنوسى الحافلة بالنشاط والإصلاح ودفن فى الجغبوب ومازال قبره إلى يومنا هذا مزاراً للتبرك واستلهام الصبر فى الشدائد واستذكار تاريخ حياته وهدف دعوته . وقد كان طويل الجسم صبوح الوجه فصيح اللسان قوى

الحجة فى الحديث قوى الإيمان بدعوته صبوراً على تحمل المتاعب فى سبيل الخير . قوى الشخصية حتى إنه اكتسب مكانة خاصة فى نفوس أتباعه ومعاصريه فالتحق به الكثير من بلاد المغرب وأهلها وتركوا أوطانهم وأهلهم وتبعوه فى رحلاته وتنقلاته وأجابوا مطلبه عندما بعث بهم كمبشرين لدعوته إلى البلاد التى اختارها لهم ويكفى أن نعرف أن بدو بلاد العرب ولوبيا الذين عرفوا بشدة تمسكهم بالتقاليد وماتوارثوه عن آبائهم من عادات فضلا عما كانوا يعيشون فيه من جهل عام قد قبلوا دعوته وأقبلوا عليها متدافعين دون إكراه لهم عليها واتخذوا منه مرشداً عاماً لهم فى مسائلهم الدينية والزمنية . ولم يكن السيد السنوسى الكبير صاحب دعوة إصلاحية فحسب بل كان رجلا فقيهاً محباً للعلم وأهله . وكان كذلك مؤلفاً ترك لنا الكثير من المؤلفات القيمة رغم كثرة أسفاره وتنقلاته وضيق وقته عن القيام بمثل هذا النوع من النشاط العلمى كل ذلك يتبين لنا تماماً فى المكتبة العلمية التى وضع أساسها وزودها بالكتب اللازمة وألحقها بمعهده بالجغبوب وفى المؤلفات العلمية التى تركها لنا والتى ومنها رسالة باسم شفاء الصدر بأرى المسائل العشر وهى فى حكم رفع اليدين فى الصلاة وفى القبض والاستعاذة وفى البسملة للفاتحة والسورة وفى التأمين وغير ذلك وكتاب المسائل العشر المسمى بغية المقاصد فى خلاصة المراصد ويبدو من مقدمة الكتاب أن السيد السنوسى الكبير قد ألفه وهو فى المدينة المنورة بالأراضى المقدسة وهو يتناول مسائل فقهية قام بتوضيحها فى هذه الرسالة على أثر توجيه الكثير من الأسئلة إليه بخصوصها من أهل اليمن وبلاد المغرب وبهامش هذا الكتاب رسالة باسم السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين ورسالة رابعة باسم إيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن وأخرى باسم المسلسلات العشر . وكل هذه المؤلفات مطبوعة وفى متناول طالبى البحث فى الفقه الإسلامى . ولم يكن نشاطه فى التأليف قاصراً على

المسائل الفقهية وما يتصل منها بالشريعة الاسلامية بل ساهم فى علم التاريخ فترك لنا كتاب «الدرر السنية فى أخبار السلالة الأدريسية» وهو مصدر له قيمته بين كتب التاريخ التى تناولت أحداث الشمال الأفريقى منذ الفتح الإسلامى ويعتبر مصدراً أساسياً لكل من يطلب استقصاء أخبار دولة الأدارسة فى بلاد المغرب وما تفرع منها من دويلات أخرى فضلا عن تعرضه فى أول الكتاب لفائدة علم التاريخ والانساب(١)

توفى السيد محمد بن على السنوسى وقد ترك من بعده ابنين هما السيد محمد المهدى والسيد محمد الشريف ولصغر سنهما ترك الوصاية عليهما للسيد أحمد عبد القادر الريفى بالاشتراك مع السيد عمران بن بركة الفيتورى اللذين أحسنا القيام بهذه المهمة حتى استطاع خليفته السيد محمد المهدى الاشراف بنفسه على ما خلفه له أبوه من تركة إصلاحية مثقلة بالمشروعات العملية فكان خير خلف لخير سلف ولنا فى حفيد السيد السنوسى الكبير وخليفته فى زعامة الحركة السنوسية السيد محمد أدريس السنوسى ملك لوبيا المعظم ما يجعلنا نؤمل كل خير للبلاد وأهلها فى عهدها الجديد .

هذا عرض سريع لحياة السيد محمد بن على السنوسى الكبير ودعوته وأثرها فى البلاد رحم الله المصلح الكبير وأسكنه فسيح جناته بقدر ما أدى للبلاد من خدمات موفقة وبقدر ما بذل من جهود إصلاحية فى سبيلها كوحدة من مجموع العالم الإسلامى وبقدر ما كرس حياته من أجل نهضة شعوبه والعودة به إلى أيام السؤدد والمجد .

---

١ — قام بطبع جميع هذه المؤلفات السابقة الذكر على نفقته الخاصة حفيد المؤلف السيد محمد ادريس المهدى السنوسى ملك لوبيا المعظم .

المصـــادر

ا ـ المصـادر العربية :

١ـ الحشائشى (محمد عثمان الحشائشى) : ـ جلاء الكرب عن طرابلس الغرب أو « النفحات المسكية فى أخبار الدولة الطرابلسية » نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة بمكتبة بلدية الاسكندرية .

٢ـ النائب (أحمد الأنصارى) : ـ المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب .

٣ـ شكرى (دكتور محمد فؤاد شكرى) :ـ السنوسية دين ودولة .

٤ ـ سير ت . و . أرنولد (Sir T. W. Arnold) : ـ الدعوة إلى الاسلام (ترجمة دكتور حسن ابراهيم حسن ، عبـــد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى) . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة سنة ١٩٤٧ .

٥ ـ لوثروب ستودارد الأمريكى (Lothrop Stoddard) : حاضر العالم الاسلامى (ترجمة عجاج نويهض وتعليقات للأمير شكيب أرسلان) .

٦ـ السيد أحمد الشريف السنوسى : الأنوار القدسية فى مقـدمة الطريقة السنوسية (استانبول عام ١٣٣٩ - ١٣٤٢ هـ) .

٧ـ السيد محمد بن السيد على السنوسى : ـ الدرر السنية فى أخبار السلالة الأدريسية (القاهرة ١٣٤٩) .

٨ـ أحمد حسنين :ـ فى صحراء ليبيا .

٩ ـ سالم بن عامر : عـدة مقالات عن السنوسى الكبير بمجلة عمر المختار التى كانت تصدر ببنغازى (١٩٤٣ - ١٩٤٤) .

ب — المصادر الانجليزية : —

1 - E. E. Evans - Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica, Oxford 1949.

2 - E. E. Evans -Pritchard The Place of the Sanusiya Order in the History of Islam, «Government Press-Tripoli».

3 Major E. E. Evans - Pritchard : Biographical Notes on members of the Sanusi Family.

4 - Major E.E. Evans-Pritchard : The Non-Sanusia Order in Cyrenaica.

5 - DR. C. C. Adams : The Sanusiya Order, «Handbook on Cyrenaica, Part X, Cairo, 1944-1947».

6 - D. C. Cummiug O.B.E. : The Modern History of Cyrenaica, «Handbook on Cyrenaica, Part V, Cairo, 1944-1947».

7 - K. D. Bell : Kufra, «Handbook on Cyrenaica, Part IX, Cairo, 1944-1947».

8 - Rosita Forbes : The Secret of the Shara, Cassell & Co., London».

9 - Hastings Encyclopaedia of Religion and Ethics, art «Sanusiya».

10 - The Encyclopaedia of Islam.

11 - The Encyclopaedia Britannica.

12 - T R. Threlfall, Sanussi and his Threatened Holy War,«The Ninteenth Cent. & After, March 1900».

13 - T. R. Wilson : The Moslem Menace, «The Ninteenth Cent. & After, Sep. 1907».

جـ — المصادر الفرنسية :

1 - L. Rinn : Marabouts et Khouans, Alger, 1884.

2 - O. Depont et X. Coppolani : Les Confréries religieuses Musulmanes, Alger, 1897.

3 - Duveyrier, H., : La Confrérie Musulmane de Sidi Mohammed ben 'Ali es Senoûsî et son Domaine géogrophique en l'Année 1300 de l'Hégire — 1883 de notre ère, Paris, 1884.

4 - Lammens : L'Islam, Beyrouth, 2nd ed. 1941.

5 - Le Chatelier, A., : Les Confréries Musulmanes du Hedjaz Paris, 1887.

6 - G. Bonet Maury: L'Islamisme et le Christianisme et Afrique.

« نحن فى طريق الوحدة »

ادريس الأول

الأسس الجغرافية والتاريخية للوحدة اللوبية *

لوبيا الدولة العربية الثامنة — الاخصائيون يمهدون لرجال السياسة لتقسيم لوبيا — تضارب آراء الكتاب في الحدود بين اقاليم البلاد — رأى الاستاذ ايفنز بريتشرد فى الحدود بين برقة وطرابلس — رأى الاستاذ كندى شو فى الحدود بين برقة وطرابلس — رأى الاستاذ فشر — رأى الاستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية — الجغرافيون والرحالة الاقدمون يختلفون فى تحديد اقاليم البلاد — مناقشة حجج التقسيم — الاساس الجنسى لاقاليم البلاد واحد — خضوع برقة للاغريق وطرابلس للفينيقيين لا يصلح أن يكون أساسا تاريخيا للفصل بينهما — المحاولات التى بذلت للتوحيد بين برقة وطرابلس فى العهد الاغريقى الفينيقى — الفتح العربى يوحد بين أقاليم البلاد — الهجرات العائلية من طرابلس إلى برقة تدعم هذه الوحدة — علاقات طرابلس بفزان منذ العهد الفينيقى توحد بينهما — الظروف الاقتصادية تحتم وحدة البلاد — قلة السكان تستلزم الوحدة — بساطة الفروق الجغرافية بين اقسام البلاد الثلاثة بمقارنتها بما هى عليه فى (ايطاليا . فرنسا . بريطانيا) المستقبل كفيل بتحقيق الوحدة .

ظهرت لوبيا الدولة العربية الثامنة كدولة مستقلة ذات سيادة للعالم فى عام سنة ١٩٥١ بعد أن أعلن ذلك أدريس الأول ملك لوبيا المعظم فى احتفال رسمى مشهود يوم الاثنين الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ . وإذا كانت القضية

---

*) هذا الموضوع كان فى اساسه محاضرة القيت فى قاعة المحاضرات بادارة المعارف بطرابلس الغرب فى ربيع سنة ١٩٥٠ بمناسبة زيارة القافلة الثقافية التونسية للشطر الغربى من البلاد . وقد نشرت هذه المحاضرة مع شيء من التحوير الخفيف فى مجلة الرسالة الغراء (عدد ٨٨٤ وعدد ٨٨٦) وقد رأى المؤلف أن يضمن كتابه هذا الموضوع الهام بعد أن أدخل عليه شيئا كبيرا من التعديل ولزيادة اقتضتها روح البحث العلمى .

اللوبية قد احتلت فى الأعوام الأخيرة مكانة دولية هامة استرعت انظار العالم فإن عدداً كبيراً من الاخصائيين قد انصرف إلى دراسة شئونها المختلفة كل فيما اختص فيه وخرجت الينا المطابع الافرنجيه بابحـــاث شتى بخصوصها كان أهمها بالنسبة لموضوعنا هذا ما يتعلق بتاريخها وجغرافيتها .

على أن أهم ما يلفت النظر فى هذه المؤلفات العلمية الحديثة اتجاهها اتجاها خاصاً فى دراسة البلاد على أساس اقسامها الثلاثة وبحث كل قسم منهـا على أنه كل مستقل قائم بذاته وله خصائصه التى ينفرد بها وليس التخصص أو الخوف من تضخم الـكتب هو الذى دفع معظمهم إلى هـذا المنهـج فى البحث ولـكن هى الروح الانفصالية والتمهيد لذلك عن طريق العلم حتى تنتشر الفـكرة وتعم فتـكون نواة صالحـة لتسهيل تنفيذ الأغراض السياسية . وهكـذا وجــــدنا الحقائق فى بعض الـكتب تلوى لياً وتطمس طمساً فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية . وهكـذا وجدنا رجال السياسة قد اتخذوا من هذه الحقـائق التى ليست إلا وهما جسمه البحاث وهولوا فيه عماداً لتدعيم نظريتهم الرامية لمحاولة تقسيم البلاد والوقوف دون وحـــدتها التامة حتى يفوز كل منهم بنصيبه من هذه الفريسة التى وضحت أهميتها للعيان بعد الحرب العالمية الثانية .

والغريب أن بعض هؤلاء الـكـتاب قد تضاربت آراؤهم فى الحـدود التى يجب أن تـكون عليهـا أقسام البلاد لا سيما فيما بين برقة وطرابلس حتى كادت القسمة تتهيأ أسبابها بعد أن عملوا لهـا فقامت بين بعضهم معارك علميـة حادة كان أهمها ما نشرته المجلة الجغرافية للجمعية الجغرافية بلندن (١) بين الاستـاذ

(١) The Royal Geographical Society :- The Geographical Journal, London, Sept., Oct. (1945), May - June (1946).

الدكتور ايفنز بريتشرد Evans pritchard الاستاذ حالياً بجامعة اكسفورد والاستاذ كندى شو Kennedy SHaw وقدكان الأول يشغل وظيفة سياسية بالادارة البريطانيـــة الثالثة لبرقة بعد طرد الايطاليين منها وقد أمضى هناك اكثر من سنتين صرف معظمهما بين البدو خصوصاً أولئك الرحل منهم كما جاء ذكر ذلك فى مقدمة كتابه . « The Sanusi of Cyrenaica » أما الثانى فقد شغل هو الآخر وظيفة سياسية فى الادارة البريطانية لطرابلس الغرب فى الشئون العربية« Arab Affairs » لمدة عام واحد .

ومما يلفت النظر فى هذه المناقشة العلمية بين الاستاذين السابقى الذكر أن الاستاذ ايفنز بريتشرد يقرر فى مقـــاله المنشور بهذه المجلة (١) أن برقة وطرابلس قدكانتا تحت سيادة أجنبية واحدة ممثلة فى تركيا فى أول الأمر ثم ايطاليا فيما بعد ويعترف بأن الحدود بينهما طيلة هذه المدة كانت مجرد حدود إدارية فقط اقتضتهـــا ظروف الاشراف الادارى وتسهيل مهمة القيام به . ويذهب إلى أبعد من هذا عندما يذكر الحقيقة التاريخية وهى أنه لم يكن هنـاك بالمرة حد ثابت قوى بين برقة وطرابلس (٢) . «There has never been a hard - fast frontier between Cyrenica and Tripolitania» وهو فى كلامه هذا لا يعنى فترة معينة بالذات بل يجعل قوله رأياً قاطعاً شاملا. وفى الوقت الذى يقرر فيه الأستاذ ايفنز بريتشرد هـــذه الآراء ويسجلها فى المجلة الجغرافية العلمية ذات المكانة المعلومة نراه يعود مرة أخرى وقد أخرج كتابه « The Sanusi of Cyrenaica » فى سنة ١٩٤٩ ينقض رأيه هـــذا رأسا على عقب فيرى فى انحدار الصحراء إلى البحر عند خليج سرت خير فاصل لبرقة عن طرابلس ويحاول الاستناد على التاريخ لتأييد رأيه الانفصالى هـذا

---

(١) The Geographical Journal, May-June (1946).

(٢) المصدر السابق ص ١٦٩

ويذكر أن تاريخ هذين الاقليمين فيه ما يثبت أن كلا منهما قد سار فى طريقه الخاص به فبينما ارتبطت برقة بمصر الاغريقية ارتبطت طرابلس بقرطاجة الفينيقية . وفى الوقت الذى ذهبت فيه برقة مع بيزنطة كانت طرابلس من نصيب روما . ثم يحاول تدعيم رأيه فى خليج سرت كمنطقة حدود بين الاقليمين باقتباس ما قاله الاستاذ ديبوا Depois فى هذا الخصوص حيث يقول « إن خليج سرت الكبير دون أى نزاع أحد الحدود المعينة من الناحية الطبيعية والجنسية التى لا توجد فى أى مكان آخر من العالم » (١) .

وفى الوقت الذى كان فيه الاستاذ ايفنز بريتشرد بما له من سلطة إدارية فى برقة يحاول استقصاء مدى تغلغل النفوذ السنوسى فى طرابلس ويقوم بالجولات لهذا الغرض كما جاء ذكر ذلك فى مقاله السابق الذكر ليقرر على أساسه الحدود الغربية لبرقة نراه يدعو إلى فصل برقة عن طرابلس على أن تكون الحدود الغربية للاقليم الأول متمشية مع الخط الممتد من بويرات الحسون على البحر الأبيض إلى واحة سوكنة فى الداخل بما فى ذلك منطقة سرت كلها . وهو يرى فى حالة تعسر قيام هذه الحدود بهذا الشكل بين برقة وطرابلس فلا أقل من قيامها لاتمام هذا الفصل متمشية مع الخط الممتد من وادى هراوة Wadi Harawa إلى واحة زلة تاركا بقية طرابلس لتقرر مصيرها الأيام ومنظمة الأمم المتحدة مع أن النفوذ السنوسى لا يقف عند هذه الحدود التى أريد رسمها ولكنه يتعدى ذلك ويشمل طرابلس كلها ولنا فيما كتبه الاستاذ ايفنز بريتشرد نفسه فى كتاب The Sanusi of Cyrenaica بخصوص انتشار الطريقة السنوسية ما يؤيد قولنا هذا وما يتعارض مع ما قال به فى مقاله السابق

---

١ — E. E. Evans-Pritchard:— The Sanusi of Cyrenaica, P. 47

(٢) راجع المصدر السابق الذكر ص ١٥ و ٢٥ و ٥٢ .

الذكر . فهو يعترف بانتشار الطريقة السنوسية فى عهد السنوسى الكبير فى كل الشمال الافريقى حتى أنها شملت القبائل المتنقلة فى طرابلس كما استطاعت عن طريق تجارة القوافل الوصول إلى فزان ثم يعود ويؤكد هذا مرة أخرى. عندما يذكر أن الطريقة السنوسية كانت هى السائدة فى الشمال الافريقى من وادى النيل إلى حدود تونس ومن البحر الابيض إلى الصحراء الكبرى ويقرن كلامه هذا بخريطة يبين فيها توزيع الزوايا السنوسية فى الشمال الافريقى وبلاد المغرب ومنها يتضح للقارىء أن عددها فى طرابلس لا يقل عما يوجد فى غيرها إن لم يزد عليه ولم يكتف بهذا بل تدفعه حقيقة البحث إلى نشر قائمة بأسماء الزوايا السنوسية عامة ومنها يتبين لنا كذلك أنه كان منها بطرابلس ثمانية عشر زاوية وفى فزان خمسة عشر زاوية موزعة كلها على المدن والمراكز المختلفة . ولا نكتفى بهذا أيضا بل فى خريطته لطرابلس (١) التى تبين القبائل السنوسية الرئيسية بها ما يؤكد لنا قوة النفوذ السنوسى فى طرابلس ويهدم كل محاولة للتقليل من هذا النفوذ لتحقيق بعض الأغراض الخاصة . وبالنظر إلى هذه الخريطة نجد القبائل الممثلة لسكان طرابلس تمثيلا صحيحا قد احتلت مكانتها فى هذه الخريطة ولا نجد بأسا من ايراد ذكر اسمائها هنا نقلا عن هذه الخريطة فهى : المغاربة . اولاد سليمان . الجميعات . القدادفة . ورفلة . العامرة . المشاشة . اولاد بوسيف . الزنتان . الرجبان . الحرابة . المقارحة . رياح الحطمان . الحسون .

كل هذه الحقائق المسلم بها من الجميع تعارض ما يدعيه البعض وفى مقدمتهم الأستاذ ايفنز بريتشرد والأستاذ كندى شو اللذين أتعبا نفسيهما فى تعيين الحدود التى يجب أن تفرض على البلاد بالطرق السياسية المعقدة بين الإقليمين

---

(١) المصدر السابق الذكر ص ٥٢

ولا شك أن فى نشوب هذا الخلاف بينهما ونقله إلى القراء وإعلانه للجميع بعد أن كان مجرد آراء شخصية أكبر دليل على إنعدام مثل هذه الحدود وإلا لما اختلفا وتباينت وجهة النظر بينهما لأن هذا الخلاف قد نشأ بدون شك من محاولة خلق شيء غير طبيعى لا وجود له وكل منهما أراد أن تكون صورة هذا الكائن الصناعى حسب ما يشاء ويود لا حسب ما تشاء الطبيعة والواقع.

وأخيراً يحق لنا أن نتساءل عما إذا كان لهذه الآراء التى كشف عنها كل من الأستاذ ايفنز بريتشرد والأستاذ كندى شو فيما كتباه ونشراه من أثر فى توجيه سياسة الإدارتين البريطانيتين لبرقة وطرابلس بخصوص هذا الموضوع بحكم ماكان يشغله كل منهما من منصب فى هاتين الإدارتين فى ذلك الوقت. لا شك أن سير الحوادث المتتابعة فيما بعد تدفع الإنسان إلى التسليم بأثر هذه الآراء ومفعولها فى سياسة الإدارتين المسئولتين عن البلاد قبل إعلان استقلالها .

نعود مرة ثانية لأهم النقط الأخرى التى استند إليها بعض الكتاب ومن بينهم الأستاذ ايفنز بريتشرد للفصل بين برقة وطرابلس وأهمها القول بالاختلاف التاريخى للاقليمين أو على حد تعبيرهم بالضبط أن طرابلس قد خضعت للفينيقيين فقرطاجة فى الوقت الذى كان فيه الإغريق يحكمون برقة وأن الأولى كانت تلحق بأفريقية فى الوقت الذى كانت فيه الثانية تكون ولاية رومانية أحياناً مع مصر وأحياناً مع جزيرة كريت وأن الغلبة للعنصر العربى فى برقة بعكس الحال فى طرابلس حيث نجد العنصر البربرى يسود سكان البلاد وأن عرب برقة معظمهم من قبائل بنى سليم وعرب طرابلس أغلبهم من بنى هلال وأن سكان الأجزاء الشمالية من لوبيا يرجعون فى أصولهم إلى سلالة البحر الأبيض أما سكان فزان فيرجعون إلى السلالة الإثيوبية .

وهكذا من الأدلة التاريخية المبعثرة التى يمكن أن يأخذ بها الإنسان إذا قرأها قراءة سريعة دون فحص أو تحليل أو دون إلمام بحالة البلاد من الوجهة التاريخية والجغرافية بصفة عامة .

وعلى العموم أن حجج السياسة الانفصالية وإن سلمنا بصحتها لا تصلح أن تكون تأييداً للفصل بين جزئى الأمة لأنها تمثل الحالات الشاذة التى مرت بها البلاد والتى لا يخلو منها تاريخ بلد ما . وماذا يكون الأمر إذا ثبت عكسها وأتت الأدلة بنقيضها ، فهذا الأستاذ فيشر W. B. Fisher فى كتابه « الشرق الأوسط »(١) قد خص برقة وحدها بالكلام على أنها جزء منه بعد أن تكلم عن مصر . وهو فى تحديده لمعنى الاصطلاح الجغرافى « الشرق الأوسط » فى مقدمة كتابه قد فصل بين برقة وبقية البلاد ونظر إليها على أنها جزء من مصر فألحقها بها وجعل منها حداً غربياً لإقليم الشرق الاوسط. أما ما هى الأدلة التى استند إليها فى رأيه هذا وما مدى ما تحويه من صحة فهذا ما يمكن أن نصل إليه إذا عرفنا أنه قد لاحظ أن الصحراء الغربية لمصر تمتد حتى برقة دون أى تمييز ظاهر فى الوقت الذى يرى فيه أن هناك حداً بين لوبيا الشرقية ولوبيا الغربية متمثلا فى منطقة اجدابية واستدل على ذلك فى هامش كتابه بأن القوات البريطانية فى تقدمها من مصر غرباً قد وصلت إلى منطقة اجدابية حيث وقفت بها الحدود الطبيعية هناك . ثم أنه يرى أن الروابط الاجتماعية والاقتصادية التى تربط برقة بمصر أكثر مما هى عليه فيما بين برقة وطرابلس لأن ماشية برقة تجد أسواقها فى مصر ونادراً ما تذهب بها إلى أسواق طرابلس ثم لا يلبس الأستاذ فشر أن يذكر لنا فى تعليلاته لهذه التفرقة أن برقة يسودها الدم العربى أكثر مما هو عليه فى طرابلس حيث الغلبة للجنس الحامى والعنصر

---

١ — W. B. Fisher: Tha Middle East, London 1950.

البربرى . ولا ندرى ما علاقة هذا بتحديد البلاد التى تدخل فى اصطلاحه الجغرافى «الشرق الأوسط» . وأخيراً اتخذ إلى جانب هذه المبررات السابقة لتدعيم رأيه الجغرافى فى تحديده للشرق الأوسط تعليلا تاريخياً آخر وهو أن معظم الغزوات التى تعرضت لها برقة قد أتت إليها من الشرق.

أما أن يختلف العلماء الجغرافيون فى تحديد معنى الاصطلاحات العلمية وفى تحديد مناطق الشرق وغيره فهذا ما نسلم به لأنه شيء نسبي يختلف باختلاف الأشخاص ومواقع البلاد فما هو شرق بالنسبة للوبيا هو فى نفس الوقت غرب لغيرها وهكذا . وأما أن يتخذ الأستاذ فشر هذه التعليلات الضعيفة للبرهنة على فصل البلاد جغرافياً بين أجزائها فهذا ما يمكن الرد عليه.

من المسلم به إلى حد كبير أن طبيعة البلاد فيما بين الصحراء الغربية المصرية وبرقة ليست بظاهرة المعالم والحدود وقد سبقه إلى القول به بعض الرحالة والكتاب الأقدمين حتى أن بعضهم وعلى رأسهم الرحالة العبدرى قد نظر إلى مدينة الاسكندريه فى رحلته المشهورة على أنها بداية لبلاد المغرب وبمراجعة ما كتبه غيره بهذا الخصوص فى بعض هوامش هذا الكتاب يتضح لنا أن هذا رأى سابق قد أخذ به بعض من تعرض لوصف بلاد الشمال الافريقى . وأما كون الحدود أوضح بين برقة وطرابلس منها فيما بين برقة ومصر فهذا غير صحيح وإن استدل الأستاذ فشر على ذلك بوقوف الجيش البريطانى فى تقدمه من مصر غرباً عند منطقة اجدابية لأن ذلك التوقف لم يحدث لأن الجيش وجد عوامل جغرافية عاقت مواصلة تقدمه إلى طرابلس بل حدث ذلك لعوامل أخرى كان فى مقدمتها تلك الخطة الحربية التى رسمتها القيادة العامة وما حدث من تطور حربى فى ميدان البلقان استدعى نجدة الجيش البريطانى لحلفائه اليونان فى حربهم ضد الغزو المحورى وما ترتب على ذلك من عجز فى قوات الحلفاء فى الشرق الأوسط

وتوقف العمليات فى هذه الجبهة عند اجدابية وسفر الجنرال ولسن قائد الهجوم البريطانى الأول فى نجدة إلى بلاد اليونان . وإذا كان الجيش البريطانى فى تقدمه قد وجد عوامل جغرافية وقفت به عند اجدابية لكان تقهقره لم يتم بتلك الصورة السريعة وبتلك السهولة التامة لأنه كان فى امكانه أن يتخذ من هذه العوامل خير معين له على صد أى هجوم مضاد يقوم به العدو ولاستطاع بهذه العوامل الجغرافية أن يصمد أمام هجوم العدو لمدة أطول حتى تصله الامدادات اللازمة ولكن رجال السياسة ونظرياتهم الخاصة هى التى دفعت إلى القول بهذه العوامل الجغرافية الفاصلة بزعمهم بين الإقليمين وزادت فى تصويرها حتى تصورها القادة العسكريون وغيرهم على أنها شىء كبير يحسب له حساب . وكم من مرة تورط العسكريون فى أخطاء حربية بسبب ما يبديه رجال السياسة من آراء وهم الذين بيدهم دفة تسيير الأمور ولا يكفى أن يفتح مؤرخ أو سياسى خريطة فيحكم إذا رأى بعض الجبال أو المستنقعات بوجود فاصل جغرافى . وعلى العموم ليس هنا محل مناقشة هذه العمليات الحربية التى حدثت فى لوبيا وكيف حدثت وكيف أدار دفتها القادة العسكريون على أساس ما قدمه لهم رجال السياسة المسيرون لدفة الأمور فى ذلك الوقت .

وإذا كان الأستاذ فشر قد رأى فى كتابه هذا أن الروابط الاجتماعية والاقتصادية بين مصر وبرقة قوية حتى إنه الحق برقة بالشرق الأوسط على أنها تكون الحدود الغربية لمصر فقد يكون الأمر كذلك ولكن هى فى حد ذاتها ليست بأقوى وأمتن مما هى عليه بين برقة وبقية لوبيا . وأما أن حيوانات برقة تجد أسواقها فى مصر لا فى طرابلس فهذا لا يعنى الفصل بينهما لأن طرابلس كذلك تشترك مع برقة فى هذه الناحية ولها من ثروتها الحيوانية الخاصة بها ما يدفعها إلى التصدير الخارجى لا الاستيراد ويزيد

فى هذا وضوحاً إذا علمنا أن معظم الحيوانات التى تصدر من برقة فى الأعوام الأخيرة كان أغلبها قد جلب من طرابلس عامة ومن منطقة سرت بالذات والزائر لهذه المنطقة فى فصل الربيع يرى أفواجاً من التجار وهم يشترون الأغنام ويرحلونها إلى برقة براً لتصديرها من هناك إلى مصر وطبيعى أن تمر هذه الأغنام الطرابلسية ببرقة وهى فى طريقها إلى مصر وطبيعى أن يحسبها الأستاذ فشر وغيره على أنها من إنتاج برقة وحدها دون محاولة التعمق فى الاستقصاء مكتفياً بالإحصائيات الرسمية والكشوف الجمركية. أما مسألة السكان ومدى ما يسودهم من دم عربى أو غيره فهذه نقطة سيأتى تحليلها فيما بعد عند التعرض لبقية آراء الكتّاب. وأما القول بأن معظم هذه الغزوات التى تعرضت لها برقة قد أتت من الشرق فيكفى للرد على ذلك بأن معظم هذه الغزوات التى يعنيها قد تعرضت لها طرابلس كذلك الأمر الذى لا يستدعى هذه التفرقة بينهما. هذا إذا أغفلنا من حسابنا تلك الغزوات أو الموجات التى أتت من الغرب والتى ربطت بين الطرفين وأهمها الغزو الفاطمى.

أما الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية أستاذ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية والذى قام برحلة فى برقة فى صيف سنة ١٩٤٥ والذى كتب عن رحلته هذه فى مجلة الكاتب المصرى فقد كان مؤيداً لفكرة الفصل بين الإقليمين وذهب إلى أبعد من هذا بالدعوة إليها كما يفهم مما كتبه ويمكننا أن نرى فكرته هذه بوضوح فى الفقرتين التاليتين مما كتبه :

ا — « وفى سنة ٢٩٧م عندما قسم دقلديانوس الامبراطورية الرومانية إلى قسميها الشرقى والغربى تذهب برقة مع مصر إلى القسم الشرقى البيزنطى وتبقى فى حكم أباطرة القسطنطينية إلى أن تدخلها جحافل العرب الظافرة بقيادة عمرو بن العاص فى سنة ٦٤٢م»(١)

---

١ — مجلة الكاتب المصرى : عدد ٦ صحيفة ٢٥٧

ب — « وخطأ آخر شائع بين الناس ألا وهو إعتبار برقة جزءاً من طرابلس بقدر ما هى فى نظرهم جزء من الصحراء اللوبية وما هذا إلا نوع من الشطط الذى كانت تمليه الدعاية السياسية والظروف الاستعمارية القاسية التى ربطت حتف برقة بطرابلس أيام الحكم الإيطالى. ولكن جغرافية برقة تختلف كل الاختلاف عن جغرافية طرابلس كما أن تاريخ برقة غير تاريخ طرابلس وقبائل برقة غير قبائل طرابلس فهم أنقى عنصراً فى عروبتهم من اعراب طرابلس وأشد تمسكا ببداوتهم من غيرهم ولغتهم أقرب اللهجات إلى اللغة العربية الفصحى القديمة»(١)

أما عن النقطة الأولى فيكفى للرد عليها أن نعرف أن القائد البيزنطى بلزاريوس قد قام فى عهد الامبراطور جستنيان باستعادة لوبيا وبقية الشمال الافريقى من الوندال. وقد وحد بين اقليمى برقة وطرابلس فى ولاية رومانية واحدة فلم يدم ذلك التقسيم الذى وضعه دقلديانوس بين الاقليمين(٢). ومن هذا يتضح لنا أن ذلك التقسيم كان لفترة قصيرة اقتضتها ظروف الامبراطورية لا مصلحة البلاد اللوبية وأهلها اللوبيون.

وأما عن النقطة الثانية وما حوته من عناصر تصلح فى رأيه أن تكون أساساً للقسمة بين الاقليمين فقد سبق مناقشتها ومع كل فإن مثل هذه العناصر قل أن يخلو منها أى بلد آخر ولكن كيف تحقق الأستاذ من هذه الأدلة وهو فى رحلته المذكورة لم يتعد بلدة اجدابية الواقعة إلى الغرب من مدينة بنغازى مما يجعلنا نرجح استقاء آرائه هذه لا عن طريق المشاهدة بل عن طريق النقل من مصادر أخرى هى بعينها كانت تدعو إلى هذا الفصل وكان على الأستاذ أن يتحقق شخصياً من هذه الأدلة الجغرافية التى قال بها.

* * * * * * * * *

---

١ — مجلة الكاتب المصرى: عدد ٦ صحيفة ٢٥٨ و٢٥٩

٢ — Camb. Hist. (vol. II, Ch, VII, P. 283.)

ونحن إذا نظرنا إلى خريطة لوبيا الطبيعية لا نجـــد من المظاهر الطبيعية كالبحار والأنهار والجبال ما يصلح لأن يكون حداً طبيعيا بين هـذه الاجزاء الثلاثة . هذا الاتصال الطبيعي هو الذى جعـل بعض الجغرافيين والمؤرخـين القدامى يختلفون فى تحديد كل اقليم ويخلطون بينه وبين الآخر . فهذا المؤرخ سالستوس (١) . Sallustus عنـــدما يؤرخ للنزاع الذى قام بين قورينـا Cyrene وقرطاجـة Carthage يقول بوجـود سهل رملى على الحـدود بين الاقليمـين ذى سطح متشابه خال من المعالم وليس به جبـل أو نهر حتى يمـكن بواسطته رسم حدود هاتين المملـكتين (٢) . وهـذا ياقوت الحمـوى فى معجم البلدان عندما يتكلم عن طرابلس يقول بأنها مدينة فى آخر أرض برقة وأول أرض افريقيـة . وهكذا يجعل ياقوت برقة تمتد غرباً حتى مدينـة طرابلس . وهذا ابن رسته فى كتابه « الاعلاق النفيسة» عند كلامه عن سرت يعتبر تَـوَرْغة حد برقة الغربى (٣) . وهذا أبو الفدا فى كتابه تقويم البلدان يتخـذ من قصر أحمد ميناء مسراته المعروف حداً غربياً لبرقة (٤) وبالمثل القلقشندى (٥) فى

---

(١) كايوس سالوستوس . مؤرخ رومانى ولد سنة ٨٦ ق . م ومات فى سنـة ٣٦ ق . م ولى عضوية مجلس الشيوخ ولـكنه اخرج منه لاستهتاره وعاش شبـه منفى الى أن رده قيصر الى روما وولاه ولاية لوبيا وقد حكم فيها اسوأ حكم وقد جمع لنفسه ثروة طائلة عاد بها الى روما .

٤— F.W. Beechy &H.W. Beechy: Proceedings of the expediton to explore the Northern Coast of Africa from Tripoli Eastward, P, P. 218, 219,

(٣) ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر) :ــ الاعلاق النفيسة. طبعـة ليدن سنة ١٨٩١ ، ص ٣٤٤ : « وأهل مدينـة سرت . . . وآخر منازلهم على مرحلتين من مدينـة سرت بموضع يقال له تورغة وهو آخر حد برقة » ثم يكرر هذا المعنى فى ص ٣٤٦ عند كلامه عن فزان فيقول « ومن أخر عمل برقة من الموضع الذى يقال له تورغة الى طرابلس ست مراحل » .

(٤) ابو الفدا (المؤيد ابو الفدا اسماعيل صاحب حماة توفى سنة ٧٣٢ هـ) : تقويم البلدان . طبعة الجزائر سنة ١٨٣٩ (عن ابن سعيد وقصر احمد آخر حد افريقية من جهـة الشرق وأول حـد برقة ...) .

(٥) القلقشندى (ابو العباس احمد) :ــ صبح الاعشى فى صناعة الانشا . طبعـة دار الـكتب ١٩١٥ م . ج ٥ ص ١٠٥ « ومنها قصر احمد . . قال ابن سعيد وهو حـد افريقية من الشرق وحد برقة من الغرب . . »

موسوعته . وهذا ليون الافريقى يصف المنطقة الممتدة من بلدة مسراته الى مدينة الاسكندرية تحت عنوان برقة (١) ويصفها على أنها منطقة واحدة متشابهة فكأنه قد جعل من مسراته حداً غربياً لها وبالمثل الرحالة الانجليزى بيتشى وزميله اللذان قاما . حلة علمية جغرافية من مدينة طرابلس إلى مدينة درنه (١٨٢١ — ١٨٢٢ م) ايام ولاية يوسف باشا القره مانلى اذ إنهما يشاركان ليون الافريقى فى هذا التحـــديد .

اختلف هؤلاء المؤرخون والرحالة فى تعيين الحدود بين هذين الاقليمين لأن الطبيعة وحدت بينهما وجعلت من الصعب القول بما قال به الاستاذ فشر وغيره. ونحن إذا نظرنا إلى خريطة الساحل اللوبى لاحظنا خلوه من الخلجان الفرعية والتعريجات التى تصلح أن تكون اساساً لاتخاذها نقطة للفصل بين ساحلى الإقليمين بل أن خليج سرت بشكله المقوس المستقيم يربط بين مسراته وبنغازى بنهايتيه .

ومن المسلم به بين علمـــاء الاجناس أن الاساس الجنسى لكل من برقة وطرابلس يقوم على سلالة البحر الأبيض المتوسط المعروفة باللوبيين قديماً وبالبربر عند العرب فيما بعد ولكن هؤلاء اللوبيين كانوا من الرحل الذين لا يستقرون فى منطقـــة معينة بالذات ولهذا سهل عليهم كثيراً الاندماج فيما بينهم وبمراجعة ما كتبه ديودور الصقلى عن بعض قبائلهم نجد أنه يؤيد ماجاء بخصوصها فى كتاب هيرودوت (٢) بل وكثيراً ما كانت تمتد القبيلة الواحدة من

---

١) ليون الافريقى هو الحسن بن محمد الوزان . ولد فى غرناطه من ابوين مغربيين مسلمين فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . اعتنق المسيحية بعد أن اسره المسيحيون والحقوه ببلاط البابا فى روما . له تأليف خاص بوصف شمالى افريقية .

٢ هيرودوت : ٤٨٤ — ٤٢٥ ق . م

المنطقة التى قامت فيها مدينـة قورينا إلى خليج سرت الـكبير بل وأحيـاناً إلى خليج سرت الصغير وهو المعروف بخليج قابس حالياً . ومن هـــذه القبائل الواسعة الانتشار فى ذلك الوقت والتى امتدت بطول ساحل البلاد قبيلة النازامونس Nasamones وقبيلة اوسكيساى Auschisae وقبيلة المارماريداى Marmaridae وقبيلة المكاى Macae [١] . وبدراسة الخرط التى نشرها الاستاذ Oric Bates [٢] فى كتابه بخصوص توزيع اللوبيين الشرقيين وهم اولئك الذين كانوا يشغلون ما يعرف الآن ببرقه وطرابلس ، فى مختلف العصور وحسب ما جاء ذكره فى كتب الأقدمين يتبين لنا أنه كان هنـــاك اختلاط كبير بينها نتج عن تغيير الـكثير منها لأماكن الاقامة بمرور الزمن وتتابع الحوادث . وكان من المعتقد قديما أن قبائل الجرامنت Garamant صاحبة الحضارة الراقيـــة المعروفة فى تاريخ لوبيا قديما والتى كانت تسكن فى اقليم فزان فى العصور القديمة ترجع فى أصولها إلى السلالة الاثيوبية مما يدعو إلى فصلها عن السكان الشماليين للسواحل من ناحية الجنس ولـكن النتيجة الاخيرة التى وصلت اليها إحـــدى البعثات الايطالية لدراسة الناحية الجيولوجيـة والبشرية لمنطقة فزان اثبتت عدم صحة هذا الرأى بعد زيارة وادى الاجال Wadi al - Agial بفزان وفحص مقابره العديدة وأرجعت أصولها الجنسية إلى سلالة البحر الابيض مستدلة على ذلك بالحضارة الراقية التى كانت عليها القبائل الجرمنتية والتى لابد انهـا قد وصلت مع أهلها من الشمال (٣) . وهكذا كانت وحدة الجنس فى أساسها صالحة فيما بعد لأن تـكون منسجمة أمام ما جد من تطور فى الجغرافيـة البشرية لهذه البـلاد وعدم اختلال التوازن الجنسى بين سكان هذه الاقاليم الثلاثة لما جـــد من

---

١ — David Randell-Maciver: Libyan Notes, London 1901

٢ — O. Ric Bates: The Eastern Libyans, London, 1914

٣ — D. E. L. Haynes: A short Historical and Archaeological introduction to Ancient Tripolitania, P. 16.

فتوح وغزوات كان لهـــا أثرها الطبيعى فى تكوين الشعب اللوبى بصفـة عامة فيما بعد .

* * *　　* * *　　* * *

أما اختلاف الوضع السياسى لبرقة وطرابلس فى عهد الاغريق والفينيقيين فهـذا صحيح إذا أخذنا به على عـلاته دون بحث أو تحقيق ولـكن إذا حللنا الاسباب التى دعت إلى هذا الفصل تبين لنا عدم صحة هـذا الاساس الذى بنى عليه هـذا الرأى . لقـد اضطر الفينيقيون الى هجر الجزء الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط أمام نشاط الاغريق وتحفزهم وعدوانهم البحرى ولم يجـد الفينيقيون طريقة للمحافظة على تجـارتهم التى بها يعيشون والتى لا يمكن لها الازدهار أمام خطر التهـــديد الذى شنه عليهم الاغريق إلا باللجـوء إلى الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط وكان حظهم أن أتوا سـاحل اقليم طرابلس وشيـــدوا مدنهم الثلاث هنـــاك . ولا شـك أن الفينيقيين لا بد أنهم فـكروا فى ساحل اقليم برقه قبل وصولهم إلى الساحل الغربى بحـكم قربه الى موطنهم الأصلى وبحكم الطريقة التى كانوا يتبعونها فى اسفارهم البحرية وهى السير بمحاذاة السواحل وتجنب الايغال فى الجهات البحرية الداخلية بحكم طبيعة السفن التى استعملوها فى اسفارهم هذه وعدم استطاعتها مقاومة الأمواج وحتى لا يكونوا عرضة لاعتداء الغـير عليهم والالتجاء إلى الشاطىء أمام كل خطر يفاجئهم . ولـكنهم رأوا فى النزوح إلى ســـاحل برقة ما يعرضهم لخطر الاغريق مباشرة بشكل أفظع نظراً لمواجهة برقة لبلاد اليونان مباشرة وهم الذين تركوا لهـم شرقى البحر الأبيض حيث تطل فينيقيا الوطن الاصلى لهـم حتى لا يواجهوهم مباشرة ولهذا اضطر الفينيقيون إلى التخلى عن ساحل برقة ولجأوا إلى ساحل طرابلس واكتفوا به ما دام فى ذلك ما يضمن لهم استمرار موردهم التجارى دون نظر لأى اعتبـــار آخر ولو كان الفينيقيون من الشعوب التى

بنت أساسا الاستعمارى على الاقامة والتوطن كما هى الحال عند الاغريق لاعادوا النظر فى كيفية اقامتهم فى الشطر الشرقى بمحاولة ضم برقة إليهم حتى يتم لهم الاستيلاء على البلاد وتأمين حدودها . وهكذا لم يكن التخلى من الفينيقيين معناه التسليم بالتقسيم ولكن الظروف الغير ملائمة لهم هى التى اجبرتهم على هذه السياسة . ومع كل هذا فقد بدأ الفينيقيون وقد اشعرتهم الحاجة الملحة بذلك إلى الزحف شرقاً بطول ساحل لوبيا وأخذوا يقتربون شيئاً فشيئاً من اقليم برقة وما اقامتهم لمحطة كاراكس Carax ، المكان المعروف بسلطان إلى الشرق من بلدة سرت (١) ،كمركز من المراكز التجارية على ساحل البحر الأبيض المتوسط إلا دليل على هذا الاتجاه منهم . على إنه إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للفينيقيين فإن الاغريق بعد أن جاءوا إلى برقة مستوطنين قد حاولوا ضم طرابلس إلى برقة والتوحيد بينهما لأن سياسة الاغريق كانت سياسة استقرارية وسياسة الاستقرار تدفع إلى مثل هذا التفكير لضمان عناصره ولذلك فالتاريخ يحدثنا بأن دوريوس Dorius أمير سبرطه قد نزل بفريق من اتباعه عند مصب وادى كعام إلى الغرب بقليل من بلدة ظليتن وهناك أسس مستعمرة اغريقية باسم سينيبس (٢) Cynips قدر لها أن تعيش فترة من الزمن كانت كافية لأن تكون نواة فيما بعد لزحف الاغريق إلى طرابلس والتوحيد بينها وبين برقة فى السيادة الاغريقية ولكن قرطاجة وهى التى هجر مؤسسوها شرقى البحر الأبيض أمام الخطر الاغريقى لم تقف ساكنة أمام هذا الخطر الزاحف نحوها بل عملت على طرد الإغريق من هذا الجزء والقضاء على مستعمرتهم الناشئة .

---

1 - Haynes : A Short Historical and Archaeological introduction to Ancient Tripolitania, P. 20

٢ ــ المصدر السابق ص ٢٢

هذه ولا شك محاولة إيجابية قام بها الإغريق للتوحيد بين الإقليمين من ناحية التبعية السياسية وإن كان النجاح لم يكن حليفاً لها فعلى العموم تصلح أن تكون نواة لحركة أقوى وأكثر وضوحاً فيما بعد. يتبين لنا ذلك عندما نرى البطالسة ملوك مصر وقد بسطوا سيادتهم على برقة أخذوا يزحزحون حدودهم إلى الغرب حتى وصلوا بها إلى سرت ثم قام والى قورينا من قبلهم وهو المسمى أفلاس Ophellas بحركة جريئة كان الغرض منها ضم طرابلس إلى برقة عندما تعهد بمساعدة اجاثوكليس الاغريقى طاغية سيراكوز بصقلية فى حربه مع قرطاجة على أن تطلق يده فى لوبيا الغربية فى حالة النجاح. وبدأ فعلا افلاس Ophellas فى تنفيذ خطته وسار بجيشه عبر الساحل الطرابلسى إلى قرطاجة وإن كانت هذه المحاولة الجريئة التى قام بها إغريق برقة لضم طرابلس لم يقدر لها النجاح فى هذه المرة كذلك فإن هذا لا ينفى محاولة توحيد الإقليمين واخضاعهما لسلطة واحدة عليا إذ أن عدم التمسك بتحقيق شروط هذه الاتفاقية وروح الخيانة بين الحليفين هى التى وقفت دون تحقيقها.

ولما فشلت محاولات التوحيد التى قام بها الاغريق واستقر كل فريق فى إقليمه رأينا المنازعات والمشاكل بدأت تقوم بين الإقليمين وكان معظمها يدور على الحدود بينهما لعدم وضوحها ووجود ما يصلح أن يكون حداً فاصلا بين الإقليمين. وسرعان ما اتخذت هذه المنازعات شكل الحروب المنظمة والتاريخ يحدثنا بأن الحرب قامت بين قورينا وقرطاجة من أجل هذه الحدود عندما كانت قورينا تتزعم المدن الخمس Pentapolis باقليم برقة وعندما كانت قرطاجة تبسط سيادتها على اقليم طرابلس. وهكذا كان فى شطر هذه البلاد فى ذلك الوقت مدعاة للحرب والمنازعات وقد روى لنا التاريخ كيف انتهت تلك الحرب بين الطرفين بقصة التحكيم وتضحية الأخوين فليانى Phileani من أهالى قرطاجة وإقامة مشهد تذكارى لهما فى المكان المعروف الآن بالقوس. ولاشك أن

الرضا بهذا الحد الصناعي وكيفية الوصول إليه لم يكن كذلك إلا خوفاً من تجدد الحرب بينهما وافناء قوتهما وتعريضهما للفناء أمام خصم جديد أخذ يظهر للوجود متمثلا فى روما وقوتها العظيمة وإلا ما كانت هذه الحدود الصناعية تصلح أن تكون حدوداً وافية بالغرض الذى أقيمت من أجله بل هى أقرب لأن تكون حدوداً إدارية كما هو متبع فى سائر الممالك الأخرى مهما صغرت مساحتها . وليس أدل على هذا القول من نشاط تجارة التهريب بين الاقليمين عندما فصلا عن بعضهما بعد هذه الاتفاقية وبعد ظهور هذا الحد الصناعي وكيف لعب مركز «كاراكس Carax فى ذلك الوقت والمعروف الآن «بسلطان» دوراً هاماً فى هذه التجارة وكيف نشطت حركة التهريب بين الاقليمين خصوصاً فيما يختص بتجارة نبات السلفيم.(١) Silphium الذى كانت تنتجه برقة وتصدره للخارج وعصير العنب الذى كانت تنتجه مدن طرابلس الساحلية بكثرة . ولا شك أنه فى إقامة مثل هذه الحدود الصناعية إعادة لحركة التهريب على أشد ما يكون ودفع الناس على ارتكاب الجرائم باختراقهم للقوانين التى توضع لحماية مثل هذه الحدود الصناعية . وفى ذلك ما فيه من تدهور للقيم الأخلاقية واتاحة الفرصة لخلق المشاكل فى سبيل ارضاء نظريات لا تقوم على أساس من الصحة ولنا فى الأعوام الأخيرة فى عهد الإدارة البريطانية وقبل اعلان استقلال البلاد ما يثبت لنا هذه الحالة الخطيرة إذا قمنا بدراسة منظمة لما كانت عليه

---

١ ــ جاء بخصوصه فى معجم الدكتور محمد شرف (معجم انجليزى عربى فى العلوم الطبية والطبيعية .) المطبعة الأميرية سنة ١٩٢٨ الطبعة الثانية ص ٨٢٦ ــ ٨٢٧ ما يأتى : —
Silphium = انجدان . انجذان . عود الرقة . محروث «ا.ب» وثافسيا .
والسلفيون من الفصيلة الخيمية Thapsia Silphium, Viviani وسمى كذلك Silphium لاحتوائه على سائل راتينجى اشتهر عند القدماء بنفعه لستين مرضا باطنياً وظاهرياً (Pliny) ورسم على نقدقيرنيه cytene موطنه ــ وسمته اليونان Silphium من Silphi اسمه الافريقى وسمته الرومان Laserpitium

الحركة التجارية بين الاقليمين فكيف يكون الحال إذا أقيمت حدود معينة يصعب تخطيها إلا بإذن خاص يخضع لمختلف الظروف والأحوال . لا شك أن الحياة الاقتصادية للبلاد ستصاب بشكل قوى يعوق تقدمها كما أعاقها بعض الشيء قديماً أيام أن كان الاغريق فى برقة والقرطاجنيون فى طرابلس وبعدأن أقاموا تلك الحدود الصناعية بينهما ولكن وجه الخطورة أشد فى العصر الحديث لما جد من تطور كبير فى وسائل الحياة المختلفة ومطالبها .

ومالنا نذهب بعيداً فلنترك العهد الاغريقى الفينيقى جانباً لنرى البلاد وقد جاءها العرب فاتحين مبشرين بالدين الاسلامى ٢٢ هـ. جاءت الجيوش العربية ففتحت برقة وتقدمت منها إلى طرابلس فاستولت عليها وفى اثناء ذلك كان بعض الجند يتوغلون جنوباً إلى « زويلة » وفزان ولم تذكر لنا المصادر التاريخية أن عمرو بن العاص قد استأذن الخليفة فى فتح طرابلس وفزان بعد استيلائه على برقة ولكنها تذكر لنا وتؤكد أن عمرو بن العاص أراد أن يتابع فتوحاته غرباً بعد طرابلس بالاستيلاء على افريقية لولا معارضة الخليفة لذلك على أثر مادار بينهما من مكاتبة فى هذا الخصوص. ومعنى هذا أن عمرو ابن العاص فى فتحه لطرابلس وفزان بعد الاستيلاء على برقة لم يفعل اكثر من اتمام فتح هذه البلاد التى بدت له وحدتها منذ ذلك التاريخ حتى اذا ما أتم فتحها وأراد الانتقـــال ألى غيرها شعر بضرورة تخطى حدود لوبيا الغربية وبالتالى ضرورة استئذان الخليفة فى المدينة قبل الاقـــدام على هذا العمل. هكذا كان هذا التوحيد فى الفتح العربى نتيجة طبيعية لوحدة البلاد التى أدركها القائد العربى منذ ذلك التاريخ ومقدمة لاحداث أخرى متتابعة ربطت بين الاقاليم الثلاثة وجعلتها أقرب ماتكون لبعضها من البلاد المجاوره لها .

على أن موجة الفتح العربى التى ربطت بين الاجزاء الثلاثة سرعان ماتلتها موجات أخرى عربية كان لها أثر كبير فى تدعيم هذه الوحدة الجنسية ومع

ما لاقليم فزان من موقع جانبى بالنسبة لموجات القبائل العربية وهى فى طريقها الى الغرب إلا أن الملاحظ أن الدم العربى يسود القبائل الفزانية بل ويسود فى كثير من واحاتها النسب النبوى الشريف ولاشك أن هـذا الأثر لم يصل إلى مزان مباشرة إلا عن طريق برقة وطرابلس كبقية المؤثرات السابقة التى أتت من الشمال ومن أظهرها وصول المسيحية الى فزان فى العهد الرومانى .

وكان من أهم الموجات العربية التى أثرت فى لوبيا هجرة بنى هلال وبنى سليم وقد أراد بعض الكتاب أن يتخذوا من استيطان معظم قبائل بنى سليم فى برقة وغالبية بنى هلال فى طرابلس وتونس (١) مدعاة لاثبات اختلاف التكوين القبلى لكل من الاقليمين ولكن فاتهم أن هذه القبائل جميعها عربية وإن اختلفت فى التسمية ولهذا يستبعد اختلاف تأثيرها خصوصا وأنهـــا تتحد فى الأصل القبلى وظروف مجيئها الى البلاد اذ المعروف أن بنى سليم وبنى هلال يتحدون فى الأصل بانتمائهم إلى مضر من بادية نجد ولو كان بنو سليم من عرب شمالى الجزيرة وبنو هلال من عرب الجنوب لكان من الممكن التماس الاسباب لهذا الزعم ولكنهم جميعاً من أصل واحد وموطن واحد . وطبيعى جداً أن يكون فى برقة شىء من الوضوح فى الدم العربى بحكم موقعها بالنسبة للجيوش الغازية والقبائل الوافدة ولكن ليس معنى هذا أن نهول فى هذا الأثر حتى تكون هناك فجوة بين سكان البلاد اذ أن هذه الجيوش الغازية والقبائل الوافدة قد وجدت أمامها فى برقة سكاناً أصليين والتاريخ لم يذكر لنا انقراضهم إلا اذا كان من طبيعة العرب الفاتحين المبشرين بالدين الاسلامى هو القضاء على فايصادفهم من شعوب وهـــذا ما لم يحدث وما يتنافى ومهمة التبشير بالدين الاسلامى الجديد .

---

(١) E. E. Evans-Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica, P. 48.

وعلى العموم اذا كان هناك ما جعل طرابلس تحتفظ ببقية من العنصر البربرى بين سكانهـا حتى يومنا هذا فليس معنى ذلك استغلال قيام هـذه البقية لايقاع الفرقة بين اقاليم البلاد وأظهار الوحدة بينها على أنها شيء محال اذ قل أن يخلو أى قطر فى العالم من مثل هذه الحالة وغيرها ولنا فى مصر أسوة حسنه اذا درسنا جغرافيتها الجنسية فمديرية الشرقية فيها تمثل الباب الشرقى لها كما تقوم بهذه المهمة منطقة برقة لبقية اجزاء البلاد وعن طريق هـــذا الباب الشرقى دخلت الجيوش مصر فاتحة غازية مرة بعد أخرى من أيام الهكوس حتى الفتح العثمانى على يد السلطان سليم الأول ومن هذا الباب أيضا دخل عمرو بن العاص بجيشه كما تتابعت من بعده الجيوش العربية والقبائل العربية الزاحفة فى طريقها إلى الشمال الافريقى ولهذا كان من الطبيعى أن نجد الدم العربى هناك أكثر بكثير من بقية الاجزاء المصرية الأخرى ولكن مع هـذا لم يقل أحد بالحاق شبه جزيرة سيناء مثلا أو مديرية الشرقية بشبه جزيرة بلاد العرب بناء على ما بينهما من تقارب فى التكوين الجنسى .

على أن هذه الموجات العربية التى أتت من الشرق وربطت بين اجزاء البلاد سرعان ماتبعتها موجات أخرى وفدت من الاتجـــاه الغربى وكانت فى اتجاهها هذا بمثابة رد فعل للتوسع العربى وانتشار عنصره فى الشمال الافريقى ومنه إلى الاندلس وكانت هذه الموجات الوافدة من الغرب أكبر عامل فى زيادة هـذه الرابطة الدموية وليس أدل على هـذا من ظهور مدينة بنغـازى للوجود مرة أخرى بعـد أن اختفت كمدينة قائمـة بذاتها على أثر الفتح العربى واختفاء المجتمع الاغريقى الرومانى أمام العرب الزاحفين وظلت كـذلك مهجورة حتى القرن الخامس عشر الميلادى عندما عادت إليها الحياة من جديد بوفود الجماعات إليها من مهـاجرى وتجـار مدن الساحل الطرابلسى وكان من بينهم اولئك الذين اتوا من مدينة مسراته وقد تزايد عددهم على مر الأيام

حتى اصبحنا فى يومنا هذا نرى فيها أحياء مأهولة ممثلة للقرى المسراتية فى موطنها الأصلى الذى نزحت منه وأصبح فى مدينة بنغازى شوارع تحمل اسماء قرى معروفه فى مدينة مسراته فهذا شارع «قزير» وذلك شارع قصر أحمد وهكذا . وكلها اسماء لقرى مازالت قائمة عامرة بأهلها فى مسراته قد نزح بعض أفرادها إلى بنغازى حاملين معهم طابعهم الخاص فأحيوا مدينة برنيق من جديد تحت اسم بنغازى حتى أصبح من المعروف بين سكان البادية أن كلمة «مسراتى» معناها ذلك الذى يسكن مدينة بنغازى .

وهذه مدينة درنة ثانية مدن برقة أهمية وقد كان حظها أحسن حالا من شقيقتها بنغازى بعد مجىء العرب اذ أنها لم تندثر كما حدث لبنغازى بل ظلت محتفظة بالحياة فيها طيلة الفترة العربية ولكن حياتها جددت كذلك على أثر هجرة الكثير إليها من تجار ومستوطنى مسراته وغيرها كما حدث تماماً لبنغازى فى القرن الخامس عشر الميلادى . واذا عرفنا أن أهلها الحاليين ينقسمون إلى «تواجير» نسبة إلى بلدة تاجوراء الواقعة الى الشرق من مدينة طرابلس وإلى مسارته نسبة الى مسراته والى ظليتنية نسبة إلى بلدة ظليتن وإلى قول أوغلية نسبة إلى ابناء الفرق الانكشاريه ادركنا النسبة العالية التى ساهمت بها بعض مدن الساحل الطرابلسى فى تكوين سكان مدينة درنة وازدهار حياتها الاجتماعية . وبهذا الشكل فيما يختص ببقية مدن برقـــة كتوكرة والمرج وطبرق وغيرها ومازال هؤلاء النازحون على اتصال وثيق بأهلهم وذويهم فى المدن الطرابلسية والعكس بالعكس .

ولم يقتصر هذا التبادل على سكان المدن وحدها بل تعدى ذلك إلى سكان البادية والقبائل المنتشرة وفى وجود قبيلة اولاد الشيخ فى برقة وانتشار افرادها فى طول البلاد وعرضها مظهر آخر لهذا التبادل بين الشطرين .

. . .   .

هذه عجالة تاريخيـة خاطفة ترينا مدى ما كان من ارتباط تاريخى بين برقة وطرابلس وتفند زعم القائلين بالفصل بينهما على أساس تاريخى غير صحيح . أما فيما يتعلق بتلك العلاقات التاريخيـة بين طرابلس وفزان فيـكفى أن نعرف أن الفينيقيين قد أتوا إلى ساحل طرابلس وأقاموا المدن الثلاث به . ولم يكن قيام هذه المدن واستمرارها قد أتى عفواً بل إن العوامل الجغرافيـة قد لعبت دوراً هاماً فى المساعدة على قيامها لدرجة تجعلنا نعتقد أن قيام هـذه المدن كان لابد أن يحـــدث سواء أتى الفينيقيون إلى طرابلس أم لم يأتوا لأن عوامل نشأتها متـوفرة بل هى كانت موجـودة بالفعل كنواة مهيأة للتطور قبل مجىء الفينيقيين وإن شاءت الظروف أن تظهر للوجود كمدن قائمـــة معروفة على أيديهم . هـذه العوامل الجغرافيـة التى ساعدت على قيام هذه المدن كان أهمها الطرق التجارية التى ربطت هذه الأماكن الساحليـة باقليم فزان ومنـه إلى اقليم السودان جنوباً . فصبراته مثلا تقوم فى نهاية طريق تجارى إلى الجنوب يمر بواحة « غدامس » ومدينة « أويا » التى حلت محلها الآن مدينة طرابلس تقوم عند نهـاية طريق تجارى قديم إلى الجنـوب يمر إما بطريق ترهونة وإما بطريق غريان . وكذلك بالمثل مدينة « لبدة » . ولقد كانت هذه الطرق التجـارية خير رابط بين فزان وطرابلس وموحد بين هذين الاقليمين منذ العصور القديمة وإذا كانت تجارة القوافل قد قلت أهميتها فى الأعوام الأخيرة فما ذلك إلا لتغلغل الاستعمار الأوربى وفصـــله بين فزان والسودان وفى فصل فزان عن طرابلس القضاء النهائى على بقايا هذه التجارة وهدم ركن هام فى حيـاة البلاد الاقتصادية وإن كانت قيمته الاقتصادية قد تدهورت فى الاجيال الأخيرة .

أما محاولة الفرنسيين لبتره من لوبيا والحاقه ببقية مستعمراتهم الافريقيـة فإنها محاولة لا تستند إلى أساس صحيح إذ أن الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال « لوكلير » قد دخلت فزان للتحرير كما دخلت جنـود الحلفاء فرنسا نفسها بعد

انهيارها أمام الغزو الاجنبي ولاشك أن الجنود الفرنسية فى تقدمها من تشاد نحو فزان قد استفادت الكثير من المساعدات القيمة التى قدمها لها فى ذلك الوقت المجاهد الوطنى أحمد بك سفير النصر .

على أن هـــذه الصلة المتينة التى ربطت بين اقليمى طرابلس وفزان وإن كان الفينيقيون قد أدركوها منذ القديم إلا أنهم لم يدركوها وحدهم أو بمعنى أصح إذا كان الفينيقيون هم أول من أظهرهـــا بشكل واضح فإن الرومان كذلك قد ساروا على منوالهم فى هذه الناحية فبعد أن بسطوا سيادتهم على طرابلس اقتنعوا بصعوبة بقائهم فى هذا الاقليم ما لم يتم استيلاؤهم على فزان ولذلك رأينا القائد كورنليوس بالبوس Cornelius Balbus فى بداية عهد حكم اغسطس Augustus يتولى مهمة القيام بقيادة حمـــلة هامة لاخضاع فزان فى سنة ٢٠ ق . م وكم كانت فرحة أهالى روما عظيمة عندما عاد اليهم بالبوس Balbus منتصراً بعد أن وصل الى مدينة جرمة Germa عاصمة فزان ليضمنوا بقاءهم فى طرابلس كما حدث فى عهد الامبراطور تيبريوس Tiberius عندما ذهب القائد فاليريوس فستس Valerius Festus على رأس حملة حربية بدأت مسيرها من مدينة لبدة إلى « بونجيم » فواحـــة هون ففزان . ولم يتوان الرومان عن ارسال الحملات الى فزان حتى ضمنوا خضوعه لهم فامنوا على بقائهم فى طرابلس من الخطر الجنوبى كما اتخذوا منه قاعدة للوصول الى أواسط افريقية .

. . .   .

واذا استعرضنا حالة لوبيا من الوجهة الاقتصادية نجد البلاد كثيراً ماتصاب بأعوام الجفاف من سنة لأخرى فتتعرض الحياة فيها للمجاعة كما تتعرض ثروتها الحيوانية للهلاك ولكن الملاحظ أيضاً أن سنوات الجفاف اذا حلت فهى فى الغالب لاتشمل كل البلاد بشقيها الشرقى والغربى . فمثلا إذا قلت الأمطار فى طرابلس كان مستواها فوق المتوسط أو متوسطاً فى برقة والعكس بالعكس وبمراجعة المجاعات التاريخية التى أصيبت بها البلاد نجد أنها قلما كانت تعم البلاد

بأجمعها وهـذا ما يخفف من حدة الأزمة التى تنشأ عن قيـام أى مجـاعة ويجعل البلاد تمر منهـا بسلام إلى حد كبير كما حـدث ذلك فى سنـة ١٩٣٦ م المعروفة « بعام بنغازى » عند أهالى إقليم طرابلس لاعتمادهم الكبير على مراعى برقة فى إنقاذ حيواناتهم من الهلاك بعد أن أصيبت البلاد بجفاف قل على أثره العشب اللازم للرعى . وإذا كان فى استطاعة رجال الحكومة فى ذلك الوقت التغلب على ما أصيبت به البلاد من مجاعة لانعدام المحصول الزراعى باستيراد الكثير من الدقيق والمواد الغذائية من الخـارج لتزويد الشعب بالقوت الضرورى فإنه كان من الصعب عليهم القيـام بمثل هذا العمل نحو ثروتهم الحيوانية ولم يكن أمامهم إلا ترحيل هذه الحيوانات على دفعات إلى برقة حيث كان العشب كافياً لانقاذ ثروة البلاد الحيوانية وتعويض أهل طرابلس بعض الخسارة التى نزلت بهم . وهذا ماحدث كذلك فى عام ١٩٤٦ م عندما اعتمد أهالى إقليم طرابلس إلى حد كبير على شعير برقة وهذا أيضاً ماحدث ابرقة فى سنة ١٩٥٠ بصورة مصغرة على أثر سوء موسم الأمطار فى ذلك العام حيث نشرت جريدة السندى جبلى(١) الصادرة بطرابلس الغرب أن قبـائل برقة التى على حـدودها الغربية قد أخـذت تنتقل بحيواناتها إلى إقليم طرابلس لسوء موسم الأمطار فى برقة وكما حدث كذلك فى عام ١٩٥٢ من قلة فى محصول الشعير على أثر تأخر فصل سقوط الأمطار وضياع الفرصة على الأهالى فى برقة . وبعد هذا كله يأتى إلينا الاستاذ كندى شو Kennedy Shaw فى مناقشته لمسألة الحدود بين برقة وطرابلس مع الاستاذ ايفنز بريتشرد وقد شعر بأهمية هذا الاتصال حفظاً للثروة الحيوانية للاقليمين فيقول : إذا تم فصل طرابلس عن برقة بقرار من منظمة الأمم المتحـدة فإنه ليس من الصعب عمل الاتفاقيـات اللازمة بخصوص

١— Sunday Ghibli, Suuday April 9, 1950, No. 121. [Tripoli].

مناطق الرعى للقبائل السنوسية فى منطقة سرت(١). وما أغنى البلاد عن مثل هذه الاتفاقيات والوسائل الصناعية المقيدة وترك الأمور تجرى بطبيعتها كما هى دون أى تدخل يعمل على تعقيدها وخلق المشاكل لسكان تلك النواحى .

وبدراسة الجغرافية الاقتصادية أيضاً للأقاليم الثلاثة نجد تكاملا عجيباً فهذا إقليم فزان يعتمد إلى حد كبير على شعير إقليم طرابلس كما أن موانىء طرابلس هى المنفذ الطبيعى لامداد أهالى فزان بما يحتاجون إليه وتصدير ماتنتجه بلادهم أو يجلبونه من السودان بعكس مالو اتجه أهالى فزان بتجارتهم إلى موانىء تونس أو الجزائر كما حدث بعد طرد الايطاليين من لوبيا وخضوع فزان للادارة الفرنسية . وهذا الانتاج المحلى لكل من طرابلس وبرقة يجد له سوقاً متبادلة تخفف من ارتفاع أسعار الحركة التجارية وارهاق السكان إذا ما استوردوا هذه الأشياء من الخارج . والبلاد فى مجموعها كوحدة اقتصادية يمكنها أن تكتفى نفسها إلى حد كبير مع الاستغناء عن كثير من الاشياء من الخارج يمكن أن نتبادلها فيما بينها . ولا عبرة بما كانت تطلبه البلاد من معونة خارجية فى العهد الايطالى إذ أن معظمها قد صرف فى تحقيق وسائل المجهود الحربى الذى كرست له إيطاليا حياتها فى البلاد واتخذت منها قاعدة لتهديد غيرها . ثم أن تلك المعونة الخارجية كان لابد منها حتى تستطيع البلاد الوقوف من جديد بعد ماحل بها من إنهاك عام بسبب الحروب والهجرة الخارجية ولنا فى هذه الاحصائية البسيطة مايرينا مدى ماانتاب البلاد من نقص فى ثروتها الحيوانية وماحل بها من خسارة بدل أن تخطو خطوات موفقة إلى الأمام بتزايد عدد حيواناتها فيكون ذلك خير سند لمالية البلاد كما أن الاحصائية ترينا المدى الذى يمكن أن تصل إليه ثروة لوبيا مع شىء من العناية والمجهود الصحيح المنظم حتى تفوق ماكانت عليه الحال فى العهد العثمانى المعروف باهماله وقلة عنايته .

---

١ The Geographical Journal, Sept.-Oct., 1945.

الإقليم	السنة	غنم وماعز	ماشيــة	جمــل	حصــان
(١) برقة	١٩١٠	١ر٢٥٩ر٣٠٠	٢٣ر٦٠٠	٨٣ر٠٠٠	٢٧ر٠٠٠
	١٩٢٣	١٢٣ر٠٠٠	٨ر٧٠٠	٨ر٦٠٠	١ر٠٠٠
(٢) طرابلس	١٩٠٢	١ر١٠٧ر٠٠٠	١٩٨ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠	٥ر٠٠٠
	١٩٢٠	٩٤٥ر٠٠٠	٤٩ر٠٠٠	٤٨ر٠٠٠	٨ر٠٠٠

لا شك أن هذه العوامل الجغرافية قد بينت لنا مدى ضرورة هذه الوحدة كما إننا إذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا العصور الذهبية لتاريخ البلاد قد تمثلت لنا عندما كانت موحدة أو أقرب الى الوحدة ونرى ذلك بصورة واضحة فى العهد القرهمانلى ولولا وحدة البلاد واستغلال مرافقها مجتمعة ما استطاع أحمد باشا القرهمانلى أن يؤسس دولة كان لها من القوة ما أرعب الدول فى حوض البحر الأبيض المتوسط وما استطاع ابناؤه من بعده أن يسيروا على هذه السياسة ويرفعوا شأن لوبيا .

. . .　　　　. . .　　　　. . .

ولا شك أن البلاد باجزائها الثلاثة تعانى أزمة خطيرة بسبب قلة السكان وهذه القلة لا تسمح بهذا التقسيم بل تنادى بضرورة التكتل والجمع بين هذه القلة المشطورة ونحن نعرف من أبسط دروس التربية الوطنية التى تعلمناها فى المدارس أن من شروط قيام أى دولة وفرة السكان بشكل كاف حتى يمكن

(١) E.E. Evans-Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica, P. 17

(٢) Department of A griculture ; Survey of land Resources in Tripolitania P. 26-27.

الحصول منهم على الدخل الذى يكفيها ويمكنها من إدارة شئون الاهالى وحتى يمكن اختيار من يصلح لادارة شئونها إذ كلما كثر العدد زادت صلاحية الاختيار وقلت مصاريف إدارة هذه الدولة والعكس بالعكس .

وإذا كانت هناك بعض الفروق الجغرافية البسيطة بين أجزاء البلاد الثلاثة أو توقف قصير فى الحوادث التاريخية الشاملة لهذه الاقاليم الثلاثة فهذا شىء لا بد منه ولا يخلو منه أى بلد آخر بل إن هذا الاختلاف البسيط ضرورى لحيوية البلاد وإن لم يوجد لعمل الأهالى على إيجاده لكى يضمنوا بقاء بلادهم وحيويتها. على أن هذه الفروق الجغرافية البسيطة بينها مهما عظمت فلن تبلغ ما نراه من فروق جغرافية واضحة بين شمالى إيطاليا وجنوبيها من حيث الأساس الجنسى وظروف الحياة والعادات وأنواع الحرف والمناخ وطبيعة التربة إلى آخره . ويكفى أن نعرف أن الإيطاليين أنفسهم يشعرون بذلك ويتحدثون به فيما بينهم بل ويتحدثون به لغيرهم من الشعوب . وكذلك الحال إذا درسنا الجغرافية العامة لفرنسا فهى فى جنوبيها تختلف عن شماليها الغربى وتختلف عن شرقيها من حيث الأساس الجنسى للسكان ومميزاتهم ومن حيث الأقاليم المناخية والنباتية وعمل السكان هناك . فبينما نجد الجزء الجنوبى من فرنسا ينتمى سكانه إلى جنس البحر الأبيض ويتمتع أيضاً بمناخ إقليم البحر الأبيض ونباته نجد سكان الجزء الشمالى الغربى ينتمون إلى الجنس الشمالى ذى القامة الطويلة ويتمتعون بمناخ إقليم شمال غربى أوربا ونباته . وكذلك نجد السكان فى الجزء الشرقى ينتمون إلى الجنس الألبى ويتمتعون بمناخ ونبات إقليم وسط أوربا . أما بريطانيا فيكفى أن نعرف أنها تضم انجلترا واسكتلندا وويلز وهى وحدات قائمة بذاتها لها شخصيتها الخاصة بها ومع كل هذا لم ينكر أحد وحدة هذه البلاد مع أن الفروق الجغرافية التى تسودها كفيلة بتمزيقها والقضاء على وحدتها . فهذه ويلز بموقعها الجغرافى المنعزل وطبيعة سطحها الجبلى وسكانها الذين يمثلون

أقدم الأجناس التى نزحت إلى الجزر البريطانية فى السابق وعقيدتهم الدينية وشهرتهم بالمحافظة عليها ولغتهم الخاصة بهم التى دفعت الحكومة البريطانية إلى تدريسها فى مدارس ويلز وتخصيص برنامج خاص للاذاعة بها. وهذه اسكتلندا بموقعها الشمالى ومميزاتها الجغرافية الخاصة وتاريخها القومى الذى يشعر به كل فرد من أبنائها رغم اندماجها فى التاج البريطانى وما حادث سرقة كنيسة وستمنستر الذى قام به بعض الشباب الجامعى من اسكتلندا إلا مظهر حى لبقاء القومية الاسكتلندية فى نفوس الشعب إلى يومنا هذا.

أين كل هذا مما نراه من وحدة الجنس والنسب واللغة والدين والعادات والتقاليد والآمال التى تربط لوبيا بأجزائها الثلاثة . لا شك أن كل هذه العوامل الجغرافية والتاريخية ستعمل على وحدة البلاد وتدعيمها وإذا كان المستر أدريان بيلت مندوب الأمم المتحدة فى لوبيا قد أدرك ضرورة هذه الوحدة للبلاد عندما قال : « إن على ليبيا، إذا أرادت أن تعيش كدولة مستقلة حل مشكلتين أساسيتين : الأولى سياسية والثانية اقتصادية، أما الأولى فتتلخص فى وجوب تعزيز الوحدة الليبية لأن الرغبة فى تحقيق هذه الوحدة ليست أمراً كافياً فى حد ذاته ، بل لابد من تضافر جميع الجهود لجعلها حقيقة سياسية صحيحة ، فقد تؤدى النزعات الشخصية فى الولايات الثلاث إلى إحداث اختلاف فى الرأى يضع الوحدة الليبية أمام تجربة قاسية... » (١) فللسياسة أن تقسم البلاد كما تشاء إلا أن مثل هذا التقسيم لن يمحو الروابط بين أجزاء البلاد وكما أن تقسيم بولندا أكثر من مرة لم ينجح إلى الآن فكذلك لن ينجح تقسيم لوبيا .

---

١ — ليبيا «من منشورات المكتب العربى ، ادارة الانباء والنشر، الامم المتحدة بنيويورك ١٩٥٢ ص١٣ .

المصـــادر

1 - E. E. Evans-Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica, "London 1949".

2 - W. B. Fisher : The Middle East, "London 1950".

3 - Handbook on Cyrenaica "by several authors, Cairo, 1944-1947".

4 - D.E.L. Haynes : A short Historical and Archaeological Introduction to Ancient Tripolitania, "Tripoli 1947".

5 - The Royal Geographical Society : The Geographical Journal, "Sept., Oct., 1945, May-June 1946".

هذا الى جانب بعض المصـــادر الأخرى التى ورد ذكرها فى هامش الكتاب .

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره
ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »

« قرآن كريم »

لوبيا والسيادة البحرية

أهمية حوض البحر الأبيض المتوسط . مكانة لوبيا فيه . صحراء لوبيا تمثل نوعاً من حضاراته المتعددة • موانىء لوبيا أقرب المنافذ لحاصلات وسط أفريقية ــ استغلال الفينيقيين لموانيء لوبيا الغربية واستفادة اللوبيين من فنهم البحرى ــ اتصال لوبيا بالاغريق وانتقال القرصنة اليها ــ النشاط البحرى للموانىء اللوبية فى عهد الرومان ــ ظهور العرب وصعوبة استيلائهم على الشمال الافريقى . التفوق البحرى للعرب الفاتحين ــ مساهمة الموانىء اللوبية فى النشاط البحرى للعرب ــ اعتذار الشمال الافريقى من القرصنة ــ أهالى شمال أفريقية يدفعون الى احتراف القرصنة للدفاع عن أسواقهم التجارية ولحماية المسلمين اللاجئين من أسبانيا ــ مجىء العثمانيين الى الشمال الافريقى ــ مساهمة موانىء لوبيا فى النشاط البحرى للعثمانيين ــ البحرية اللوبية فى العهد القرهمانلى ــ اصطدام البحرية اللوبية ببحرية الولايات المتحدة الامريكية فى عهد يوسف باشا ــ حادث السفينة فيلادلفيا ــ الحرب بين لوبيا والولايات المتحده الامريكية ــ موقف بريطانيا من البحرية اللوبية بعد الانتصار الامريكى ــ الدول الأوربية تتفق فى مؤتمر اكس لاشابل على مقاومة البحرية المغربية ــ عودة العثمانيين الى لوبيا وزوال استقلالها ومظهره البحرى ــ تنافس الدول على استغلال موقع لوبيا البحرى فى العصر الحاضر.

إذا أمعنا النظر فى مصور جغرافى لحوض البحر الأبيض المتوسط وجدنا من الممكن تقسيمه إلى عدة أحواض تتفاوت فى الاتساع باختلاف تباعد الحدود التى تحدد كل حوض منها أو تقاربها من بعضها . على أن أظهر هذه الأحواض الفرعية أو أهمها بالنسبة لموقعه من حوض البحر الأبيض المتوسط عامة هو ذلك الحوض الذى يمكن تحديده شرقاً بشبه جزيرة المورة من بلاد اليونان وجزيرة كريت والرأس البارز من شبه جزيرة برقة والذى يقع فى

طرفه الشرقى ميناء طبرق الحصين. أما من جهة الغرب فيمكن كذلك تحديده بالطرف الجنوبى الغربى لشبه جزيرة إيطاليا وجزيرة صقلية التى تكون مضيقاً يتحكم فى مدخله الغربى بالاشتراك مع رأس بون فى تونس. هذا الحوض الفرعى الأوسط بموقعه الجغرافى يتحكم فى طرق المواصلات البحرية بين نهايتى البحر الأبيض المتوسط حيث مضيق جبل طارق فى الغرب وحيث نجد فى الشرق مضيق الدردنيل ومضيق البسفور وبرزخ السويس فيما سبق وقد حلت محل الأخير الآن قناة السويس. وقد لعب حوض البحر الأبيض المتوسط وما زال يلعب دوراً هاماً فى العلاقات العالمية بحكم موقعه بين ثلاث قارات كبرى هامة وبحكم كثرة موانيه الصالحة للملاحة وهدوء مياهه بالنسبة للبحار الأخرى ولأهمية الشعوب الواقعة على سواحله فهو موطن لأهم الحضارات القديمة ومنه خرجت إلى العالم الجديد وعلى صفحات مياهه تصارعت القوى بغية الغلبة والانتصار وما من أمة نهضت أو كان لها بال إلا وصالت فيه وجالت أو كانت على الأقل على اتصال به من بعيد أو قريب وما من أمة بعيدة عنه إلا حاولت الوصول إلى شواطئه مثل ايران قديما وروسيا حديثاً.

وإذا كانت هذه النظرة العامة قد ابانت لنا أهمية حوض البحر الأبيض المتوسط ومركزه الممتاز فى العالم الدولى فلاشك أن هذه الأهمية وهذا الامتياز يكون أكثر ما يكون بالنسبة لاجزائه الوسطى أو ما يمكن أن نسميه بالحوض الأوسط فهو أشبه بالجذع فى جسم الإنسان يربط بين طرفيه. ولوبيا بموقعها الجغرافى وبساحلها البحرى الذى يمتد مسافة ١٩٠٠ كيلوا متراً تقريباً قد تحكمت فى جزء حوض البحر الأبيض المتوسط من الجنوب الأمر الذى أتاح لها أن تلعب دوراً هاماً فى تاريخه فى مختلف العصور. فهى بلا شك قد كانت على اتصال بالحضارات القديمة التى نشأت على سواحله وهى أيضا قد ساهمت فى الكثير من النشاط الذى ساده سواء أرادت أم لم ترد لأن موقعها الجغرافى وساحلها

البحرى الطويل قد حتم عليها القيام بهذا الدور .

أما لماذا لم يظهر لنا كل هذا بوضوح فى العصر الحاضر كما ظهر لنا بالنسبة لبقية البـــلاد الأخرى المطـلة عليه فإن ذلك يرجع فى الغالب إلى الظروف السياسية التى احاطت بالبلاد فى العهد الأخير وانعزالهـــا عن ميدان النشاط العلمى ولانصراف البحاث والعلماء إلى ميادين أخرى فى البلاد المجاورة لم ينتهوا منها بعد ولابد من بعض الوقت حتى يتهيأ للبلاد من بعض ابنائهـا والمولعين بالبحث النزيه من يتفرغ للقيام بهذه المهمة فى هذا الميدان البـكر .

قد يقال أن طبيعة البلاد الصحراوية الغالبة عليها قد قللت من قيمة البلاد وأهمية الدور الذى قامت به فى حضارة البحر الابيض المتوسط ولكن كثيراً من هذا القول مبالغ فيه وإن ظهر لأول وهلة للباحث المدقق أنه على جانب كبير من الصحـة . وإذا كان من المسلم به أن للعوامل الجغرافية أثراً كبيراً فى نشأة الحضارات وتـكييفها بطابع خاص كما هى الحال فى مصر حيث نجـد نهر النيل بمياهه المتدفقة الدعامة الأولى لنشأة الحضـارة المصرية وتطورها وكما هى الحال فى بلاد اليونان حيث الجزر والبحار الداخلية الهادئة قد كان لها الفضل الأكبر فى نشأة الحضارة الاغريقية وصبغها بالطابع البحرى الخاص وكما هى الحال فى ايطاليا حيث امتداد الجبال والسهول بشكل معين قد كان له الفضل الأكبر فى قيام الحضارة الرومانية واقترانها بمد الطرق بنوع معروف وبالمثل فى بقية البلاد الأخرى التى قدر لها أن تـكون موطناً لحضارة زاهرة فإن لوبيا كذلك بصحرائها قـد انفردت دون غيرها فى حوض البحر الابيض المتوسط بهذا العامل الجغرافى ممـــا جعلها صاحبة حياة من نوع خاص لا تنشأ إلا فى الصحارى سرعان ما تتخذ لها طابعاً معينا وتوضع لها الاسس والقواعد المرعية حتى تأخذ فى التطور حسب الظروف والأحوال ويساعدها على هـذا التطور ما اتصفت به حياة الصحراء من بساطة وقلة تعقيد . والزائر للصحارى حيث

مضارب البدو يجد نوعاً من المعيشة قد يعجب لها كل العجب ويجد حياة منظمة لهـا اسس ومقاييس كانت الصحراء هى العامل الأكبر فى تحـديد معالمها ورسم خططها و يصعب على الزائر جـداً أن يخلق لنفسه حياة تختلف عن هذه الحيـاة التى يشاهدها وإن استعان على ذلك بجهوده الخاصة ولـكن عليه فى نهاية الأمر أن يسير مع خطوطها العامة .

إذا فللصحراء حياة لها مظاهرها العامة ولها اسسها الخـاصة التى تنفرد بهـا وتقوم عليها مما يحتم علينا اعتبارها مظهراً آخر للحضارة التى تخيلنا معناها فى ادمغتنا وقصرناها على بعض البلاد دون غيرها أو بتعبير أدق على التفاعل الذى تحدثه العوامل الجغرافية الأخرى كالانهـار والبحار والجبـال التى لعبت دوراً كبيراً فى نشأة الحضارة الانسانية وتطورها فى بعض البلاد الأخرى. والصحراء كما نعلم عامل جغرافى آخر لا يقل أهمية عن هذه العوامل السابقة الذكـر فى تـكييف الحياة وطبعها بطابع خاص ولهذا لا بد من اعتبارها كذلك والاعتراف بتأثيرها فى الحياة وما يترتب على هذا التأثير من نتائج خاصة على أنها نوع من الحضارة كبقية العوامل الجغرافية الأخرى وتأثيراتها .

هذا إذا سلمنـــا بالطابع الصحراوى العام الذى بسببه يحاول الـكثير من البحاث اغفـال الدور الذى لعبته لوبيا فى حيـاة البحر الابيض المتوسط أو التقليل من قيمته والمرور عليه مر الـكرام إذا اقتضت الحال . ولـكن الواقع أن البلاد ليست كلها صحراء بل فيهـا من الاماكن والمساحات ما يساعـد على قيام حياة مدعمة لها اسسها وأهدافها الخاصة التى لا تقل عن مثيلاتهـا فى بعض البلاد الأخرى ومن حسن حظ البلاد ولـكى يساهم أهلها بدور فعال فى حياة البحر الابيض المتوسط نجـــد معظم هذه الاماكن السابقة الذكر قريبة من الساحل البحرى وبعضها ملاصق له مشرف عليه . وبدراسة شبه جزيرة برقة والشريط الساحلى لطرابلس وواحات الجنوب يتأكد لنا هـذا القول ويزداد

يقينا إذا علمنا أنها تشغل مساحات واسعة لا بأس بها وإن كانت قليلة بالنسبة لمساحة البلاد بأجمعها .

وهكذا قدر لحوض البحر الأبيض المتوسط أن تتكاتف كل العوامل الجغرافية من أنهار ووديان وسهول وجبال وجزر وبحار وصحار فى نشأة حضاراته وتتابعها وتنوعها بتنوع هذه العوامل الجغرافية الفعالة .

... ...

ولا شك أن اهم عامل فى هذه الغلبة الصحراوية التى بسببها أهمل البحاث أمر الاهتمام بدور لوبيا فى حوض البحر قد نشأ من هذه الفجوة البحرية الكبيرة فى ساحلها والتى تعرف باسم «خليج سرت» والتى جعلت من لوبيا تتخذ موقعاً جنوبياً بالنسبة لبقية بلاد الشمال الافريقى إذ قللت من المساحة التى تتعرض لأعاصير الرياح العسكية الجنوبية الغربية الممطرة مع تقصير فصل أمطارها فى الوقت الذى ظلت فيه مساحات واسعة عرضة للرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة معظم شهور السنة فى بعضها وهى الجهات القريبة من الساحل المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط فى حين بقيت الأجزاء الداخلية بمساحاتها الواسعة عرضة لهذه الرياح الجافة طيلة شهور السنة .

حقيقة أن هذه الفجوة الكبيرة فى ساحلها الشمالى قد جنت على البلاد من هذه الناحية المناخية ولكنها فى نفس الوقت عوضتها من ناحية أخرى إذ جعلتها أكثر اتصالا بحوض البحر الأبيض المتوسط فى ميدان خاص سادت فيه لوبيا غيرها من البلاد المجاورة التى يمكنها أن تزاحمها فهى بهذا التجويف البحرى قد أصبحت موانيها أقرب المنافذ لحاصلات أواسط افريقية دون بقية الموانىء الأخرى الواقعة على الساحل الأفريقى الشمالى وبذلك قصرت طرق الوصول إلى تجارة أواسط أفريقية فى مواطنها الأصلية فتم الاقتصاد فى الزمن وهو عامل هام بالنسبة لقيام التجارة ورواج أسواقها .

وقد تنبه الفينيقيون فى العصور القديمة لهذه الميزة ففكروا فى استغلالها وقد أحسنوا ذلك بتأسيس المحطات التجارية على الساحل اللوبى وسرعان مانمت هذه المحطات واتخذ بعضها شكل المدن وما نشأة المدن الثلاث « أويا . لبدة . صبراته » وتطورها فيما بعد إلا ثمرة هذا العامل الجغرافى وتفكير الفينيقيين فى استغلاله . وهكذا كانت لوبيا من بين البلاد الأولى التى اتصلت بالفينيقيين أساتذة البحرية ومعلمى الإغريق فيما بعد . وكان هذا الاتصال فى أساسه تجارياً يقوم على ما امتاز به الساحل اللوبى من موقع خاص بالنسبة لبقية البلاد الأخرى وكان لابد أن يكون هناك تعاون بين الفينيقيين واللوبيين بحكم تبادل المصلحة التجارية وكان لابد كذلك أن ينشأ من هذا التعاون استفادة اللوبيين من فن الملاحة الذى أتى به الفينيقيون إلى الساحل اللوبى وقد ساعد االلوبيين فى ذلك استعدادهم الخاص الذى اكتسبوه بأسفارهم عبر الصحراء الكبرى إلى أواسط أفريقية حيث موطن الثروة المنشودة . والسفر فى الصحارى قريب الشبه بالسفر فى البحار من حيث الجرأة والإقدام والاستعداد الفنى وان اختلف ميدان السفر وتنوعت وسيلته. فللصحراء وسيلة حيوانية هى الجمل وهو سفينتها وللبحار أخشاب أحكم تركيبها حتى غدت أيضاً سفينتها . وهكذا كانت روح المخاطرة والجرأة وتحمل متاعب الأسفار التى اكتسبها اللوبيون القدماء برحلاتهم جنوباً خير معين لهم على تهيئتهم للاتصال بالفينيقيين والاستفادة منهم وبالتالى على لعب دور كبير بالنسبة لعالم ذلك الوقت فى حياة البحر الأبيض المتوسط والزمن كفيل بكشف هذا الدور ومدى أهميته بعد أن تبينت خطوطه الأولى.

ثم ظهر الإغريق على مسرح حوض البحر الأبيض المتوسط كما ظهر الفينيقيون من قبلهم ولكن ظهور الإغريق فى هـــذه المرة يختلف تمام الاختلاف فى جوهره عن ظهور الفينيقيين وإن اتخذ مظهره البحرى . ظهر الفينيقيون فكانوا رسل أمن وسلام لأن المصلحة التجارية اقتضت منهم ذلك

مراعاة للفوائد التى يجنونها من النشاط التجارى الذى يستهدف للخسارة والضياع اذا ما تعرض حوض البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة ومسالكه المائية بصفة خاصة لأى اضطراب أو اعتداء . ولكن الإغريق وقد قست عليهم الطبيعية فى بلادهم الأصلية الجبلية الفقيرة وبعد أن استنفدوا وسائل مقاومتها بالهجرة إلى الخارج والانخراط فى سلك الجيوش المرتزقة احترف بعضهم اللصوصية البحرية وكان لهم فى جزرهم البحرية وبحارهم الهادئة خير مدرسة لتخريج نوع ممتاز فى هذا المضمار وقد تلقنوا مبادىء فن البحرية على أساتذتها الفينيقيين . وهكذا كان الإغريق أول من احترف القرصنة وأول من وضع لها الأساس متخذين من النشاط التجارى لسفن الفينيقيين وبقية دول البحر الأبيض هدفاً لغاراتهم ومورداً للغنائم . ومن الاغريق انتقلت هذه الحرفة إلى بقية الشعوب الأخرى التى احترفتها فيما بعد إما مضطرة بدفع رد الاساءة بمثلها وإما باستمرائها بعد أن كانت لغرض الدفاع فى أول الأمر واتخذت منها مورداً للرزق لبعض أفرادها الذين وجدوا فيها ميداناً لإظهار البطولة والجرأة إلى جانب ما تعود به عليهم من غنائم هى خير معين لهم على الحياة .

وكان لا بد أن يتصل اللوبيون بالاغريق كما اتصلوا بالفينيقيين من قبلهم بحكم الارتباط بالبحر الابيض المتوسط وإن اختلفت طريقة الاتصال فالجزء الشرقى من لوبيا والمعروف ببرقة لا يبعد كثيراً عن بلاد الاغريق الأصلية الموطن الأصلى لهذه القرصنة البحرية وكان فى طبيعة الساحل اللوبى فى هذا الجزء من حيث التعرج وقيام بعض الموانى خير مساعد على هذا الاتصال . فكان هذا الاتصال وكانت هجرة جماعات من الاغريق الى الجبل الاخضر واستيطانها فيه وكان لها فى أخشاب غاباته خير مساعد على قيام صناعة السفن والدخول بها فى ميدان القرصنة وتحويل موانيه إلى أوكار لها . كل ذلك على أنه ميدان من ميادين الرزق المباح اتيانهـا للحياة والتى رسمها الاغريق لانفسهم

وهكذا عرفت القرصنة البحرية قديماً طريقها إلى ساحل لوبيا كما عرفت طريقها أيضا الى البلاد الأخرى التى قدر لها أن تتصل بالاغريق فى العصور القديمة وإن كان الغير قد نقلها إليها واقتصر أمر الاحتراف بها على غير أهلها الأصليين بصفة عامة وإن اشتركوا فيها بحكم الحياة الجديدة وملابساتها الخاصه والاعتراف بهذه الوسيلة على أنها احدى وسائل كسب العيش فى ذلك العصر القديم .

ثم جاء الرومان وأصبحت لوبيا حلقة فى سلسلة العالم الرومانى واصطبغت بالحضارة الرومانية كغيرها من البلاد الأخرى وسرعان ما أصبحت مشعلا بدورها كبقية المشاعل التى اضاءت حوض البحر الأبيض المتوسط فى ذلك الوقت فكان لها فى لبدة وبقية المدن الساحلية الاخرى ما مكنها من ذلك الدور على أحسن ما يكون بفضل نشاط أهلها وحيويتهم الأمر الذى ساعد البلاد على انجاب شخصيات كان لها دور كبير فى هذا المضمار ويكفى أن نذكر على سبيل المثال الامبراطور سبتيميو سفيرو Septimius severus ابن مدينة لبدة وامبراطور الدولة الرومانية فيما بعد والمؤسس لأسرة تناوب أفرادها من بعده عرش روما بعد أن مكن بجهوده الشخصية من سيادتها على حوض البحر الابيض المتوسط وما ورائه إلي الجزر البريطانية .

وكانت موانى لوبيا كغيرها من موانى الامبراطورية الرومانية فى ذلك الوقت فى حركة مستمرة تقصدها السفن محملة بالبضائع وتقلع منها بحاصلات البلاد وما أضيف إليها من ثروة وسط افريقية . وكانت لبدة فى هذه الناحية قد ضربت بسهم وافر وأصبح منار مينائها هدف ربابنة السفن ومعينا لهم على السفر يسترشدون به فى وسط البحر إذا التبس عليهم الأمر . وإذا كان الضعف قد انتاب أحيانا هذه السيادة فى فترات متقطعة من العهد الرومانى فإن ذلك كان لضعف عام أصاب الامبراطورية الرومانية لم تسلم منه روما نفسها وهى المحرك الأول لهذه الامبراطورية فى ذلك العهد . على أن هذا الضعف سرعان

ما زال وعادت المــوانى اللوبية إلى نشاطها البحرى التجارى المعهود عندما تجددت دماء الامبراطورية بظهور القسطنطينية كعاصمة للدولة الرومانية الشرقية لا سيما فى عهد الامبراطور جستنيان . وهكذا نجح الرومان الى حـد كبير فى تتبع النشاط الفينيقى فى لوبيا وما محاولاتهم المتعددة للوصول الى وسط افريقية وإعداد الحملات الحربية لتحقيق هذا الغرض إلا مظهر واضح لهذا التتبع وإن لم ينجحوا نهائيا لاصطباغ هذه المحاولات بصبغة السيادة وفرض السيطرة على الجهات الداخلية الأمر الذى لم يتعوده الاهالى من قبل ولم يأت به الفينيقيون فى السابق .

. . .　　　. . .　　　. . .

ثم ظهر العرب على مسرح السياسة العالمية فى القرن السابع الميــلادى بظهور الاسلام وأخذت طرقاتهم تدق معالم امبراطوريتين متداعيتين احداهما قد تمثلت فيها القوة البرية بجلاء وهى الامبراطورية الفارسيـة والأخرى وهى الامبراطورية الرومانية الشرقية وقد ملـكت من القوة البحرية ما ساعـدها على الاحتفاظ بسيادتها على الممالك الواقعـة فيما وراء البحـار وما جعل العرب يسمون البحر الابيض المتوسط فى ذلك الوقت ببحر الروم . وإذا كان العرب قد استطاعوا القضاء على الامبراطورية الفارسية بسرعة خارقة فى عهد خلافة عمر بن الخطاب حتى إنه لم ينته عهد الخلفاء الراشدين إلا وكانت الجيوش العربية قد تعدتها إلى الشرق منها فإنهم قد وجدوا مقاومة كبيرة وصعوبات متعددة فى سبيل الاستيلاء على الشمال الافريقى بعد أن تم لهم الاستيلاء على بلاد الشام ومصر . وكان هـــذا التطويل الذى انتـاب المجهود الحربى للعرب فى الشمال الافريقى مثار بحث وتعليل وقد حاول المؤرخون ارجاعه الى عـــدة أسباب وجيهة يمـكن للعقل أن يسلم بها ولـكن دون أن يقتنع تماما . قالوا مثلا أن العرب قد وجدوا فى هذا الميدان الافريقى شعباً عنيـداً مستميتا فى الدفاع

عن بلاده ضد الاجنبي الغاصب وأنه بطبيعته لا يرضخ لأى قوة كانت أمامه ولكن من منا يستطيع تجريد الشعب الفارسي من هذه الصفة والتاريخ في مراحله القديمة والحديثة يذكر لنا جهاده ومدى تغلغل روح المقاومة فى نفوس بنيه وكيف كان مصير من حاول قهره أو المس من حريته. قالوا أيضا أن طبيعة بلاد الشمال الافريقى بجبالها ووديانها وصحاريها كانت خير معين للبربر على نضالهم ضد العرب الفاتحين ولذا لم يستطيع العرب التغلب عليهم والاستيلاء على بلادهم ولكن أيضا من منا يجهل طبيعة بلاد فارس فإن كانت المسأله مسألة جبال ووديان وصحار فايران أعلى جبالا وأعمق وديانا وأقسى صحارى بالمقارنة بالشريط الساحلى للشمال الافريقى الذى سارت فيه الجيوش العربية الفاتحة. قالوا ايضا أن الجنود الذين قابلهم العرب فى شمالى افريقية كانوا كثيرى العدد ولكن أيضا من منا يستطيع التقليل من كثرة جند الفرس وجحافلهم المتلاحقة فى ذلك العهد.

الحقيقة التى لاغبار عليها أن كل التعليلات السابقة وجيهة ويمكن للعقل أن يسلم بها لولا هذه المقارنة ومع هذا فالانسان لايمكن أن يقلل من قيمتها ولكن أيضاً لايسلم بأن تكون كافية لتعليل ماعاناه العرب من مصاعب فى فتح بلاد الشمال الأفريقى الأمر الذى ترتب عليه تخصيص زمن أطول بالنسبة لبقية الأقطار الأخرى التى فتحها العرب. أما السبب الرئيسى والذى يجب أن يكون فى مقدمة الأسباب والممهد للتعليلات الاخرى إذا أردنا أن نلحقها به فهو أن العرب كانوا فى نشأتهم الأولى أمة برية لم يمارسوا البحر بل جهلوا معالمه فلما تقابلوا مع غيرهم كانت لهم الغلبة والانتصار فى الفن الحربى الذى عرفوه فأتقنوه وهذا مارأيناه فى مملكة فارس وبلاد الشام الملاصقة ومصر المجاورة. أما القتال فى الشمال الافريقى فيستدعى أمره سلاحاً آخر لم يكن العرب قد اهتدوا إليه حتى ذلك الوقت بحكم نشأتهم البرية وهو السلاح البحرى وإعداد

القوات البحرية ٠كان العرب فى حربهم فى شمالى أفريقية كلما أخضعوا جزءاً من البلاد أتى المدد من البحر إلى عدوهم وقد حملته السفن وقطع خط الرجعة على جيوشهم المتقدمة وعزلهم عن مؤخرة جيوشهم حيث الامدادات اللازمة فسرعان ما تحل بهم الهزيمة أمام أى هجوم مضـــاد أو ثورة محلية وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية قد عرفت كيف تستغل هذا التفوق البحرى فى السلاح بعد أن ضاع منها الشام ومصر فكان لها النصر فى الجولات الأولى قبل اهتداء العرب إلى معرفة القتال البحرى ووسائله . والزائر لمدينة درنة الواقعة فى الشطر الشرقى من البلاد تلفت نظره قبور أولئك الشهداء من العرب الأوائل الفاتحين الذين حاولوا التقهقر بعد أن حلت بهم الهزيمة ولكن اسطول العدو البحرى قطع عليهم خط الرجعة وأنزل بهم الهلاك فكان مصيرهم الاستشهاد كما استشهد غيرهم فى أماكن أخرى .

جهل العرب فى نشأتهم الاولى البحر فعادوه وتجنبوا ركوبه فكانت المعركة فى غير صالحهم ولكن من حسن حظ العرب أن جهلهم هذا لم يدم طويلا إذ أنهم سرعان ما تنبهوا إلى خطأ فكرتهم الاولى فلم ينته عهد خليفتهم الثالث عثمان بن عفان حتى كان للعرب اسطول بحرى قوى استطاعوا به الوقوف فى الميدان والحاق الهزيمة بالعدو وإحراز النصر تلو النصر وهكذا وضعوا لانفسهم أساس السيادة البحرية العربية فى حوض بحر الروم وكانت موقعة « ذات السوارى » التى اشتقت اسمها من كثرة سوارى السفن المشتركة فيها اللبنة الاولى فى الانتصارات البحرية التى أحرزها العرب فيما بعد وسرعان ما تبعها مهاجمة العرب لجزيرة قبرص وجزيرة رودس بقواتهم البحرية .

كانت هذه الانتصارات البحرية للعرب فى بداية عهدهم بالبحر خير مشجع لهم فاندفعوا فى هذا التيار وأنشأوا دور الصناعة للسفن فى موانىء الشام ومصر وكانوا كلما أتموا فتح جزء من بلاد الشمال الافريقى عززوا ذلك بأسطولهم

وأسرعوا فى تشييد دور الصناعة لسفنهم وقد لعب ميناء طرابلس وبقية موانىء الساحل الافريقى الذى تم الاستيلاء عليها فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان دوراً هاماً فى تكوين الاسطول البحرى العربى وتزويده بالملجأ الامين والزاد إذا احتاج مما عجل بأمر الاستيلاء على الشمال الافريقى ولم يأت أواخر القرن الاول الهجرى حتى رأينا الجنود العربية فى عهد خلافة الوليد بن عبد الملك تركب البحر وتغزو شبه جزيرة ايبيريا بقوة بحرية منظمة محكمة دلت على براعة فائقة فى هذا المضمار ساهم فى تكوينها وتسييرها كل بلاد الشمال الافريقى بعد أن تم دخولها فى الدين الاسلامى .

ومنذ ذلك التاريخ أخذ ولاة الشمال الافريقى يحافظون على أن يكون لهم أسطول بحرى قوى للدفاع عن الساحل ضد أى هجوم مضاد يقوم به العدو وليصلهم بالبلاد التى فتحوها ولاستخدامه من جديد فى الاستيلاء على جزر البحر الابيض المتوسط حتى إذا ما أقام الاغالبة دولتهم فى تونس انصرفوا إلى بناء أسطول بحرى قوى للقيام بفتح جزيرة صقلية والاغارة على بقية جزر البحر الابيض المتوسط وقد ساهمت طرابلس نفسها فى هذه الاغارات إذ كانت بمثابة إحدى المحطات التى تقوم منها وتلجأ إليها سفن الاغالبة. وكثيراً ما تعرضت جزيرة مالطة بالذات لغارات سفن الاغالبة التى اتخذت لها من طرابلس قاعدة لقربها كما حدث فى سنة ٢٥٥ هـ عندما هاجمها أبو الغرانيق محمد بن أحمد ابن الاغلب .

ولما أعلن الخلفاء الفاطميون الحرب البحرية على الدولة الاموية فى الاندلس كانت طرابلس قد اشتركت كبقية موانىء الدولة الفاطمية فى إعداد السفن اللازمة لتكوين الاسطول الفاطمى لهذه الحرب . وهكذا كان دورها فى بقية النشاط البحرى الذى قامت به الدويلات الاسلامية للشمال الافريقى بحكم تبعيتها والانخراط فى سلك العالم الاسلامى .

... ...

وجدير بنا أن نذكر أن هذه القوة البحرية الاسلامية للشمال الافريقى لم تكن عاملا من عوامل الازعاج واثارة الرعب والفوضى فى مياه البحر الأبيض المتوسط او ما يذهب إليه الكثير من الكتاب من فهم معنى كلمة « القرصنة » التى حاولوا الصاقها بشعوب شمالى افريقية وفى مقدمتهم أهالى لوبيا. ويؤيد هذا القول ماكانت عليه العلاقات الودية بين ولاة الساحل الافريقى وحكام المدن التجارية من الساحل الأوربى المسيحى المقابل اذا استعرضنا المعاهدات التى عقدت بين الطرفين فى ذلك الوقت والتى تم الاتفاق فيها على القضاء على القرصنة وتشجيع التجارة المتبادلة بقدر المستطاع (١). فهذه بيزا Pisa وجنوا Genoa واراجون Aragon والبندقية Venice كل منها قد عقد معاهدة تجارية مع ولاة افريقية وكانت كلها تعمل على تجديدها عند انتهاء اجلها لأن التجارة الافريقية كانت شيئاً هاماً جداً بالنسبة لشعوب أوربا خصوصاً لأهالى هذه المدن الذين احترفوها وبنوا عليها معيشتهم ويؤيد هذا القول قيام الشركات التجارية المنظمة بتجارتها الخاصة وفنادقها فى كل من موانى طربلس وتونس وبجاية وسلا بل ذهبت العلاقة التجارية بأهالى جنوا إلى أبعد من هذا الحد وهو القيام بالدفاع عن مدينة Ceuta فى شمالى افريقية ضد الصليبيين من المسيحيين ابان الحروب الصليبية وما كان لأهل جنوا أن يفعلوا ذلك مالم يتأكدوا من الروح الطيبة لمسلمى شمالى افريقية نحوهم . وهكذا كان للتجارة وتبادلها الأثر الفعال فى تخفيف وطأة العداوة الدينية بين أهالى شمال افريقية وشعوب جنوبى أوربا المسيحيين بل ذهب التسامح بالمسلمين وتأكيدهم للنوايا الطيبة نحو المسيحيين إلى السماح لهم بحرية التعبد واقامة الكنائس الخاصة بهم دون أى إزعاج ويؤكد ذلك ما رواه الرحالة البكرى فى وصفه لمدينة اجدابيا فى لوبيا فى القرن الحادى عشر الميلادى أذ يقول « وأهلها ذو يسار اكثرهم

1 — Lane-Poole : The Barbary Corsairs : P.T. 7

اقباط . . . » (١) وبالمثل عند كلامه عن مدينة طرابلس الغرب فيقول « . . وبطرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود وحولها اقباط فى ذى البربر كلامهم بالقبطية . . . » بل نحن نقرأ عن اسقفية فاس المسيحية حتى القرن الثالث عشر الميلادى وهناك مايؤكد لنا العلاقات الطيبة القائمة انذاك بين ولاة تونس ومراكش من جهة والبابا من جهة اخرى . (٢) بل ان كثيراً من المسيحيين قد انخرطوا فى الجيوش الافريقية وكانوا كذلك يتولون المناصب المدنية العالية . وخلاصة القول أن علاقة ولاة الشمال الافريقى مع الممالك الأروبية خلال معظم الفترة فيما بين القرن الحادى عشر والقرن الخامس عشر كانت طيبة للغاية تسودها الحكمة ويدبرها العقل وتسيرها حاجة أهالى الشمال الافريقى للكثير من الصناعات الأوربية واحتياج الشعوب الأوربية المسيحية للمواد الخام التى تصدرها موانى الساحل الافريقى وفى مقدمتها طرابلس بعد أن تأتى بها من وسط افريقية .

لهذا كانت القرصنة كما يفهمها بعض الكتاب وكما يريدون الصاقها بمسلمى الشمال الافريقى أمراً ممنوعاً فى كل المعاهدات التجارية التى عقدها ولاة هذا الجزء من العالم الاسلامى . ومع قيام هذه المعاهدات وسريان مفعولها فان الاستاذ لين بول فى كتابه عن قراصنة المغرب يؤكد لنا بأن القرصنة لم تنقطع بتاتاً وإن ارتكابها كان من الجانب المسيحى (٣) ويوضح لنا ذلك بما كان يقوم به أهالى اليونان وسردينيا ومالطه وجنوا نفسها من محاولة التحرر من تنفيذ ارتباطات الاتفاقيات التى نصت على مقاومة القرصنة بل يذهب الاستاذ لين بول فى كتابه الى أبعد من هذا ويذكر لنا أنه من بين المسيحيين انفسهم كان

---

١) — البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب . ص ٥ (طبعة الجزائر سنة ١٨٥٧ م)

2 — Lane-Poole: The Barbary Corsairs, P.T. 22

3 — " " " " " " P.T. 24

القراصنة الرئيسيون فى البحر الأبيض المتوسط حتى القرن الرابع عشر الميلادى وقد احترفوا التعامل بكثرة فى البضائع المسروقة والعبيد. (١)

هذا قليل من كثير يدعم براءة الشمال الافريقى من تهمة القرصنة لأنها حرفة غريبة عنه بحكم نشأتها وبحكم تعاليم دينه وقد سبق أن عرفنا كيف أنها كانت للاغريق فهم أول من احترفها وعنهم انتقلت إلى غيرهم حيث وجدت الترحيب والتشجيع بالاحتراف بها وليس أدل على هذا القول من أن فرسان الاسبتارية Hospitallers الذين بدأت نشأتهم الأولى فى بيت المقدس كمظهر للحركة الدينية الصليبية والذين انتقلوا إلى جزيرة رودس بعد أن طردهم العثمانيون فى سنة ١٤٠٣م من مدينة أزمير قد أسرعوا فى تحصين جزيرتهم الجديدة واتخذوا منها وسيلة لتهديد التجارة فيما بين مدينة الاسكندرية ومدينة القسطنطينية ثم سرعان ما وسعوا ميدان نشاطهم القرصنى فشملوا جميع السفن المارة بمياه جزيرتهم دون تمييز حتى أصبحوا القراصنة المسيحيين للشرق مستغلين أخشاب غابات قرمانيا Caramania فى آسيا الصغرى لتزويدهم بالسفن وشعوب السواحل المجاورة لمدهم بالعبيد المأسورين لتسييرها . وقد عانت جميع السفن باختلاف أنواعها وفى مقدمتها المسيحية الكثير من اعتداءاتهم حتى أن جمهورية البندقية قد نظرت بعين الارتياح فى سنة ١٨٤٠م عندما أرسل سلطان العثمانيين محمد الثانى قوة كبيرة لتأديبهم والحد من نشاطهم القرصنى الذى أساء إلى تجارة البحر الأبيض كما أساء إلى تعاليم الدين المسيحى لأنهم لم يفرقوا بين السفن وتبعيتها وفى ذلك من معنى اللصوصية ما يدفع إلى وصفهم بالقرصنة دون تردد .

هكذا ظلت القرصنة غريبة عن أهالى شمالى افريقية ومن بينهم اللوبيون

---

1 — Lane-Poole: The Barbary Corsairs, P.T. 25, up to the fourteenth Century the Christians were the chief pirates of the Medititessanean, and dealt largly in stolen goods and slaves„

وظل الولاة يدفعون شرها عن بلادهم بكل ما أوتوا من وســـائل إلى أن أجبروا عليها اجباراً بحكم الظروف والأحوال التى جدت فلم يجـدوا مناصاً من المساهمة فى ميدانها ومع هذا فقد زاولوها بشكل خاص وفى حدود معينة الأمر الذى لا نستطيع معه إن نلصقها بهم .

وكانت أول هذه العوامل التى أجبرتهم على مزاولة «القرصنة» هى الرغبة فى الدفاع عن سفنهم التجارية بعد أن فشلت كل الطرق الأخرى المشروعة فى تحقيق هـذا الدفاع كعقد المعاهدات وتحسين العلاقات وتفويت الاعتداء أكثر من مرة ولكن النفس اللئيمة لا يزيدها الإحسان إلا غياً فركبت رؤسها ورأت فى هـذا التسامح ضعفاً وأسرفت فى عملها ولم تعرف له حدوداً عندئذ وجد المغاربة أن خير وسيلة لحماية تجارتهم ومصالحهم البحرية إلى جانب المحافظة على كرامتهم وكرامة الشعوب التى يحكمونها هى رد الاساءة بمثلها . بل رد الصفعة بأقوى منها وعندئذ فقط بدأنا نسمع باعتداء المغـــاربة على السفن المسيحية ولـكنه كان اعتـداء من النوع المشروع ومن النوع الشريف الذى يحـدد معالم خطوطه حتى لا يؤاخذ صاحبه عليه إذا وجه الغير اليه الملام أو عرضه للحساب وكان هذا السلوك الايجابى لابد منه فى الوقت الذى أخذ فيه النشاط التجارى فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى الازدياد بعد القرن الرابع عشر وبدأ العدو يشعر بالغلبة عليه فى هذا الميدان أمام المسلمين. وإذا كان الاستاذ بوفيل(١)

E. W. Bovill Carvavans of the old Sahara, an introducton to the history of the Western Sudan, P. 123:—

"If Christians seem more often to have been the victimas than the authors of piracy, it is because their Coasts were less easily defended, becanse their trade was greater and therefore more vulenerable and because their history is better than that of the Arabs."

Bovill قد حاول فى كتابه تعليل هذه الغلبة بأسباب تراءت له حصرها فى أمر صعوبة الدفاع عن سواحل المسيحيين وكثرة تجارتهم بالنسبة لتجارة المسلمين الأمر الذى عرضها أكثر للتعدى فضلا عن أن تاريخ المسيحيين أحسن من تاريخ العرب فإن تعليله هذا هزيل وقوله ضعيف مردود عليه إذ فيه تعد على الحقائق ومغالطة صريحة مكشوفة. أما القول بصعوبة الدفاع عن السواحل المسيحية فهذا ربما نسلم به ولكن من منا يستطيع تسهيل هذه المهمة بالنسبة لسواحل الشمال الافريقى عامة وساحل لوبيا خاصة وهى الطويلة بامتدادها المكشوف فى أكثر جهاتها بعكس الحال فى السواحل الجنوبية لأوربا حيث سلاسل الجبال المشرفة على السواحل وحيث الجزر البحرية القريبة الأمر الذى يساعد أكثر على تسهيل الدفاع وسهولة التنقل فى أمن وسلام. وإذا كانت تجارة المسيحيين كذلك أكثر من تجارة المسلمين فهذا شىء مسلم به أيضاً ولكنه شىء نسبى يتمشى مع عدد دول كل من الجانبين وللتجارة المسيحية فى كثرة دولها وتعدد شعوبها ما يساعد على كثرتها وبالتالى أمر الدفاع عنها أمام البحرية الاسلامية ذات الموارد المحدودة والشعوب القليلة بالنسبة لأعدائها. أما أن تاريخ المسيحيين أحسن من تاريخ العرب فهذا هو التجنى بعينه والمغالطة الصريحة المفضوحة إن دلت على شىء فإنما تدل على التعصب الأعمى والجهل بالحقائق المسلم بها من الجميع وعلى رأسهم مؤرخو الإفرنج(١)

ثم جد عامل ثان كان له أكبر الأثر فى نفوس المسلمين عامة ومسلمى

---

١ — ليس هناك أحسن من الرد على هذا القول من ذكر بعض الفقرات من كتاب «العرب» للدكتور فيليب حتى «بيروت ١٩٤٦» حيث يقول «وليس من شعب آخر قام فى القرون الوسطى بما قام به العرب فى سبيل تقدم البشرية (ونحن هنا لا نطلق كلمة =

الشمال الافريقى خاصة وكان أكبر مشجع للمغاربة على مزاولة القرصنة بشكل واضح . هذا العامل الجديد هو طرد المسلمين من الاندلس على يد الاسبان وما اقترن به هذا الحادث من أهوال ومصائب انزلها المسيحيون بالمسلمين المسالمين دون مراعاة لما قاموا به فى ميدان الحضارة فى الوقت الذى كانت فيه شعوب أوربا تعيش فى دياجير الظلام والوحشية وفى الوقت الذى كانت فيه اشعة الحضارة قد أتخذت لها من قرطبة وغرناطه واشبيلية وبقية بلاد الاندلس مصابيح لاضاءة الطريق أمام هؤلاء القوم وتعريفهم بالحياة على أصولها . وياليت الاسبان وقف عملهم عند حد اخراج المسلمين من شبه جزيرتهم ومحاولة طمس معالم حضارتهم هناك وانزال العذاب الأليم بمن بقى من المسلمين مغلوباً على أمره وما محاكم التفتيش التى يذكرها لنا التاريخ إلا صورة مصغرة لما عانوه ولكن نشوة النصر دفعت بالاسبان الى تتبع المسلمين وقد لجأوا الى الشمال الافريقى فحاولوا بالاشتراك مع اخوانهم من سكان جنوبى أوربا أن يجربوا طريقتهم هذه الجديدة فى أبادة الشعوب فى البلاد المقابلة لهم والتى لا يفصلهم عنهـا إلا البحر الابيض المتوسط. وكان من الصعب على المسلمين وقد اضطروا إلى ترك بلادهم فجأة دون سابق انذار وبطريقة وحشية أن ينسوا وطنهم الأول بعد أن اقاموا فيه ما يقرب من سبعة قرون وبعد أن

= عرب على أبناء الجزيرة العربية فحسب بل على سائر الشعوب التى اتخذت العربية لساناً) فبينما كان فلاسفة العرب مكبين على دراسة تآليف ارسطو كان شرلمان ورجال بطانته يحاولون احمال كتابة اسمائهم وبينما كان علماء العرب فى قرطبة يترددون على خزائن كتبها السبع عشرة (ومنها خزائن حوت ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد ويعودون إلى بيوتهم فينعمون بالاستحمام فى حمامات بلغت الغاية فى النظافة والاناقة كان الاساتذة والتلامذة فى جامعة اكسفورد يستنكرون الاستحمام ويحسبونه من ملذات العيش الشهوانية التى يجب الترفع عنها» ص٩ .

شيدوا حضارة مدعمة تركوا معالمها بعد اليأس من انقاذها. وكانت الطريقة التى تمت بها عملية جلاء المسلمين عن اسبانيا كفيلة بتمزيق العائلات وتشتيت أفرادها بل ترك عدد كبير منها فى حالة تنتظر الانقاذ السريع ومد يد المعونة العاجلة ولهذا وبعد أن وجد اللاجئون مايؤمنهم على حياتهم فى الشمال الافريقى اخذوا يعدون العدة للتسلل ليلا وكلما واتتهم الفرصة إلى وطنهم الأول لانقاذ من تبقى من أفرادهم بسفن احسنوا اعدادها لهذا الغرض. ومن هنا جاءت البذرة الأولى للقرصنة اذ أن كثيراً ما كانت روح الانتقام وهم المعتدى عليهم ما تدفعهم إلى إتيان أعمال انتقامية وهم فى الطريق وقد نظر الغير إلى هذه الأعمال على أنها قرصنة بحرية مع أنهم أبرياء منها لأنهم لم يعملوا أكثر مما يجب أن يعمله أى شخص آخر فى مكانهم. كانت مقابلة المسلمين الفارين وقد قل عددهم للاسبان من جديد فى ميدان القتال المفتوح أمراً غير ممكن ولكنهم بهذه الطريقة وبواسطة سفنهم الناشئة ومعرفتهم للشواطىء الاسبانية استطاعوا أن يجدوا فرصة لرد بعض ما لحق بهم من هوان على يد الاسبان(١). وأمام هذه الكارثة التى حلت بالمسلمين فى الاندلس والتى بدأ شبحها يلاحق اخوانهم فى الشمال الافريقى لم يجد ولاة بلاد المغرب وعلى رأسهم بنو حفص الذين أحسنوا معاملة من أقام عندهم من المسيحيين بدأ من ضرورة المساهمة فى الدفاع عن هؤلاء اللاجئين بحكم العاطفة الإنسانية أولا وبحكم ما يرتبطون به معهم من رابطة دينية دفعت الغير إلى محاولة تحطيمها فى تحطيم كيان وطنهم وما شيدوه من حضارة. وكان على هؤلاء الولاة

1— Lane-Poole, Tho Barbary Corsairs, P. 8:—

"No sooner were the banished Moors fairly settled in their new seats than they did what anybody in their placc would have done. They carried the war into their oppressor's country."

أيضاً أن يجاروا الشعور العام لشعوبهم بالوقوف إلى جانب اللاجئين . لهذا ثارت ثائرة البلاد الجنوبية لاوربا وحلت نقمة أهلهـا على هؤلاء الولاة وشعوبهم لأنهم حموا هؤلاء اللاجئين وأنزلوهم بديارهم وهـدأوا من روعهم وحاولوا تعويضهم ما فقدوه من أمن وطمأنينة فناصبوهم العداء وشملوهم بالعدوان ونسوا أن أهـالى شمالى افريقية لم يعملوا أكثر مما يحتمه عليهم الضمير الإنسانى وهم المعروفون بحسن الضيافة وكرم الملاقاة واغاثة الملهوف لا مع المسلمين فقط بل مع غيرهم كما تشهد بذلك حوادث التاريخ ومعاملتهم الحسنة لمن أقام معهم من المسيحيين كما سبق تبيينه .

وهكذا نشأت العداوة بين بلاد الشمال الافريقى وبلاد جنوبى أوربا بصورة عامة إلى جانب ما سببه العامل الأول من استعداد لنشأة هذه العداوة . وكان من الطبيعى والبحر هو الفاصل بينهما أن يكون هذا البحر مسرحاً للحرب فأخذ كل منهما يعد العدة للقتال ويتفنن فى وسائله ويتحين فرصه وكان من الطبيعى أيضاً أن يقترن هذا القتال بأعمال قد تبدو غير انسانية إذا نظرنا إليها دون فحص وتدقيق ودون فهم لأسبابها وملابساتها . وإذا كان المغاربة قد ارتكبوا فى هذا القتال من الأعمال ما لا يرضاه الإنسان فقد ارتكب أعداؤهم أضعاف أضعافه وما من ساحل حلوا به أو ميناء احتلوه إلا كان عرضة لمثل هذه الأعمال . بل هناك ما يؤكد لنا أن أهالى شمالى افريقية كانوا أخف وطأة فى هذه الناحية بدليل ما يذكره لنا الأستاذ Lane-Poole من أن كثيراً من العبيد الذين كان المسلمون يأسرونهم فى غزواتهم لجزر البحر الأبيض المتوسط والسواحل الجنوبية الأوربيـة يرفضون تحرير أنفسهم من طريق المكاتبة ويفضلون حياة الأسر فى شمالى افريقية على العودة إلى بلادهم الأصلية حيث تنتظرهم الفاقة والمعاملة السيئة القاسية من الحكام(١)

١ — Lane-Poole: The Barbary Corsaires, P. 244.

وكان أكبر مشجع للأوربيين فى سلوكهم العدوانى ماكانوا يشعرون به من حمية فى اسبانيا وقد ظهرت كدولة للوجود فى ذلك الوقت ونما عودها وتطور شأنها بطرد العرب من الاندلس وبالاستكشافات البحرية وتأسيس الامبراطورية فى العالم الجديد وبالسيادة البحرية فى غربى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وبينما كان الصراع حامياً بين دول جنوبى أوربا من ناحيــة وبلاد الشمال الافريقى من ناحية اخرى إذ بعامل جديد ثالث يعمل على تقوية هذا الصراع ويكسب القرصنة البحرية طابعاً خاصاً ذلك هو التوسع العثمانى فى شرقى البحر الأبيض المتوسط واستيلاء الأتراك على القسطنطينية . أحدثت هذه الظروف الجديدة شيئا من التوازن بين القوتين المسيحية والاسلامية فى حوض البحر الابيض المتوسط بعد أن كادت الاولى تنجح فى بسط سيادتها البحرية . وكانت طرابلس المدينة التى قدر لها أن تخضع لفترة قصيرة للسيادة الاسبانية البحرية فى أول الأمر سرعان ماتنــازل عنها الأسبان لفرسان القديس يوحنــا فى جزيرة مالطة .

وإذا كان بعض أهــالى مدينة طرابلس الغــرب الذين فروا من تعسف الاسبان والتجأوا إلى ناحية تاجوراء فى شرقى هذه المدينــة قد أرسلوا وفداً للخلافة العثمانية لطلب النجدة وانتشالهم من الحكم الاسبانى فإن مجىء الاتراك إلى الساحل اللوبى كان لا بد منه لتدعيم حركة نضالهم مع الاعداء فى البحر الابيض المتوسط (٢) من أجل السيادة عليه وانتزاعهــا من الأسبــان وقد نجحــوا فى مشروعهم هذا بل نجحوا فى جعل موانى لوبيا وفى مقدمتها طرابلس قاعدة لأعمالهم الحربية البحرية ضد سواحل جنوبى أوربا لاسيما شبه الجزيرة الايطاليــة وما يحيط بها من جزر . وكان جــل نشاط الولاة الاتراك الذين تعينــوا فى اوائل

---

(١) بيو : المجمل فى تاريخ لوبيا . ص ٩٣

الحكم العثمانى مقصوراً على هذه الناحية وعلى رأسهم درغوت باشا الذى خلد اسمه بين اسماء الشهداء بأعماله البحرية واستشهاده فى الهجوم على جزيرة مالطة. وقد رد للساحل اللوبى أمنه وانزل الرعب فى قلوب من حاولوا الاعتداء عليه أكثر من مرة.

وهكذا كان على بلاد الشمال الافريقى ومن بينها لوبيا أن تقف إلى جوار الأتراك فى نضالهم مع الأسبان الذين سبق لهم أن ارادوا تحطيم الشمال الافريقى بسبب العقيدة الاسلامية وقد رأى المغاربة فى العثمانيين خير غوث لهم فضلا عن تقبلهم الغوث عن رضا بسبب هذه العقيدة التى تقرب بين الطرفين. واستمدت البحرية العثمانية الجيدة من الحماسة التى قابلهم بها المغاربة فى هذا الميدان الجديد حماسة واندفاعا مما اظهرها فى صورة الشدة والعنف واستطاعت بذلك أن ترصد قراصنة المسيحيين فى اعشاشهم وتشل حركاتهم لمدة طويلة.

وخلاصة القول أن هذا النشاط البحرى الذى سماه الغير «قرصنة» ماهو إلا نوع من الحرب الدينية من ناحية ودفاع عن الأوطان من ناحية أخرى. هو نوع من الجهاد وقد فرضه الاسلام على أهله وأعتبر شهيداً من مات فى سبيل الذود عن العالم الاسلامى بل كان المسلمون يرون الهجوم فرضاً كلما خافوا عدواً على ثغورهم ولم يفعل اللوبيون أكثر مما فعله سكان جنوبى أوربا اذ قد عانت السواحل اللوبية الكثير من غاراتهم وهكذا نهض اللوبيون وجعلوا موانيهم أوكارا للقرصنة تتحين الفرص المناسبة للايقاع بفريستها. ولو كان الغرض من هذه الاغارات القرصنة كما يقول الأوربيون لشملت السفن التجارية الاسلامية أيضا ولكن الواقع أنها اقتصرت على السفن المسيحية دون غيرها لأن الجهاد كان الغرض الرئيسى لها (١) بعكس مانلاحظه اذا درسنا نشاط

---

(١) بميو : المجمل فى تاريخ لوبيا ص ٩٣

البحرية للطرف الآخر إذ أننا نجدها لاتميز بين السفن التى تكون هدفا لهجومها وفى نشاط بحرية قرصان الاسبتارية مثلا مايثبت انا ذلك وهم الذين بنوا نظام هيئتهم على اهداف دينية مسيحية ونصبوا من انفسهم حماة للدين المسيحى واتباعه . بل كان الأوربيون عامة يهاجمون بعضهم بعضا دون تمييز فى ذلك بين دين أو جنس بل إن كثيرا من الدول المسيحية قد حالفت الدول الاسلامية على بنى جنسها ولنا فى التحالف الذى قام بين العثمانيين والفرنسيين مايؤيد هذا بل نحن إذا راجعنا تاريخ الانجليز أنفسهم فى ذلك الوقت لظهروا لناقراصنة أو أو مايشبه القراصنة وتاريخ كبار الملاحين الانجليز كما رواه لنا « فرود » Froude يثبت لنا أن القرصنة كانت الأساس الأول لنشأة البحرية الانجليزية فيما بعد (١).

... ...

هذه هى أهم العوامل التى جاءت بالقرصنة إلى الشمال الأفريقى ودفعت بأهله إلى مزاولتها مرغمين وإذا كان البحارة الذين تولوا مهمة تسيير السفن من العبيد الذين سبق اسرهم من الشواطىء المسيحية يلقون بعض العذاب والشدة وهم يدفعون السفن اللوبية بسواعدهم وصدورهم بل وبكل عضو فيهم فإنهم قد تعودوا مثل هذه المعاملة فى السابق قبل أن يأتوا الى طرابلس اذ كان اخوانهم المسيحيون يستخدمونهم فى السابق بهذا الشكل دون أى فرق فى المعاملة. وكانت ترسانة طرابلس لاتكف عن العمل ليل نهار لتزويد الاسطول بأكبر عدد من السفن وكان يقوم أيضا بصناعتها عمال مسيحيون أو من أصل مسيحى انخرطوا فى سلك البحرية اللوبية كل ذلك فى مقابل أجور يومية منظمة مع صرف مقدار معين من الخبز اليومى اسوة بنظام الجندية فى عسكر البلاد ونحو ذلك أيضا نظام

(١) Froude. English seamen.

الجندية البحرية فى العصر الحديث .

وهكذا كانت هذه السفن تبنى بواسطة صناع مسيحيين أو من أصل مسيحى ويدير دفتها بحارة مسيحيون أو من أصل مسيحى ويتولى أمر قيادتها فى الغالب من كان فى الأصل مسيحيا لتهاجم بلاد المسيحيين وتغزو سواحلهم وتعود بالمسيحيين لتمثيل هذا الدور من جديد . وهكذا على مر السنين وبعد هذا كله تلسب القرصنة إلى بلاد الشمال الأفريقى ونتكلم عنها على أنها خاصية من خواصه الخاصة به !!

وكانت السفن التى استخدمها اللوبيون فى هذا النشاط البحرى المعروف عامة عند مسلمى الشمال الأفريقى تعتمد فى تسييرها على المجاديف قبل كل شىء ولها من شكلها الطويل الضيق مايساعدها على شق أمواج البحر وسرعة الاندفاع اذا ما حركت مجاديفها فى الماء وقد امتازت بصفة خاصة عن السفن المسيحية بالخفة فى كل شىء فكان ذلك مما ساعدها على سرعة مطاردة سفن الاعداء أو الهروب منها إذا غلبت على أمرها أو تراءى لأصحابها الاختفاء . وكان يقوم بمهمة التجديف الشاقة الأسرى العبيد اذا توفر منهم العدد الذى يسمح بهذا العمل أما إذا قل عددهم واصيبت الملاحة بازمة فيهم فإن صاحب السفينة كان يلجأ إلى تأجير نفر من أهل البلاد انفسهم فى مقابل عشر دوكات ، عملة جمهورية البندقية ، لكل فرد عن الرحلة البحرية الواحدة سواء أغنمت السفينة فى رحلتها هذه أم لم تغنم . وكان أيضا فى استطاعة صاحب كل سفينة وهو المعروف بالريس «Rais» أن يقوم ببناء سفينته التى يملكها على حسابه الخاص وتزويدها بكل ماتحتاج إليه فى هذا الخصوص ولكن إذا عجزت موارده الخاصة عن القيام بهذه المهمة لجأ إلى مايساعده على اتمام مشروعه هذا فى مقابل اقتسام الغنائم التى يفوز بها بقدر مايقدمه من مساعده . وكان هناك نظام معين لتوزيع هذه الغنائم البحرية أخذت قواعده العامة من تعاليم الدين الاسلامى

الخنيف . وكان نصيب الحكومة من هذه الغنائم هو الخمس ويؤخذ أولا قبل توزيع الأنصبة الأخرى بل كان على كل سفينة عند عودتها إلى الميناء بعد جولتها البحرية الظافرة الا تحرك شيئا من حمولتها إلا فى حضور من يمثل السلطة القائمة لعمل جرد عام بغنائمها واستلام كل ماغنمته من ذخائر وأسلحة ولا يُترك لها شىء من هذه الاسلحة إلا القدر الذى يكفل لصاحبهامهمةالدفاع عنها فى رحلته القادمة . وبقدر ماتبديه هذه السفن من نشاط كان يزداد الدخل العام للحكومة والافراد الذين اتخذوا من البحر ميدانا اساسيا لارزاقهم ، وكان لبحارة هذه السفن لباس خاص بهم يساعدهم على العمل فى البحر يتمثل فى ذلك النعل الذى يشبه القارب تماما وذلك السروال الفضفاض الذى تشده منطقة حول الوسط وقد علقت فيها الخناجر والاسلحةالضرورية وإلى أعلى منه مايعرف بالصديرى وعلى الرأس عمامة كبيرة تزين تلك اللحية المستديرة وذلك الشارب المعتنى به .

وكانت أكبر صعوبة صادفها اللوبيون فى بناء سفنهم البحرية هى الحصول على الاخشاب والمواد الحديدية اللازمة لذلك ، لفقر البلاد فيها أو انعدامها منها تقريبا . وقد اهتدت البلاد المعادية إلى ما تشعر به لوبيا من احتياج فى هذه المواد . ولكن مع كل هذا استطاعت لوبيا أن تحصل عل ما تحتاج إليه منها بشتى الطرق غير ناظرة إلى فداحة الثمن ما دامت الغنائم البحرية تعوض ما تدفعه فى ثمنها . وعن طريق البنادقة كانت لوبيا تحصل على بعض هذه المواد اللازمة لها إذ كانوا يقومون بمهمة تهريب هذه المواد إلى ميناء طرابلس رغم أوامر البابا التى لاتجيز ذلك حتى اضطر دوق البندقية كانديانو الرابع تحت الحاح البابا إلى اصدار أمر يمنع سفن البندقية من شحن اخشاب الى طرابلس يستفيد منها اللوبيون فى صناعة سفنهم ولكن الاثمان المغرية التى كان يدفعها اللوبيون فى مقابل الحصول على مثل هذه المواد ومهارة البنادقة فى تارة التهريب

« الكنتر باندو » شجعت المغامرين وطالبي الربح الوفير منهم على اختراق هذا الحظر وتوريد الاخشاب وما يلزم من حديد. واستطاع اللوبيون أيضاً الحصول على الاخشاب من غابات الاناضول وبلاد الشام وبلاد المغرب بحكم انخراطهم فى الامبراطورية العثمانية الاسلامية وتعاون أهلها فى النشاط البحرى لمقابلة العدو المشترك. وهكذا استطاع أهل لوبيا التغلب على أزمة عدم توفر المواد اللازمة لبناء سفنهم وهى شىء هام جداً بالنسبة لنشاطهم البحرى ولولا هذا التعاون الاسلامى المشترك لوقفت البحرية اللوبية موقف العجز أمام حصار العدو وارتفاع اثمان هذه المواد عن طريق البنادقة الأمر الذى كاد يصيب السيادة البحرية اللوبية فى الصميم ويقضى عليها.

وسرعان ما شعر القراصنة أن استخدام السفن ذات المجاديف فيه من التعب ما يرهقهم ويفوت عليهم الكثير من أغراضهم إذ أن استعمال المجاديف لتسيير السفن يحتاج إلى عدد كبير من الاشخاص الذين هم بدورهم يحتاجون إلى كميات من الزاد والامتعة يمكن استغلال امكنتها فى حمل ما يحصلون عليه من غنائم وبالتالى يمكنهم تطويل رحلاتهم إلى مدة كافية تساعدهم على الفوز بأكثر ما يمكن الحصول عليه وبقدر ما تسمح سفنهم بحمله. ثم أن الرجال القائمين بمهمة التجديف كثيراً ما كانوا يصابون بالتعب فتكل سواعدهم عن العمل وقد يعرضهم هذا لخطر الهجوم المفاجىء للعدو وقد يفوت عليهم اقتناص غنيمة هامة يعجزون عن اللحاق بها وقد يؤخر عودتهم ويفوت عليهم القيام بأكثر من رحلة واحدة فأعملوا التفكير للتخلص من كل هذه العوائق وهداهم تفكيرهم إلى الاعتماد على الاشرعة فى تسيير سفنهم بدل المجاديف وقد شجعهم مالاقوه من نجاح باتباع هذه الطريقة على تغيير نظام بناء سفنهم وسرعان ما أخذت السفن ذات الاشرعة المتعددة تحل محل سفن المجاديف ابتداء من القرن السابع عشر وبفضل هذا التقدم العملى فى فن الملاحة

أصبح خطرهم الان أشد وأوسع مجالا ولم يعد محدوداً بحدود البحر الابيض المتوسط فعبروا مضيق جبل طارق واندفعوا فى المحيط الأطلسى شمالاوجنوباً وبدأنا نسمع عن غارات السفن الاسلامية على جزائر ماديرا Madeira بل وصل نشاط السفن اللوبية شمالا حتى سواحل اسكنديناويه والجزر البريطانية وجزيرة ايسلندة الأمر الذى ترتب عليه فيما بعد اتساع الميدان واستنزاف نشاط القوة البحرية اللوبية والاكثار من الاعداء وتقوية جبهتهم أمام هذا الخطر المشترك مما عاد بالضرر على البلاد فيما بعد . ولكن نشوة الانتصارات المتتالية ووفرة الارباح الطائلة من الغنائم المتنوعة لم تترك لهم مجالا للتفكير فى النتائج الخطيرة لهذا النشاط البحرى .

وكانت البلاد المعادية تحاول الرد على مثل هذه الأعمال بالمثل إذا ساعدتها الفرص كما أنها تحاول التغلب على ما ينزل بها من خسارة بأحكام تسليح سفنها واجتناب المياه البحرية المعروفة بكثرة تردد السفن اللوبية عليها وبالسير بمحاذاة الشواطىء وتجنب الايغال فى الداخل حتى تكون أقل عرضة للخطر وحتى يسهل أمر نجدتها إذا تعرضت لأى سوء يمكن دفعه فى الحال . وكانت السفن فى العادة تعمل على تجنب خطر القرصنة بالسفر فى مجموعات متلاحقة يحمى بعضها بعضاً والويل كل الويل للسفينة التى تعجز عن متابعة زميلاتها فى السير أو تضل الطريق فى رحلتها لسبب ما فإن الاسر المصير النهائى لها ولهذا لا نعجب كثيراً إذا عرفنا أن الأوربيين كانوا يودعون سفنهم عند الرحيل بعبارة خاصة حملت فى طياتها كل هذه المعانى ودلت على ما كان للسفن اللوبية من سطوة فى نفوسهم . هذه العبارة التى قالها الاف الآلاف من المودعين على مر السنين والتى سجلت فى حروفها وتركيبها الخاص مجد البحرية اللوبية فى ذلك الوقت والتى ملأت اصداؤها ذلك الفراغ الواسع من الغلاف الجوى فوق مياه البحر الأبيض المتوسط بعد أن اختلطت بالأثير ورنت فى آذان آلاف

الآلاف من المسافرين تلك العبارة هى ، وقا كم الله من سفن الطرابلسيين » (١) وهذا ايضاً ما دعا الرحالة العياشى عنــــد مروره بطرابلس يوم الاربعاء ١٧ رجب سنة ١٠٧٦ هـ فى طريقه إلى الأراضى المقدسة من أن يسجل فى اخبار رحلته الثالثة للحج ما يأتى « ولأمير هذه المدينة نكاية فى العدو دمرهم الله وله مراكب قل نظيرها معدة للجهاد فى البحر قل ما تسافر وترجع بغير غنيمة وقل ما اسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد فجزاهم الله خيراً واعانهم على ما أولاهم من ذلك وســـائر بلاد المسلمين أجمعين » (٢) .

ولكن هذا المجد البحرى الذى نالته البـــلاد لم يكن من غير مقابل فإلى جانب ما كلف أهلها من مجهود كبير وتضحية باهظة ونشاط متنوع فوق طاقتها احياناً جعلها هدفا لهجمات الاعداء كلما واتتهم فرصة الشعور بالقوة وكلما جد من العوامل ما ساعدهم على تحقيق امنيتهم فى تلك الفترات الضعيفة التى كانت تمر بها البلاد من وقت لاخر والتاريخ يذكر لنا كيف تعرضت مدينة طرابلس لحكم الاسبان الذين اسلموها بدورهم إلى فرسان مالطة الى أن جاء الاتراك واستخلصوها منهم ويذكر لنا أيضا كيف تحـــالفت بعض القوى المسيحية للاستيلاء عليها من جديد (٣) كما يذكر لنا كذلك كيف قامت بعض الاساطيل المعادية بضرب مدينة طرابلس نفسها ومحاولة تحطيم حصونها وقلاعها المتينة كما حدث ذلك فى سنة ١٦٧٥ عنـــدما هاجم البحاره اللوبيون سفناً

---

١ — Micacchi R. La Tripolitania sotto la dominozione dei Caramanli.

٢) رحلة العياش ج ١ ، ص ٦٠

٣) بعيو : ــ المجمل فى تاريخ لوبيا ص ٨١

للانجليز وغنموا منها ثلاثاً مما أثار غضب البحرية الانجليزية فلم تجد ما يخفف عنها وطأة ألم هذا العمل إلا القيام بغارة حربيـة على ميناء طرابلس واحراق الوحدات اللوبية الراسية فيه بعد أن قذفت المدينة بمدافعهـــا وكان قائد هذه الحملةالانجليزيةالسيرجون مار بورو Sir John Marborcugh يساعده اللفتنانت شوفل Lieutenant Shovel وما زالت البحرية الانجليزية تذكر هذا الحادث فى سجل تاريخهـا حتى يومنا هذا . ولـكن كان فى قوة عزيمة ابناء البـــلاد واستماتتهم فى الدفاع عنها وقوة حصون الميناء وسلامة قلاعها وأحكام تسليحها بنظام حربى فنى ما كفل لها رد غائلة هذا العدو المغير وغيره فى هذه المرة وفى كثير من المرات الأخرى .

والملاحظ أن أثر النشاط للبحرية اللوبية فى حيـاة البلاد لم يقف عنـد الناحية الدينية والاقتصادية والجنسية بل تغلغل فى جميع النواحى حتى اصبحنا نرى أثر ذلك واضحا فى الأدب الشعبى متمثلا فى القصص المتواترة وليس أدل على ذلك من قصة « عسيـلة » تلك الفتاة الجميلة المسلمـة التى اغتصبها قراصنة الروم وحملوها معهم وكيف استنجدت هـذه الفتاة بالولى الصالح عبد السلام الاسمر الفيتورى ببلدة ظليتن وكيف استجاب هـذا الولى لاستغاثتها وعمل على نجدتها وانقاذها من العدو لما له من كرامات وجاه ربانى وما زالت حلقات الاذكار فى البلاد تترنم بانشودة عسيلة هذه ومطلعها : ـ

عسيـــلة يا عسيـــلة — ما دونـك من رقـراق مالح
واللى ما يفزعش لعسيلة — مهـــوش ولى صـــالح

وليس بالغريب أن يصطبغ الأدب الشعبى بحوادث القرصنة وأن يحـاول البعض اظهار كرامة الأولياء باثبات بعض الأعمال البحرية الخـــارقة إليهم خصوصا فيما يتعلق بالولى الصالح عبدالسلام الاسمر الذى عاش فى القرن العاشر الهجرى ذلك القرن الذى ازدهر فيه النشاط البحرى للبلاد على أيدى درغوت باشا وأعوانه وخلفائه من بعده .

كان الدور الذى قامت به البحرية اللوبية منذ الفتح الاسلامى حتى بداية القرن الثامن عشر جزءاً من نشاط عام للامبراطورية الاسلامية فى هذا الميدان ولـكن منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادى بدأ هذا الدور يتخذ طابعاً خاصاً ظهرت فيه شخصية لوبيا كوحدة قائمة بذاتها على أتم ما يكون والفضل فى هذا يرجع إلى قيام الدولة القره مانلية التى وضع أساسها أحمد باشا الـكبير عام ١٧١١ م (١) وكان لاتجاه أحمد باشا الى الميدان البحرى وتجديد ما كان للوبيين من نشاط فيه أثر كبير فى تدعيم بناء دولته الفتية إذ عرف بذكائه كيف يستغل ما لموقع البلاد من أهمية خاصة فى حوض البحر الأبيض المتوسط فاتجه اليه للاستفادة من موارده بالمساهمة فيما دار على مياهه من نضال بين القوى المسيحية والاسلامية فبدأ بتجديد الأسطول وحسنه وأضاف إليه عدداً كبيراً من السفن الأخرى الحديثة أعاد بها ما كان لسـاحل لوبيا من أهمية وشهرة أيام درغوت باشا وأعوانه بإعلان الجهاد على السفن الأوربية واستطاع بحارته أن ينزلوا بها الـكثير من الخسارة وأن يعودوا مرتلين أناشيد النصر محملين بالغنائم والأسلاب حتى إذا ما افرغوا حمولتهم على الشاطىء وغمروا أسواق البلاد بالعبيد والسلع أقلعوا بسفنهم ليعودوا بها محملة من جديد وهكذا كان النصر يتبع النصر حتى ألقت السفن اللوبية الرعب فى قلوب الأوربيين وقد نجح الاسطول فى هذه المهمة وأجبر السفن الأوربية على الهروب من ملاقاته وهو يتحسسها ويلحق بها الهزيمة إذا ما ظفر بها . ولم تكن هـذه السياسة البحرية التى وضع أساسها قاصرة على عهده بل امتدت إلى عهد بنيه من بعده فهذا خليفته محمد باشا قد وجه عنايته الكبرى إلى البحر فأكثر من بناء السفن وتابع الإغارة على السواحل الجنوبية لأوربا وسفن الأعداء أينما وجـدت وأقلق ذلك الدول البحرية فأسرعت إلى عقد المعاهدات مع حكومة لوبيا حتى تأمن على تجارتها نظير دفع

---

١) لوبيا فى العهد القره مانلى موضوع دراسة خاصة للمؤلف سينشره فى القريب العاجل .

سنوية معينـــة وكانت انجلترا أسرع هذه الدول إلى عقدها فى سنة ١٧٥١م.
وإذا كان عقد مثل هذه المعاهدات يعطينا فكرة صادقة عن مدى تطور القوة البحرية اللوبية ومركزها فى البحر الأبيض المتوسط فإنه كذلك يرينا مدى ما وصلت إليه ولاية لوبيا من استقلال ومظهر للسيادة الخارجية إذ أن هذه المعاهدة التى عقدت بين لوبيا وانجلترا قد عقدت دون علم السلطان بها وقد نصت على عدة شروط كان من بينها منح السفن الانجليزية حق المتاجرة مع موانىء لوبيا وأن تثبت هـذه السفن جنسيتها الانجليزية بأوراق رسمية إذا أوقفتها إحـدى المراكب اللوبية فى عرض البحر وأن ترخص حكومة البـلاد بزيارة قنصـل انجلترا لجميع الموانى دون تقييد وألا تساعد حكومة لوبيـا اسطول تونس أو اسطول الجزائر إذا اشتبكتا فى حرب مع السفن الانجليزية.
وترينا هذه الشروط ما كانت تتبعه سفن لوبيا مع سفن البـلاد المعادية من احتيـاطات ومعاملة خاصـة عملت حكومة انجلترا على التخلص منها نظير دفع هذه السنوية . على أننا إذا أمعنا النظر فى هـذه الشروط وجـدناها تحمل فى طياتها عوامل اضعاف البحرية اللوبية بايقاع الفرقة بينها وبين بلاد المغرب الأخرى . ثم جاء من بعـده ابنه على باشا فسار أيضاً على نسق هـذه السياسة البحرية وتوسع فى سياسة عقد المعاهدات الدولية وتجديد القديم منها بخصوص فرض السنوية المالية فى مقابل عدم اعتداء البحرية اللوبية وقد شملت دولاً كثيرة بعد أن اقتصرت فى عهد والده على بريطانيا وكان أهم هذه الاتفاقيات ما عقـده مع جمهورية البندقية سنة ١٧٦٥ بابطال الأعمال العدائية بين البلدين وتشجيع التجارة .

واستمر كذلك هذا النشاط البحرى بشكل أوسع فى عهـد ولاية يوسف باشـا القرمانلى وبلغت البحرية اللوبية فى عهده من القوة ما جعلهـا تفرض

الاتاوات والهدايا السنوية على معظم الدول البحرية ولم يقتصر نشاطها على البلاد القريبة بل امتد إلى البعيدة منها مثل ايرلنده وايسلنده والسويد إذ أنها لم تسلم بدورها من هذه الغزوات وإذا كان اللفتنانت كولونيل جوردن كاسيرلى Lieut-Colonel Gordon Casserly قد علل سلامة السفن النمساوية والروسية من البحرية اللوبية بقربها من تركيا التى تخشى بأسهما فإن هذا على كل حال ما يؤيد براءة النشاط البحرى من النهب والسلب فى العهد القرهمانلى وإلا لما فرقت البحرية اللوبية بين ما يصادفها من سفن بحرية سواء أكانت معادية أم صديقة مسيحية أو اسلامية . وكان على الأسرة القره مانلية أن تمد يد المعونة للدولة العلية فى جهادها المستمر ضد الأوربيين وقد ارتبط أفرادها بها دينياً فضلا عن الاعتراف بسيادتها التى مهما تضاءلت لا يمكن اغفالها أو التخلى عنها إذا ادلهمت الاخطار . والخلاصة فإنه كحكم عام دون عمل أى اعتبار للمخالفات المعدودة لم تهاجم سفن القرهمانليين إلا سفن الدول التى لم تكن قد ارتبطت بمعاهدات معهم كما يذكر لنا ذلك الاستاذ جونستون فى كتابه الخاص عن تاريخ استعمار افريقية«١» وإذا حدث أن هاجمت السفن القره مانليه سفينة من السفن الحليفة فإن ذلك فى الغالب لما تحمله من بضائع يملكها أعداؤهم .

وكانت حالة الدول الأوربية فى ذلك الوقت خير مشجع للقرهمانليين وغيرهم على التمادى فى هذا النشاط البحرى فهى فى نزاع مستمر فيما بينها من أجل التوسع الاستعمارى فضلا عن أن معظمها كان يعانى حالة داخلية مضطربة هى الثورة بعينها أو ما يقرب منها بعد قيام الثورة الفرنسية وما خلفته من مبادىء وتعاليم تتعارض ونظم الحكم السائدة فى ذلك الوقت . كل ذلك صرف

---

١ — Sir Harry H.Johnston:- A history of the Colonization of Africa, P. 400

جهود الحكومات الأوربية الى الميدان الداخلى قبل أن تتجه الى القضاء على الخطر الخارجى الذى تعودته من قبل ولهذا لم تتحد قواتها أمام خطر القراصنة وإن أجمعت كلها على ضرورة مقاومة القرصنة والقضاء عليها ووضع حد لها باتخاذ إجراء حازم ولكن أى هذه الدول كان يملك الشجاعة الكافية ويجرب حظه فى هذا الميدان ؟ كان حالها جميعا اشبه بحالة الفيران التى أجمعت على التخلص من عدوها القط بعد أن قاست الويل منه بتعليق الجرس فى عنقه « belling the cat » ولكن من منها يجرؤ على القيام بهذه العملية ؟ وكان حكام الشمال الافريقى ومن بينهم باشاوات لوبيا يعرفون هذه الحقيقة ويضحكون من غضب الدول الأوربية الأجوف وتهديداتهم الفارغة وقد تمكنت هذه الحالة فى نفوسهم على مر الايام وشجعتها على المغالاة فى طلباتهم فى مقابل حماية السفن الأوربية من الاعتداء وكان لهم فى حروب نابليون التى شغلت أوربا فى ذلك الوقت مدة طويلة والتى الهت الشعوب الأوربية بهذا العدو المشترك ما شجعهم على التمادى فى هذه السياسة الى أن جد من الاحداث ما كان له دور كبير فى الحد من السيادة البحرية اللوبية والقضاء عليها فيما بعد.

وكان رئيس البحرية اللوبية فى العهد القره مانلى يتمتع بمكانة عظيمة أهلته فى كثير من الاحيان إلى مصاهرة الاسرة الحاكمة كما حدث فى عهد ولاية على باشا القره مانلى عندما زوج صغرى كريماته الثلاث من رئيس بحريته (١) وكما حدث أيضاً فيما بعد فى عهد يوسف باشا (٢) عندما زوج ابنته من مصطفى قورجى الذى كان يشغل وظيفة قيادة الاسطول البحرى والذى استطاع أن يجمع ثروة كبيرة خصص بعضاً منها فى بناء جامعه الذى يحمل اسمه الى الآن

1- Richard Tully : Narrative of a ten years residence at Tripoli in Africa, P. 30.

2- Encyclopaedia of Islam, vol. Iv, article (Tripoli).

والذى تم تشييده فى (١٢٤٩ هـ - ١٨٢٣ - ١٨٣٤ م) كل هذا يوضح لنا أهمية البحرية اللوبية فى ذلك العهد وعلو مرتبة رئيسها .

كان ظهور الأسطول البحرى للبلاد فى البحر كافيا لانزال الرعب فى قلوب الاعداء وتوليتهم الادبار بل كان شبحه كافيا فى كثير من الحالات لانزال هذا الرعب ولنا فى قصة القصاع المشهورة (١) ما يؤيد لنا ذلك اذ حدث أن تعرضت مدينة طرابلس لهجوم بحرى من احدى الدول المعادية فاستشار يوسف باشا وزيره الحاج محمد بيت المال فى هذه الازمة للتخلص منها ولما كان الاسطول البحرى غائبا عن البلاد لقيامه باحدى جولاته فقد اهتدى الوزير إلى حيلة طريفة كان فى تنفيذها ما حقق الغرض المطلوب . أشار الوزير على الباشا باعداد عدد كبير من القصاع مع ربط كل اثنين منها مع بعضهما ووضع مصابيح فيها مع اضائتها ليلا بعد وضع هذه القصاع فى البحر الى الشرق من مدينة طرابلس عند المنطقة المعروفة برأس الهنشير وما كاد العدو يصل ليلا بسفنه إلى ميناء طرابلس ويرى هذه الأضواء المتعددة فى البحر وقد اخذت الامواج تداعبها حتى ظن أن أسطول الباشا قد عاد من إحدى غزواته الموفقة فلم يجرؤ على تنفيذ غرضه وفضل الهروب على منازلة هذه القوة البحرية وهكذا كان فى هذه الحيلة الماهرة وفى ما للبحرية اللوبية من سمعة قوية مافوت على العدو غرضه فى هذه المرة .

وكان انزل السفن الجديدة إلى البحر فى العهد القره مانلى يتم وسط احتفال عام تنظمه وتشرف عليه الحكومة وتدعو إليه علية القوم ومن ترى ضرورة

١ — هذه القصة منقولة عن السيد على القره مانلى وقد أكد صحتها بورودها فى أحدى الوثائق التاريخية التى اعارها المرحوم اسماعيل كمال وقت ان كان مشرفا لدار الوثائق الى الاستاذ مكاكى الايطالى للاستعانة بها فى تأليف كتابه عن القره مانليين ولكن السيد على القره مانلى يؤكد لنا بأن هذه الوثيقة لم ترجع الى دار الوثائق كما أن الاستاذ مكاكى لم ينشرها فى كتابه الذى الفه عن القره مانليين

حضوره ويتم انزال السفينة وفق مراسيم خاصة وقد جاء وصف احدى الحفلات التى تقام لمثل هذا الغرض فى احدى الرسائل التى احتفظت بها عائلة ريتشرد توللى Richard Tully القنصل البريطانى فى بلاط على باشا القره مانلى فهى تقول بأن المسيحيين قد دعوا بالأمس (أى ١٩ ديسمبر سنة ١٧٨٤ لأن الخطاب مؤرخ فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٧٨٤) لحضور الاحتفال بانزال إحدى سفن الباشا إلى البحر وهى فرصة نادرة قل أن تسمح بها الظروف فى كثير من الاحيان ثم تقول الرسالة أنه فى اللحظة التى تم فيها انزال السفينة من الترسانة إلى البحر كان هناك عبد اسود قد اقتيد وسمر فى مقدمة السفينة حتى يكون ذلك فألا حسنا للسفينة وهى فى طريقها إلى البحر وقد تم انزال السفينة بين مظاهر الفرح والسرور وتعانق الافراد واحتشدوا حتى عجز الوزير الأول « مصطفى » عن رؤية عملية تسمير ذلك العبد السيء الطالع ولكن ربما كان ذلك لكثرة الازدحام أو لانشغاله بشيء آخر وقت اتمام هذه العملية . كما جيء بخروف أبيض اللون يفوق فى بياضه الثلج وقد زين بالزهور وحمل الى ظهر السفينة . وفى اللحظة التى بدأت فيها السفينة تنزل الماء تم نحره وقدم قربانا لله تفاؤلا بالمستقبل الزاهر للسفينة . تم كل ذلك وسط تحية الاعلام والمدافع على الشاطىء ومن طرف جميع السفن المختلفة الراسية فى الميناء .

ولا يفوتنا فى هذه المناسبة أن نذكر فضل المخلصين من رجال يوسف باشا البحريين الذين وقفوا بجانبه وعملوا فى الميدان البحرى وفى مقدمتهم الريس مراد Murat Rais الاسكتلندى الأصل والذى كان يسمى باسم بطرس ليزلى PeterLyslee وقت إن كان يعمل كبحار فى احدى السفن الانجليزية التى اعتادت التردد على مينا. طرابلس من وقت لآخر لشئون تجارية وقد قدر له أن يتهم

---

١ — Richard Tully . Narrative of a ten year's Residence at Tripoli in Africa, P. 74 - 75.

بنهب بعض ما كانت تحمله تلك السفينة فدفعه الخوف على نفسه من العقاب الصارم إلى الالتجاء إلى الباشا والاحتماء بقلعته وبالتالى الى اعتنـــاق الدين الاسلامى وسرعان ما عرف يوسف باشا موهبته البحرية فقدرها وعمل على استغلالها لمصلحة اسطوله البحرى واسند إليه مهمة قيادة احدى السفن البحرية من الاسطول اللوبى وسرعان ما أخذ يترقى فى هذا الميدان إلى أن بلغ أرقى الرتب وأشتهر باسمه كقرصان ماهر استطاع أن يعود بالكثير من الغنائم فى رحـــلاته المتعددة الموفقة وقد تتلمذ على يديه الكثير من البحارة المهرة فى اسطول يوسف باشا وكان من بين تلاميذه الريس الشللى Rais Shelly اللوبى الأصل والذى كان من بين القراصنة المشهورين فى حوض البحر الأبيض المتوسط وفى القصة التى يذكرها لنا الرحالة بلاكييرى Blaquiére فى رسالته الخامسة من الرسائل التى بعث بها من طرابلس الى لندن فى ذلك الوقت ما يبين لنا شجاعة هذا الريس وإلى أى حد ذهبت به المغامرة البحرية .

كان الريس الشيللى Rais Shelly يقوم باحدى جولاته البحرية الموفقة عندما صادفته احدى السفن النمساوية الكبيرة وهى فى طريقها من ميناء أزمير إلى جزيرة مالطة وقد استأجرها بعض التجار البريطانيين . ولما كانت هـذه السفينة النمساوية متقنة التسليح وتفوق سفينة الريس الشيللى فى هذه الناحيـة وجد من الضرورى أن يلجأ إلى الحيلة لتحقيق بغيته وهى الاستيـــلاء عليها كغنيمة فنادى على السفينة النمساوية واخبر ربانها بعبارات ودية بأنه قد فقـد قاربه اثناء احدى العواصف الهوائية القوية ولذلك أصبح فى حاجة ملحة لقارب آخر بدل القارب المفقود وطلب منه اعارته قارب من عنده . لم يتطرق الشك إلى الربان النمساوى فى هـذه السفينة الطرابلسية فدعا ريسها إلى ظهر سفينته وتلطف معه وأظهر له كل الاستعداد لمده بما يحتاج إليه . ولـكن الريس الشيللى الحذر كان قد استعد لما نوى القيام به فاصطحب معه عدداً من اتباعه المسلحين

وأخذ يتظاهر بالود والصداقة مع الربان النمساوى وهو يتمشى على ظهر السفينة ويختبر القوارب مظهراً أعجابه بكل شيء يراه وأخيرا وبعد أن فحص جيداً القوارب الموجودة على ظهر السفينة التفت إلى ربانها قائلا « أنى أجد القوارب لا تفى بالغرض الذى اقصده ولكن السفينة تحقق ذلك وهى ستذهب معى الى طرابلس » ولم يستطع الربان النمساوى ابداء أى مقاومة لفوات الوقت واستطاع الريس الشيللى بذلك أن يقود السفينة الى طرابلس حيث صودرت حمولتها . ويعلق الرحالة بلا كيبرى « Blaquiére » على هذه القصة التى دلت على روح المغامرة وجرأة البحارة اللوبيين فى ذلك الوقت حتى أنها أصبحت أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة وحتى أصبح أمر ذكرها لا يصدقه العقل فيقول « إن القصة صحيحة بكل تأكيد . . . (١) »

... ...

وإذا كانت البحرية اللوبية فى العهد القره مانلى بصفة عامة قد بلغت من القوة ما مكنها من أثبات وجودها فى حوض البحر الأبيض المتوسط بل وجعل كلمتها هى الأولى فى كثير من الحوادث فإنها فى عهد يوسف باشا بصفة خاصة كان لها شأن آخر اذ قدر للبلاد فى عهده أن تبلغ فى هذه الناحية أقصى ما يمكن الوصول إليه وكان لذلك أثره القوى فى حياة البلاد وانتعاشها فى الداخل والخارج إلا أن العوامل الهدامة سرعان ما تضافرت فى العمل على هدم ما شيده الاسبقون كما تضافر الاعداء وكثر عددهم وأخذوا فى مهاجمة يوسف باشا وسياسته فى أواخر أيامه وهكذا قدر للبلاد فى عهده ايضا أن ترى بداية تحطيم مجدها البحرى العظيم وقد سبق لنا أن ذكرنا أن التمادى فى هذا

---

١ — Blaquière : Letters from the Mediterranean, P. 130-131. « vol. 11 ».

النشاط البحرى والتوسع فى ميـدانه كان من العـوامل التى أدت فيما بعد إلى التمهيد للقضاء على البحرية اللوبية بسبب تكاثر الاعداء واستنزاف الجهود وشاء القدر أن يكون ذلك فى أواخر عهد الدولة القرهمانلية وفى عهـد يوسف باشا بالذات وعلى يد دولة ناشئة حـديثة العهد لم تـكن قد لعبت فى الميـدان الدولى دوراً بارزاً بل كانت تعتبر حتى ذلك الوقت من الدول الثانوية . تلك الدولة هى دولة الولايات المتحــدة الامريكية المتحفزة التى اصطدمت بدورها كما اصطدم غيرها بالبحرية اللوبية والتى حان دورها لتقوم بعملية « تجريس القط " Belling The Cat " » بعد أن أخذ الخوف والهلع ببقية الفيران مأخـذه . وإذا كانت الولايات المتحـدة الامريكية قد عانت الـكثير من سطـوة رجال البحرية المغربية ورضخت فى كثير من الاحوال للشروط التى فرضها على سفنهـا حكام الشمال الافريقى ومن بينهم أفراد الاسرة القره مانلية فإنها لم تفعل ذلك يأسا منها بل كانت تساير الوقت والعرف السائد حتى يشتد ساعـــدها . وقد كانت بعد نضالها المر القوى الطويل العهد مع بريطانيا حديثة العهد بالاستقلال ومشاكله وما يستلزمه . كان عليها أن تهتم أولا وقبل كل شىء بوضع الاسس الصحيحة لدستورها الذى ستسير بمقتضاه والذى توفر به حياة سعيدة لابناء ولاياتها المتعددة. وكان عليها أن تعمل على حل مشاكلها الاقتصادية التى سببتها لها حرب الاستقلال . وكان عليها أيضاً أن تهتم بأمر جيشهـــا وبحريتها حتى تجرؤ على الوقوف مع غيرها فى هــــذا المضمار إذا دعت الضرورة وما أكثر الضرورات أمام كل دولة تمر فى مثل هذا الدور ! !

ولـكن الولايات المتحدة الأمريكية وهـذه حالها استطاعت بفضـل عزيمة أبنـائها وحكمة رؤسائها المسيرين لدفة أمورها أن تخطو خطوات سريعة موفقه فى تقوية نفسها وقد عرف الرئيس جفرسن أثناء ولايته لرئاســـة الجمهورية للمرة الثانية كيف يستغل الظروف لمصلحة وطنه فوقف

موقف الحياد من الصراع الهائل الذى قام بين بريطانيا العظمى وفرنسا فى ذلك الوقت إبان حروب نابليون فكان فى هذا الحيـــاد احتفاظ بالقوة الناشئة لليوم الموعود .

وهكذا أيضاً قدر لدولة لوبيا وقد تدهور حالها فى آخر العهد القرهمانلى أن تكون الخصم لدولة الولايات المتحدة المتحفزة وهكذا كانت المقابلة بين دولة قد شاخت ولعب الضعف بأسسها ودولة فتية متحفزة لأبنائها طموح ورغبة فى المجد بعـد أن عانوا الـكثير من الذل والهوان بحكم تبعيتهم للغير . ويشاء الطالع الحسن للبحرية الأمريكية الناشئة أن تجرب حظها مع بحرية لوبيا الآخذة فى التدهور فكان ذلك خير حافز لها على تقوية نفسها إذ كانت الهزيمة لها هنـا تجربة جديدة والنصر الذى تحرزه خـــير مدعم لقوتها . ولو قدر للبحرية الأمريكية فى أول نشأتها أن تصطدم بالقوة البحرية اللوبية إبان عنفوانها قبل أن يتدهور حالها فى آخر عهد يوسف باشا لكان حالها غير هذا الحال ولتغير مجرى تاريخها ولـكن هذا ما حدث وكان .

دفعت الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من مليون دولار اسبانى «١» إلى جانب ما كانت تقدمه من هدايا فى مختلف المناسبات ومن سنويات كبيرة معينة فى سبيل حماية سفنها من تعـدى البحرية المغربيـة وكان الشعب الأمريكى يغضب لهذا الدفع ويطالب الـكنجرس Congress بضرورة الاسراع فى بناء الأسطول البحرى اللازم حتى يمكن للدولة الناشئة أن تحـافظ على كرامتها أمام الأعداء وكانت أخبار هذه المطالبة تصل بدون شك إلى حكام الشمال الأفريقى فينزعجون لها ويتخوفون منهـا بعد أن استمرأوا السفن الأمريكية بغنائمها ورأى يوسف باشا أن يستعجل الفرصة قبل فواتها بظهور البحرية الأمريكية

---

١ — Lane-Poole. The Barbary Corsairs, P. 293.

بعد تقويتها وشجعـــه على هذا ما كان يعـانيه من أزمة مالية وطالب باتاوة سـنوية من الولايات المتحدة الأمريكية كما كانت تدفع له انجلترا وفرنسا واسبانيا «١» . ونادى يوسف باشا القنصل الامريكى وتحـدث معه بخصوص ضرورة تقـديم سنوية امريكية كبقية الدول التى يهمها حمـاية مصالحها البحرية وكما تفعل دولته مع تونس والجزائر وقد أبلغ القنصل الامريكى نبأ مقابلته مع الباشا لدولته وذكر لها التفاصيل وكان فى رد يوسف باشـا على الرسالة التى تلقاها من رئيس الجمهورية الامريكية بهذا الخصوص ما يبين لنا الخطوط العامة للسياسة البحرية التى انتوى السير عليهـا مع السفن الامريكية إذا لم يجب إلى طلبه إذ جاء فى رسـالته ما يأتى « ويمكننا أن نسأل أن تعبيراتكم هـذه يجب أن تتبعها الأعمال لا الكلام الأجوف ولهذا يجب أن تسعوا لاقناعنا بطريقة حسنة للتنفيذ . . . أما إذا كـان الأمر مجرد كلام يعنى التملق دون التحقيق فـكل منا سيعمل حسب ما يقتنـع به (٢) » وكان خطاب رئيس الجمهورية الامريكـية ليوسف باشا قد حوى الـكثير من كلمات الود والتقرب .

ويبدو أن يوسف باشا كان عند كلمته التى قالها فى خطابه الشبيه بالانذار الموجه إلى رئيس الجمهورية الامريكية اذ سرعان ما أعلن الحرب على الولايات المتحدة الامريكية يوم ١٤ مايو سنة ١٨٠١ (٣) بعد أن فشلت وسائل التفاوض بخصوص المبلغ الذى يجب دفعه اذ أصر يوسف باشا على ضرورة دفع مبلغ ٤٠٠و٠٠٠ قرش فى الوقت الذى أظهر فيه الامريكيون استعدادهم لدفع مبلغ ١٢٠و٠٠٠ قرش لا غير (٤) . وأنزل القنصل الامريكى فى طرابلس علم بلاده

1— Lane-Poole: The Barbary Corsairs,, P. 275.
2— » » » » » P. 275.
3— » » » » » P. 276.
4— The Sunday Ghibli, Sunday August 29, 1948, No. 95, Printed and published by the Government Press, Britich Military Administration, Tripolitania".

فى الوقت الذى كان الشعب الامريكى يتظاهر فى عاصمة بلاده مطالباً باتخاذ الاجراءات الحربية الحاسمة دون دفع أى « سنت » كجزية مفروضة وكانت هناك عبارة واحدة تجرى على السنة الجميع فى ذلك الوقت وهى « الاف الالاف للدفاع ولا سنتا واحداً للجزية Millions for defence,but not one cent for tribute «١»

عند ذلك لم تجد الولايات المتحدة الامريكية أمام هذا الخطر الذى يتهددها وأمام تيار الشعور الجارف لابنائها إلا أن تتخذ خطوة عملية لايقاف مثل هذا التهديد وكان عليها أن تستعد لذلك العمل الايجابى بتقوية أسطولها البحرى وفى نفس الوقت لجأت إلى المفاوضة بطريقة أخرى كسبا للوقت حتى تتهيأ فرصة للعمل الايجابى فسعت إلى فتح باب المفاوضات مع الباشا فى سبيل الوصول الى التقليل من المبلغ الذى أصر عليه فى مقابل ارضائه وقد قام بهذه المهمة وليم ايتون William Eaton الذى تم تعيينه كقنصل للولايات المتحدة الامريكية لدى بلاط باى تونس واعطيت له التعليمات اللازمة فى هذا الخصوص للاتصال بقنصل لوبيا فى تونس حال وصوله والتفاهم معه على الطريقة المثلى للقضاء على سوء التفاهم الناشىء بين البلدين وما يترتب عليه من نتائج خطيرة .

وكان وليم ايتون William Eaton هذا قد بدأ حياته العملية كمدرس ثم التحق بالجيش وترقى فيه الى أن وصل الى رتبة اليوزباشى Captain واشترك فى محاربة الهنود الحمر فى جورجيا Georgia وفى أوهيو Ohio ثم سرعان ما غير مجرى تاريخ حياته عندما بلغ الثالثة والثلاثين من عمره اذ ترك حياة الجندية وهام بحياة السفر والتجوال وكانت بلاد المغرب فى ذلك الوقت قد احتلت المكانة الأولى من تفكيره لانشغال الرأى العام بأخبارها وتفاصيل التقارير التى

1— Lane-Poole: Thé Barbary Corsairs, P, 276.

كانت تأتى بخصوص الهجوم المستمر على السفن الامريكية من طرف القراصنة المغاربة وكان القلق ينتابه لما يسمع وتدفعه غريزة حب الاستطلاع الى معرفة مدى الصحة فى القصص التى يسمعها حول الاسرى من البحارة المسيحيين وطريقة معاملتهم ولذلك التحق بالبحرية الامريكية وجرب حظه من جديد وأبحر الى الشمال الأفريقى على ظهر سفينة حربية . وكثيرا ما كان يمضى الوقت على ظهر السفينة متطلعا إلى الأفق والمنظار المكبر فى يديه باحثا عن أى سفينة مغربية ربما تحاول الهجوم على سفينته ولكن دون جدوى لأن القراصنة المغاربة فى ذلك الوقت كانوا يعرفون كيف يصطادون فريستهم ويتجنبون خطر مثل هذه السفينة الحربية وغيرها . ولهذا واصلت السفينة الحربية سيرها على خطها المرسوم والعلم الامريكى ذو النجوم والأشرطة يرفرف عليها وهى تحاذى الساحل الأفريقى حتى ميناء تونس وهناك انتابته الدهشة لما رأى من عالم جديد يختلف عما تعوده وعاودته حياة الدرس والتدريس من جديد فانصرف بعض الوقت الى دراسة اطلال قرطاجة وتطبيق مارأه على ما كان قد تعلمه فى دروسه التاريخية . وفى تونس تشرف وليم ايتون William Eaton بمقابلة « الباى » وشعر بضيق لما وجده من معاملة خاصة اثناء القيام بهذه الزيارة مما أثار فى نفسه عوامل الحقد والكراهية للمغاربة اذ أنه فسر هذه المعاملة بأنها موجهة فى حد ذاتها إلى جمهوريته الناشئة التى أتى لتمثيلها . وفى تونس ايضا التحق به قنصل الولايات المتحدة الامريكية فى مدينة الجزائر بأمر من حكومته بقصد التوجه سويا إلى يوسف باشا بطرابلس لمحاولة التفاهم معه من جديد بخصوص العلاقات بين البلدين ولكن كل ذلك دون جدوى لأن يوسف باشا أصر على حقه فى طلب أى شرط يراه فى مقابل حماية السفن الامريكية من الاعتداء عليها من بحريته وانتهت المفاوضات بالفشل وعاد كل من القنصلين الى مكان عمله ولكن وليم ايتون كان اثناء اقامته القصيرة بطرابلس قد استطاع

عن طريق أحد الأشخاص الاتصال بشخص كان له دور كبير فيما جد من تطور في العلاقات اللوبية الامريكية . ذلك الشخص هو « سيدى أحمد بك » شقيق يوسف باشا والوريث الشرعى لعرش ولاية لوبيا بحكم سنه . واستطاع وليم ايتون بعد أن عرف قصة اغتصاب العرش منه أن يحرك مافى نفسه من شجون بهذا الخصوص وأن يمنيه بالعودة إلى عرشه اذا سمحت الظروف المقبلة للقيام بعمل حاسم ضد يوسف باشا .

وعندما عاد وليم ايتون الى تونس بدأ يتعلم اللغة العربية حتى اذا أتت الفرصة وجد نفسه على أتم استعداد وكانت العلاقات بين البلدين قد ازدادت سوءا وواصلت البحرية اللوبيه هجومها على السفن الامريكية دون توقف وعبثا حاول الامريكيون تهديد الباشا بضرب مدينته اذ أنه لم يحرك ساكنا معتمداً على قوة حصونه واستعداد قلاع المدينة لمثل هذه الطوارىء كان يعتقد أن التهديدات الأمريكية ماهى إلا مجرد كلمات جوفاء لامعنى لها كثيرا مانعود مثلها في السابق . عندئذ رأت الولايات المتحدة الأمريكية أن تخطو خطوة عملية بعد أن استعدت لذلك فأعدت ثلاث حملات حربية كان أولها بقيادة دالى Dale ولكن مسيرها لم يتم لأن اعلان الحرب الهجومية لم يكن من صلاحية رئيس الجمهورية بل من اختصاص الكنجرس Congress حسب مانص عليه الدستور الامريكى . أما الحمله الثانيه فقد خانها الحظ وهى فى الطريق فعاد افرادها دون أن يحققوا الغرض من ارسالها . وفى سنة ١٨٠٣ م وصلت الحملة الثالثة إلى جبل طارق تحت قيادة كومودر ادوارد بربل Commodore Edward Preble وكان هدفها ميناء طرابلس بالذات وفى الطريق أراد قائد الحمله أن يختبر قوته قبل اللقاء المقبل فكان لهذه الحملة شأن مع سلطان مراكش إذ استطاع أن يهدده ويجبره على تجديد الاتفاقية التى أمر بها أبوه من قبله سنة ١٧٨٦ واتخذ معه موقفاً ايجابياً الأمر الذى دفع السلطان إلى التصريح بأن

« صداقته لامريكا ستظل دائمة الى الابد . » وما وصل بربل Preble الى هذه النتيجة إلا بفضل ما معه من قوة استطاع بعدها أن يطمئن إلى نتيجة أعماله المقبلة وأن يخفف من هول ما هو مقبل عليه من عمل جدى لا يعلم مداه .

ولم يخاطر بربل Preble بكل قوته البحرية بالهجوم على ميناء طرابلس بل اقتصر على ارسال وحدتين من سفنه وهما السفينة U.S.S. Philadilphia والسفينة فكسن Vixen وكانت الأولى مسلحة بست وثلاثين مدفعا يتولى قيادتها وليم بينبردج William Bainbridge وهو بحار جرىء التحق بسلك البحرية منذ حداثة سنه عندما كان فى الرابعه عشر من عمره . وعند ما نظمت الولايات المتحدة الناشئة بحريتها سنة ١٧٩٨ رقى إلى رتبة كابتن وكان عليه أن يقوم بمهمة الهجوم على ميناء طرابلس ولكن هذه المهمة ليست بالسهلة على « فيلادلفيا » خصوصا وأن مدافعها كانت من النوع الخفيف ومدى مرماها كان محدوداً بالنسبة لتلك المدافع المنصوبة على القلاع الساحلية والاسوار الحائطية للقلعة الكبيرة وكان جهل قائدها بعمق مياه الميناء إلى جانب ما يوجد فيها من صخور قد زاد فى صعوبة مهمتها وأبت الرياح إلا أن تشترك فى خلق المصاعب أمام بينبردج Bainbridge وسفينته اذ هبت بعض الرياح الشديدة التى دفعت السفينة الى الشرق من ميناء طرابلس وتقابل قائدها اثناء محاولة الرجوع الى ميناء طرابلس مع قارب خفيف من البحرية اللوبية فانصرف الى مطاردته واثناء هذه المطاردة استطاع القارب أن يلجأ الى الميناء وساعده على ذلك معرفة قائده للممرات المائية التى يمكن أن يسلكها فى طريقه الى الداخل وكان فى فرار هذا القارب ما أطمع بينبردج Bainbridge فى مواصلة مطاردته ومحاولة اللحاق به دون عمل أى حساب لحالة الميناء وما فيه من صخور وأماكن ضحلة لا يتناسب عمقها مع حجم سفينته وهكذا وجد القائد نفسه فى موقف لا يحسد عليه عند ما جنحت سفينته وتوقفت عن العمل بسبب الاستمرار فى مطاردة هذا القارب الذى نجا

بمهارة ريسه . وعبثاً حاول بينبردج Bainbridge بمساعدة بحارته زحزحة « فيلادلفيا » من مكانها فى الوقت الذى بدأت فيـــه قوارب اللوبيين تتكاثر عليها وتهاجمهـا وفى الوقت الذى كانت فيـه مدافعها تتبادل الطلقات مع مدافع القلعة دون جدوى لقصر مدى مرماها . وخر بعض بحارتها صرعى على ظهرها وأخـــيراً اضطر القائد إلى التسليم بعد التشاور مع بقية زملائه وبعد اغراق المخازن بالمياه وخرق قاع السفينة .

وهكذا كان مصير هذه المحاولة الامريكية الأولى من نوعهـا مع البحرية اللوبية أيام آبائنا « عندما كان العرب شعبـــاً قوياً ! » (١) كما قال العواشى El-Ouachy ذلك الرجل المسن للزائر الامريكى المستر تشارلز ولنجتون فورلنج Charles Wellington Furlong عند زيارته لمدينة طرابلس سنـــة ١٩٠٤ لمحاولة تحديد موقع حطام هـذه السفينة السيئة الطالع بالاستعـانة بمعلومات هذا الشيخ من أهالى المدينة .

كان لهـذا الفشل الذى منيت به البحرية الامريكيـة أثره الفعال فى زيادة الروح المعنوية لحكومة لوبيا وشعبهـا بعد أن كاد اليأس يتطرق الى مقـدرة بحرية البلاد ولأول مرة فى تاريخ البلاد تقع سفينة حربية امريكية فى الأسر وهى التى جاءت لتخويف من اسرها وأظهار ما لحـكومتها من سطوة بعد أن تأبت عن دفع ما طلب منها من اتاوة وقد افتخر يوسف باشا بهذا الحادث وما ترتب عليه من نتائج واعتبره انتصاراً له ضد اعدائه وفـكر فى استغلال هـذه السفينة فعمل على تعويمها . ويقول لنا الاستاذ لين پول فى كتابه السابق الذكر أنه فى ظرف اسبوع واحد تم للبحارة اللوبيين تحقيق هذا العمل وقد ساعدتهم الرياح كما استعانوا بالجزر البحرى الغير عادى فى ذلك الوقت وعملوا على إصلاح ما بها من خرق وتم سحبها الى الميناء وقدر لقائدها بينبردج Bainbridge وهو

1- Furlong C. W. The Gateway to the Shahara, P. 106.

اسير القلعة المطلة على البحر أن يرى سفينته وقد رست فى المكان الذى كان يجب عليه أن يرسيها فيه . وبدأت افواج الشعب من عرب الدواخل والقرى المجاورة تفد على الميناء لمشاهدة مصير هـذه السفينة التى حاولت المس من كرامة بحريتهم بالاعتداء على مينائهم وقلاعها وكانوا كثيراً ما يستأجرون القوارب الصغيرة لعمل جولات بحرية استطلاعية حولها وقد رفع عليها علم البلاد الاسلامى ذو النجمة والهلال بعد أن كان يرفرف عليها العلم الامريكى واستخدمت الحكومة ما تبقى من مدافعها على ظهرها فى اطلاق النار اعـلاناً بقدوم شهر رمضان ونهايته وبداية ايام عيـد الفطر وقد تصادف ان كان اسرها فى ذلك الوقت . والخلاصة أن أسر هذه السفينة ترك أثراً قوياً فى نفوس الشعب عامة والحكومة خاصة بدرجة لا يمكن تبيينها ويكفى أن نعرف أن يوسف باشا كان يسخر من وزيره الحاج محمد بيت المال ويشتد فى سخريته كلمـا نبهه إلى ضرورة محاولة الامريكيين انقاذ هذه السفينة والاستعداد لمواجهة مثل هذه المحاولة أو غيرها .

وكان لهذا الحادث أيضا صـداه فى بقية الشعوب الأوربية وإن كانت فى ذلك الوقت فى شغل شاغل عنه بحروب نابليون واخطارها إلا أنها رأت فيه انذاراً قوياً لكل الحكومات المسيحية التى ترفض الخضوع لطلبات حكام الشمال الافريقى بصفة عامة ويوسف باشا بصفة خاصة . وكان أيضا لهـذا الحادث أثره الفعال فى كل بلاد المغرب اذ قابله الاهالى بفرح واستبشروا به وتناقلوه على الالسن مما شجعهم وبعث فيهم الأمل قوياً بعد ما شاهدوه من عمل القائد الامريكى بربل Preble مع سلطان مراكش قبل هذا الحادث مباشرة كما سبق بيانه .

أما واشنطون العاصمة الامريكية وشعبها الناشىء فقد تلقت خبر هذه السفينة بحزن شديد واكتسحتهم موجـة من الغضب وطالب الشعب بعمل

حاسم لرد هذا العار الذى لحقهم وكان هذا الشعور أقوى ما يكون لدى رجال البحرية الامريكية انفسهم . أما القائد العام بربل Preble الذى وكل إليه أمر هذه الحملة وتنظيمها والذى كلف بينبردج للقيام بالهجوم على ميناء طرابلس فقد وصل إليه خبر هذا الحادث وهو فى طريقه الى طرابلس من بارجة بريطانية تقابل معها عند صقلية وكان حادث السفينة « فيلادلفيا » بالنسبة له ضربة قوية فهو إلى جانب ما رأى فيه من عار للبحرية الامريكية التى يتولى أمر قيادتها فى هذه المهمة قد سبب له خسارة كبيرة يصعب عليه تعويضها إذ كانت هذه السفينة تمثل أكثر من ثلث قوته المحاربة كما أن كثرة عدد بحارتها المأسورين إلى جانب قائدها قد أعطى يوسف باشا فرصة ذهبية يستطيع بها المساومة فى المفاوضات المقبلة واملاء الشروط التى يرغبها .

فكر بربل Preble فيما حل به من هزيمة بحرية وصمم على القيام بعمل حازم يرد إليه على الأقل كرامة بحريته المخدوشة ورأى أن يكون ذلك بتحطيم السفينة المأسورة بعد أن رأى من الصعب عليه استعادتها حتى لا تستفيد منها البحرية اللوبية فيما بعد ووقع اختياره على الضابط الشاب ستيفن ديكاتور Lieutenant Stephen Decatur الذى كان يقوم بقيادة السفينة Intrepid للقيام بهذه المهمة على أن تقوم السفينة سيرن Siren بقيادة اللفتنانت تشارلز ستيورت Lieutenant Charles Stewart بحراسة هذه السفينة اثناء القيام بهذه العملية وتغطية انسحابها ومساعدتها إذا تكاثرت عليها قوارب العدو . واستعد ستيفن ديكاتور لتنفيذ ما كلف به خير استعداد باختيار الرجال الشجعان والمواد الضرورية لمثل هذا العمل. وابحرت السفينة Intrepid من سيراكوزة فى اليوم الثالث من شهر فبراير سنة ١٨٠٤ فى طريقها إلى طرابلس وكان لهذه السفينة نفسها تاريخ وعلاقة قديمة بالبحرية اللوبية فهيكلها الاصلى كان لسفينة حربية فرنسية أسرها الانجليز فى ساحل مصر إبان غزو نابليون لها وقدمتها البحرية الانجليزية هدية الى بحرية يوسف باشا ثم استطاع هذا الضابط الامريكى ديكاتور Decatur أن

بأسرها وهي فى طريقها الى القسطنطينية محملة بهدية من الجوارى للوزير الأكبر وهكذا آلت ملكيتها للبحرية الامريكية وأن تقوم بهذه المهمة .

وشاءت الظروف أن تهب ريح قوية دفعت بالسفينة الى الشرق من ميناء طرابلس هذه المرة كذلك حتى اوصلتها الى خليج سرت . ولكن قائدها استطاع أن يتغلب على هذه العاصفة وأن يعود إلى ميناء طرابلس حيث ظهرت له المدينة فى اليوم السادس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٠٤ واستطاع ديكاتور بالطريقة التى وضعها أن يخفى حقيقة السفينة سيرن Siren باخفاء بحارتها واظهار القليل منهم على ظهرها حتى لا تثير كثرتهم شكوك رجال البحرية اللوبية وأمعن فى هذه التغطية بالباس البحارة ملابس المالطيين حتى ظهرت السفينة كأنها سفينة مالطية تجارية تجاهد لدخول الميناء . وعندما اقبل الليل قام الضابط الامريكى ديكاتور Decatur بمعاونة بعض رجاله بهجوم خاطف على السفينة « فيلادلفيا » الراسية فى الميناء واشعلوا النيران فيها ونجحوا فى الانسحاب سالمين بعد اتمام مهمتهم هذه وعندما تنبه الحراس من البحرية اللوبية على صوت الانفجارات وأضواء اللهب حاولوا عبثاً اللحاق بالاعداء لما أصابهم من ذعر ولأخذهم على غرة وقد ساعد على احتراق « فيلادلفيا » ما استعمل فى احراقها من مواد ملتهبة وما كان قد تبقى فى مخازنها من بارود وقد ظلت تحترق لمدة ثلاثة ايام تحولت خلالها سماء المدينة إلى لون نحاسى من شدة اللهب واستمرار اندفاعها حتى أن الكثير من سكان الجهات الداخلية استطاعوا رؤية هذه النيران على مسافة بعيدة بلغت جبل غريان وجبال ترهونه .

أما لماذا لم يحاول الامريكيون انقاذ سفينتهم بدل حرقها بهذا الشكل فهذا مثار سؤال واستفهام ونقطة تصلح للمناقشة والتحليل لرجال الحرب غير أن الذى يمكننا أن نقوله أن الأوامر الصادرة للضابط البحرى الذى قام بهذه المهمة كان تنفيذها بهذا الشكل . ويبدو أن القائد الأعلى بربل Preble الذى

اختار ديكاتور Decatur للقيام بهذه المهمة قد تأكد لديه صعوبة استعادةهذه السفينةمن العدو وهى راسية فى مينائه وتحت حماية بطارياته الحربية. وإذا كان الأمركذلك فلا أقل عليه من حرقها حتى لا يستفيد منها العدو وحتى لا يكون بقاؤهاعاراً للبحرية الامريكية يتبين لنا ذلك من موجة الفرح والسرور التى شملت الرجال الذين قاموا بهذه المهمة ونجاحهم فيها والتى عمت كذلك بلاد الولايات المتحدة الامريكيـة حتى أن الـكنجرس Congress لم يتوان فى اظهار رضـائه عن هذا العمل فمنح ديكاتور Decatur سيف الشرف ورقاه الى رتبة كابتن .

أما فى بقية الدول الأوربية فكان لحادث حرق السفينـة « فيلادلفيا » بعد أسرها رد فعل قوى نظر إليـه الجميع على أنه مظهر من مظاهر التحـدى الذى يمكن أن تقفه الدول فى المستقبل . وإذا كان نلسون Nelson القائد البحرى الانجليزى المعروف صاحب موقعة أبى قير البحرية فى مصر وموقعة الطرف الأغر وهو الخبير بمثل هذه الأعمال وأهميتها قد قال عنه « أنه اشجع واجرأ عمل فى العصر (١) » فان هذا القول على كل حال يعطينا من جهة أخرى المدى الذى كان ينظر به الأوربيون نحو بحرية لوبيا فى ذلك الوقت الى حـد كبير .

وعلى العمـوم كان فى هذه الخطـة التى وضع اساسها القائد بربل Preble والتى نجح فى تنفيذها ضابطه الشاب ديكانور Decatur بصحبة رجاله ما عكر على اللوبيين فرحهم باسر هذه السفينة الحربية الامريكية وجعلهم يفكرون جيداً فى هذا التحدى الظاهر ويحسبون للمستقبل حسابه وسرعان ما تحقق ظنهم إذ دفع هذا النجاح الذى احرزه الامريكيون القائد الامريكى Preble إلى المجىء الى ميناء طرابلس فى الخـامس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٨٠٤ فى حملة بحرية قوية قوامها خمس عشرة قطعة وقام بخمس هجمات متتاليات على المدينة

---

(١) Furlong C. W. the Gateway to the sahara, P. 105.

بشكل عنيف ولكن المدينة استطاعت أن تقاوم هذا الهجوم بقلاعها وحصونها وعزيمة رجالها رغم ما أصابها من ضرر بليغ .

عند ذلك لم يجد الطرفان بدأ من عقد الهدنة وعاد كل منهما يستعد من جديد للملاقاة مرة أخرى . واعفى القائد بربل Preble من وظيفته لما لحقه من تعب مرهق وكافأته حكومته على أعماله البحرية المجيدة ضد البحرية اللوبية بتقديم المدالية الذهبية إليه كما أن مجلس الكونجرس Congress قد عبر له عن شكره له ولرجاله الشجعان الذين تعاونوا معه لما قاموا به أعمال مجيدة .

وفى سنة ١٨٠٥ تجدد الهجوم الامريكى مرة أخرى على لوبيا ولكنه فى هذه المرة اتخذ شكل الهجوم البحرى والغزو البرى. أما الغزو البرى فكان ممثلا فى تلك الحملة البرية التى نظمها وقادها الكابتن وليم ايتون William Eaton الذى سبق ذكره كقنصل للولايات المتحدة الامريكية فى تونس وذكر ما قام به من دور فى هذا النزاع قبل استفحاله وكيف فشل فى تسويته وقد استطاع الاتصال هذه المرة كذلك « بسيدى احمد بك » شقيق يوسف باشا فى الاسكندرية واستغل ما كان يضمره من عداوة لأخيه بسبب اغتصاب العرش منه وأعد بالاشتراك معه حملة برية هجومية على الحدود الشرقية للوبيا ورغم ما عاناه ايتون من مصاعب فى اعداد حملته هذه وتسييرها فإنه استطاع بالتعاون مع البحرية الامريكية أن يكون فى التاريخ المحدد عند مدينة درنة . وهكذا تعرضت هذه المدينة لهجومين فى وقت واحد وقد قام أهلها بدفاع مجيد ضد هذا الاعتداء وزادهم فى هذا ما شعروا به من استياء من « سيدى احمد بك » لاستعانته « بالكفار » ضد أخيه إلا أن هذا الدفاع لم يكن منظماً ولم يكن على مقدرة لصرفه فى اتجاهين مختلفين فاكتسحت السفن الحربية بقيادة Lieutenant O'Bannon of the Marines نقط دفاعهم بعد أن توقف الجيش البرى عن العمل لنقص فى امتداداته وذخيرته الحربية المطلوبة ولهذا لم

يكن انتصار الامريكيين حاسماً فتهيأ الجو لفتح المفاوضات بين الطرفين فى ٤ يونيو سنة ١٨٠٥ خصوصاً وأن قوات الباشا قد أخذت فى الوصول الى منطقة درنة لنجدة أهلها . وتم امضاء المعاهدة بين الطرفين وقد نصت فيما نصت عليه من شروط اعفاء دولة الولايات المتحدة الامريكية من دفع أى سنوية فى المستقبل مع عدم التعرض لسفنها البحرية وتم اطلاق سراح بينبردج وزملائه البحارة الذين أسروا مع سفينتهم «فيلادلفيا» فى مقابل دفع مبلغ ستين الف دولار للباشا.

هكذا قدر للولايات المتحدة الامريكية أن تنجح فيما فشل فيه غيرها على مر السنين وكان لنجاحها هذا أثر كبير فى تطور بحريتها الناشئه فيما بعد حتى أصبح لها شأن آخر ولا نغالى إذا قلنا أن هذا النجاح هو الحجر الأساسى الذى بنت عليه البحرية الأمريكية سمعتها والذى سار بها إلى الأمام وما زال هناك بين الأناشيد التى يتغنى بها رجال البحرية الأمريكية نشيد خاص يتناول أعمال بحريتهم هذه ويمجدها ويفخر بها وما زال الأسطول البحرى للولايات المتحدة الأمريكية يضم مدمرتين باسم بينبردج Bainbridge وباسم ديكاتور Decatur تخليداً لذكرى هذين الضابطين وأعمالهما ضد البحرية اللوبية وما زال كذلك من ضمن الأعياد المرعية عند شعب الولايات المتحدة اليوم الموافق للثلاثين من شهر مايو وهو العيد المعروف بعيد التزيين Decoration day لتزيين قبور رجال خدمتهم بالزهور ومنذ ثلاثة أعوام فقط وافق مجلس الكونجرس Congress الأمريكى على تخصيص ذلك اليوم التذكارى كيوم للصلاة العامة من أجل دوام السلام العام فى كافة أنحاء العالم . ويعتبر الأمريكيون هذا اليوم من العطلات الرسمية التى تعطل فيها الأعمال فى الولايات المتحدة الأمريكية . وفى الصورة المقابلة يرى المستر فيلارد Mr. Villard الوزير المفوض للولايات المتحدة الأمريكية فى لوبيا وهو يضع أكليلا من الزهور على قبور البحارة الخمسة الذين فقدوا

فى الحرب بين بلاده ولوبيا وقد اهتدت القنصلية الأمريكية بمدينة طرابلس إلى كشف قبورهم فى عام سنة ١٩٤٩ . كما أن وحدات من الأسطول الامريكى السادس وصلت فى اليوم الثانى من شهر يوليو سنة ١٩٥٠ إلى ميناء مدينة درنة حيث أقام البحارة الأمريكيون فى يوم الاثنين الموافق ٤ يوليو وهو يوم ذكرى عيد استقلال الولايات المتحدة الامريكية لوحة تذكارية عند القلعة الكائنة داخل سور المدينة من الناحية الجنوبية والتى تعرف الآن باسم «الحصار» أو كما يسميها البعض «بالقلعة الامريكية» إحياء لذكرى جنود أمريكا الذين وقعوا عند هذه القلعة .

وخلاصة القول أنه إلى جانب النتائج الأدبية التى تحصلت عليها الولايات المتحدة الأمريكية من انتصارها على البحرية اللوبية فإن نزاعها مع لوبيا كان أقوى عامل فى تمكين بحريتها فيما بعد .

أما لماذا لم تحاول الولايات المتحدة الأمريكية احتلال لوبيا فى ذلك الوقت وهى المنتصرة فهذا أيضاً محل سؤال واستفهام وإن كان هناك ما يبدو أن الأمريكيين قد خطرت ببالهم هذه الفكرة واستعرضوها من كل الوجوه بدليل ما أقاموه من حصون حـول مدينة درنة متمثلة فى تلك القلعة التى شيدوها على تل فيما وراء المدينة للدفاع إذا حاول اللوبيون استردادها وقد ذكر الرحالة بتشى Beechy (١) عندما زار البـلاد فى عهد يوسف باشا أنه قد وجدها مجرد أكوام من الاطلال قد ألقيت مدافعها على الأرض وقد تكون الأعمال الحربيـة الأمريكية فى أساسها لم تبن على هـذا الغرض وأنها كانت مجرد حملة تأديبية ولذا فضلت عدم التمادى فى مثل هذا العمل العدوانى حتى لا تتورط فى الاصطدام مع قوات يوسف باشا وقد كانت حتى ذلك الوقت لم

1— Beechy F. W., Beechy H. W.:- Proceedings of the expedition to explore the Northern Coast of Africa, P. 473. «London, 1828».

تتأكد من ضعفها العام وسهولة القضاء عليها دون بذل مجهود كبير وقد يكون ذلك أيضاً كما ذكره الرحالة بلاكييرى Blaquiére الذى زار البلاد عقب هذه الحوادث بمدة ليست بالطويلة وهو أن الولايات المتحدة وإن كانت قد فكرت فى الاستيلاء على البلاد إلا أنها خشيت التدخل الانجليزى والفرنسى ففضلت الانسحاب على الاصطدام معهما فى ميدان التوسع الاستعمارى الذى ساد القرن التاسع عشر . وعلى كل فقول المستر بلاكييرى Blaquiére لا يخلو من الحقد على الأمريكيين كما يظهر لنا ذلك فى مناسبات متعددة فى رسائله التى بعث بها من طرابلس إلى لندن أثناء زيارته للبلاد ويبدو أن الكراهية بين هذين الشعبين لم تكن قد اندثرت معالمها حتى ذلك الوقت وإلا لما لجأ المستر بلاكييرى إلى الكثير من تعابير التعريض بالأمريكيين كلما واتته مناسبة فى رسالة من رسائله السابقة الذكر .

وعلى العموم بقدر ما أصابت الولايات المتحدة الأمريكية من نجاح ومستقبل بحرى عظيم أصيبت لوبيا فى صميم كيانها بانزال هذه الصدمة القوية بهيبتها البحرية الأمر الذى أطمع فيها الغير وكشف ضعفها للعيان ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا الانتصار البحرى الذى أحرزه الأمريكيون على البحرية اللوبية كان أقوى عامل فى اضعاف الدولة اللوبية وبالتالى القضاء على حكم الأسرة القرهمانلية بعزل آخر ولاتها لما حل بالبلاد من فوضى وتدهور مالى عام . بل ان هذا الانتصار البحرى الذى أحرزه الأمريكيون قد تعدى أثره لوبيا إلى البلاد الاسلامية المجاورة ولم يقتصر على لوبيا وحدها وسجل بداية ضعف البحرية المغربية أمام الأعداء وقد عرفت الولايات المتحدة الأمريكية كيف تستغل نتيجة هذا الانتصار ورد فعله فى بلاد المغرب فأرسلت حملة بحرية فى سنة ١٨١٥ إلى مدينة الجزائر حاملة المستر وليم شلر William Shaler كقنصل لها هناك للمفاوضة مع حكومة الجزائر ويساعده

كل من الكابتن بينبردج Bainbridge والكابتن ستيفن ديكاتور Stephen Decatur واستطاعت بهذه الوسيلة التهديدية وبما كان فى نفوس أهل الجزائر من رد فعل سيء لما حدث مع يوسف باشا أن تبرم معاهدة مع حكومة الجزائر فى ٣٠ يونيو سنة ١٨١٥ تم بمقتضاها الغاء ما تدفعه الولايات المتحدة الامريكية من سنويات للجزائر مع استعادة كل الأسرى الامريكيين وهكذا لم يقتصر ما حل بالبحرية اللوبية على البلاد وحدها بل تعداها إلى ما يجاورها من البلاد الاسلامية الأخرى .

... ...

وقد خجلت بريطانيا لهذا النجاح الباهر الذى حصلت عليه الولايات المتحدة الأمريكية وهى الناشئة الجديدة فى الميدان البحرى والتى لا تقاس قوتها البحرية بشيء بجانب ما لبريطانيا فى هذا الميدان فتشجعت لتجريب حظها من جديد وقد واتتها الفرصة فأرسلت اللورد اكسموث Lord Exmouth (سابقاً السير ادوارد بيلو Sir Edward Pellew) بقوة بحرية كبيرة للحصول على ما فازت به الولايات المتحدة الامريكية . وكانت وجهته تونس ومدينة طرابلس واستطاع أن ينجح إلى حد كبير فى تحقيق بغيته وتحصل من يوسف باشا على تعهد بالالغاء التام لاستعباد المسيحيين بل ذهب إلى أبعد من هذا وأصبح بما له من قوة تهديدية يتدخل فى علاقات يوسف باشا مع بقية دول البحر الابيص المتوسط فى مثل هذا الخصوص . وفى المعاهدة(١) المبرمة بين يوسف باشا ومملكة سردينيا فى ٢٩ ابريل سنة ١٨١٦

---

١ — توجد نسخة منها مطبوعة في تورين بايطاليا سنة ١٨١٦ ومكتوبة باللغات الثلاث الايطالية والانجليزية والفرنسية إلى جانب المعاهدة التى أبرمت مع كل من تونس والجزائر . وكانت هذه النسخة ملكا للسيد على القرمانلى وقد تكرم باهدائها إلى دار المحفوظات بمدينة طرابلس وقد أطلعنى عليها .

ما يثبت لنا جلياً هذا التدخل حيث نراه قد قام بدور الوسيط بين الطرفين بل كان هو الممثل الشرعى لحكومة سردينيا فى هذه المعاهدة والموقع عليها بالاشتراك مع المستر هانمر وارنجتون Hanmer Warington القنصل العام لبريطانيا فى طرابلس بالنيابة عن ملك سردينيا الملك فيتوزيو عمانوائيل واستطاع الحصول لسردينيا على شروط ومعاملة خاصة شبيهة بتلك التى تحصل عليها لرعايا بريطانيا بل استطاع أن يلحق بهذه المعاهدة اعلاناً من طرف يوسف باشا يتضمن تعهداً بعدم استعباد الأسرى المسيحيين فى أى حرب مقبلة وتحتيم معاملتهم كأسرى حرب حتى يتم تبادلهم بالاتفاق معه حسب ما يجرى عليه العرف لدى الدول الأوربية وتتم عودتهم إلى بلادهم دون دفع أى فدية.

وهكذا أيضاً تشجعت بقية الدول الاوربية الأخرى وكانت حروب نابليون التى شغلت العالم قد انتهت فوجدت الفرصة الكافية للاهتمام بهذه الناحية لمعالجتها بحزم حتى إذا كان مؤتمر اكس لا شابل سنة ١٨١٨ Aix La Chapelle اتفقت الدول الأوربية على العمل سوياً بتضامن تام فى سبيل مكافحة البحرية المغربية مما مهد فيما بعد لأن تغزو فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ لاحتلالها. وأمام هذا التعدى من جانب الأوربيين على ما للسلطان العثمانى من سيادة أعادت الدولة العثمانية النظر فى حالة بقية بلاد المغرب وانتهزت فرصة ما آل إليه حال لوبيا من سوء فى آخر عهد ولاية يوسف باشا فاستعادت البلاد من جديد لسلطانها سنة ١٨٣٥ وهكذا زال ما للبحرية اللوبية من وجود بنهاية حكم الأسرة القرەمانلية . وبالموقف الجديد الذى اتخذته الدول الأوربية الاستعمارية فى القرن التاسع عشر تجاه بلاد الشمال الافريقى .

. . .   .

يتضح مما تقدم أن لوبيا تشغل بسواحلها نقطة هامة حساسة فى حوض البحر الابيض المتوسط وأن البحرية اللوبية استطاعت بنشاطها أن تتحكم فى الملاحة فى حوض البحر الأبيض المتوسط كله واستطاعت أن تحتل مكانة بحرية عظيمة إلى أن فقدت تلك السيادة على أيدى الأمريكيين والدول الاستعمارية فحلت تلك الدول محل اللوبيين فى التمتع بهذه السيادة وقد فطنت ايطاليا فى الأعوام الأخيرة إلى أهمية الساحل اللوبى واستولت عليه إلى أن انتهت سيادتها على أثر الحرب العالمية الثانية . ويدرك الامريكيون الآن هم والانجليز أهمية شواطئنا ويحاولون أن يتخذوا لأنفسهم بها قواعد حربية تنفعهم إذا اصطدمت قوتا الشرق والغرب . وجدير بأهل البلاد ألا يحرموا أنفسهم من النشاط البحرى وأن يعنوا بالملاحة التجارية والحربية على السواء بقـــدر ما تسمح لهم به امكانياتهم والقليل مع المثابرة كثير . وللوبيا غير هذا المجال البحرى محيطات من الصحارى يجب عليها أن توفر لها الطرق المعبدة وأن تسير فى هذا المضمار إلى أحسن مما وصل إليه آباؤنا على ما نشرحه فى الفصل الآتى .

المصــــادر

١ ـ ابن غلبون : تاريخ طرابلس الغرب (طبعة القاهرة ١٣٤٩ هـ) .

٢ ـ اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (طبعة بولاق بمصر سنة ١٣١٤ هـ ، جـ ٢) .

٣ ـ النائب : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب (اســــطنبول سنة ١٣١٧) .

٤ ـ حسين مؤنس: الشرق الاسلامى فى العصر الحديث(القاهرة سنة١٩٣٨).

٥ ـ بعيو : المجمل فى تاريخ لوبيا (الاسكندرية سنة ١٩٤٧ م) .

٦ ـ James Fairgrieve : Geography and world Power

٧ ـ S. Lane-Poole : The Barbary Corsairs, Third Edition

٨ ـ Charles Wellington Furlong : The Gateway to the Sahara, New-York 1909.

٩ ـ Lieut - Colonel Gordon Casserly : Tripolitania, London 1943.

١٠ ـ E. Blaquière : Letters from the Mediterranean, vol. 11, London 1813.

١١ ـ Richard Tully : Narrative of a ten years residence at Tripoli in Africa, Second Edition, London 1817.

١٢ ـ Michael Russell : History and Present Conditions of the Barbary States, Edinburgh, 1835.

١٣ ـ E. W. Bovill : Caravanas of the Old Sahara, an introduction to the History of the Western Sudan, London 1933.

١٤ ـ Sir Harry H. Johnston : A History of the Calonization of Africa, "Cambridge at the University Press 1913".

١٥ ـ F. W. Beechy, H. W. Beechy : Proceedings of expedition to explore the Northern Coast of Africa, London 1828.

١٦ ـ L. Charles Feraud : Annalles Tripolitanes "Publiées avec une introduction et des notes par Augustin Bernard, Paris, 1927.

١٧ ـ R. Micacchi : La Tripolitania Sotto la Dominazione dei Caramanli, Rome 1936.

« تسعة أعشار الرزق فى التجارة »

حديث شريف

« التجارة نصف الامارة »

حديث شريف

لوبيا وتجارة القوافل

أثر الصحراء فى أهل لوبيا ـ أوجه الشبه بين الفينيقيين واللوبيين ـ متى بدأ اللوبيون نشاطهم التجارى فى الصحراء ـ تجارة القوافل فى العهد الفينيقى ـ فى العهد الرومانى ـ الجمل وتجارة القوافل ـ تجارة القوافل فى العهد العربى ـ تدهور تجارة القوافل فى العهد العثمانى ـ اهتمام القره مانليين بتجارة القوافل ـ تجارة القوافل والحركة الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ـ العوامل التى أدت الى القضاء على تجارة القوافل ـ المصاعب التى يقابلها أصحاب القوافل التجارية ـ وسائل ضمان نجاح تجارة القوافل ـ طرق تجارة القوافل وأنواعها وأهمية كل منها ـ القبائل التى اشتهرت بتجارة القوافل ـ أثر تجارة القوافل فى حياة البلاد.

عرفنا فى الصفحات السابقة كيف لعبت لوبيا دوراً هاماً فى سياسة حوض البحر الابيض المتوسط بفضل مالها من موقع جغرافى وبفضل حسن استعداد أهلها لاستغلال ما لهذا الموقع من أثر فعال فى هذا الميدان الشمالى منها . غير أن الدور الذى لعبته لوبيا فى الميدان الآخر الجنوبى وأعنى به ميدان الصحراء لم يقل أهمية عنه إن لم يزد عليه واذا كانت لوبيا قد قدر لها أن تجد من استطاع منافستها منافسة قوية فى الميدان البحرى وبالتالى الوصول الى القضاء على مالها من سيادة بحرية فيه فإنها استطاعت أن تنفرد بالميدان الصحراوى دون أى منافس له بال من الخطورة حتى كانت لها السيادة مطلقة تامة على مر الايام وإن ظهرت فى بعض الفترات بمظهر الضعف وقد استمر الحال كذلك الى أن جد من الأحداث والاكتشافات البحرية ووسائل النقل ما عطل هذه السيادة وإن كانت هناك بقية ما زالت قائمة تثبت لنا ذلك الماضى المجيد لهذه السيادة الصحراوية وتدعونا إلى التفكير فى احيائها من جديد .

والعجيب أنه فى الوقت الذى اساءت فيه الصحراء إلى لوبيا فى كثير من النواحى نجدها قد أفادت أهلها من ناحية أخرى حيث أكسبتهم نوعاً معيناً

من الحيـاة يصعب على الغير ممارستها أو الخضوع لظروفها ومن هنا جاءت لهم الغلبة فى هذا الميدان ومن هنا كانت لهم السيادة على غيرهم ممن حاول منافستهم فى هذه الناحية دون أن يكتسب ما يؤهله للقيام بمثل هذا الدور وهو دوركان لا غنى للبشرية عنه فى ذلك الوقت وحلقـة ضرورية لا يمكن تخطيها فى سبيل تطور الحضارة الانسانية فى اكتشاف الطرق البحرية وما جد من اكتشافات جغرافيـة اخرى فى العصر الحديث . وهنا أيضاً تتأكد لنا قيمـة الصحراء كعامل جغرافى كبقية العوامل الجغرافية الأخرى التى ساهمت بدورها فى نشأة الحضارة الانسانية وتطورها ويتبين لنا فضل الصحراء فى اعـداد مثل اللوبيين للقيام بما قاموا به وقت أن كان الوصول الى أواسط افريقيـة أمراً مقصوراً عليهم لا يجرؤ أحد على محاولة منافستهم فيه .

ولوبيا بموقعها الجغرافى أيضا قد تهيأت لأن تـكون حلقة الصلة بين غيرها ممن يحدها شمالا وجنـوباً فهى بشريطها الساحلى تـكون الحافة الجنوبيـة لاقليم البحر الأبيض بمناخه ونباته المعروفين وما يترتب عليهما من قيام نوع معـين من الحيـــاة لسكانه وهى باجزائها الجنوبية الصحراوية تحـد اقليم السودان وما يليه من مناطق استوائية اخرى معروقة بانتاجها النباتى والحيوانى وضرورة هذا الانتاج لشعوب أوربا بصفة عامة وأهـــالى حوض البحر الأبيض بصفة خاصة . ولوبيا كذلك بساحلها الطويل المنحنى نحو الجنوب قد أصبحت موانيها أقرب المنافذ للوصول إلى مواطن هذا الانتاج الاستوائى إذ أنها تكاد تـكون خطاً مستقيما بين مواطن الانتاج وأسواق الاستهلاك الأمر الذى سهل حركة التجارة بين الطرفين وساعد اللوبيـــين على القيام بدور الوسيط بينهما فعادت عليهم هـذه الحركة التجـاريه بالأرباح الطائلة الى جانب ما أكسبتهم من روح المغامرة وتحمل المتاعب فى سبيـل الوصول إلى ما يحقق لهم الآمال وفى ذلك ما يضمن لهـم تخفيف ما لاقوه من مشاق ونسيان الامها إذا أمعنوا النظر فيما

تحصلوا عليه من أرباح طائلة .

وإذا كان الفينيقيون قد عرفوا بأقدميتهم فى فن الملاحة البحرية حتى أصبحوا اساتذة لغيرهم وحتى أصبحت « الفينقة » الصفة الخاصة بكل شعب تعلم فن الملاحة وأجاد ممارسة شئونها فإنه يحق لنا أن نسمى اللوبيين بفينيقى الصحارى و « التلوب » صفة كل شعب تعلم فن الملاحة الصحراوية وأتقن ممارسة شئونها . وما أقرب الشبه بين الطرفين . فكلاهما اتخذ البحر مسرحا انشاطه وأعماله وإن كان بحر الفينيقيين من الماء وبحر اللوبيين من الرمال . وكلاهما اقترنت أعماله بالصبر ومواصلة السعى رغم المصاعب والمتاعب . وإذا كان الفينيقيون قد اتخذوا من السواحل وجزر البحر الأبيض مشجعاً لهم على نشاطهم التجارى فإن اللوبيين كذلك قد اتخذوا من الواحات المنتشرة فى الصحراء محطات لهم للاستراحة والتزود بما يحتاجون اليه فى رحلاتهم وتجديد عزم السائرين منهم فى الصحراء . وإذا كان الفينيقيون قد اتخذوا من البحر ثوباً شفافاً واحتموا به من أى اعتداء مفاجىء فان اللوبيين بالمثل قد التفوا بثوب الصحراء الشفاف واحتموا به من أى اعتداء وحافظوا به على سلامة شرايينهم الممثلة فى هذه الطرق التجارية المنتشرة بطول البلاد وعرضها . وإذا كان الفينيقيون قد اتخذوا السفن المصنوعة من الاخشاب مطية لهم فى رحلاتهم ولنقل بضائعهم فإن اللوبيين كذلك قد اتخذوا من الجمل سفينة لهم وما سمى الجمل بسفينة الصحراء إلا لما فى رحلاته وطبيعة الأرض التى يغلب عليه قطعها من تشابه كبير مع طبيعة البحر . وإذا كان الفينيقيون قد عانوا الكثير من أهوال البحر وأمواجه وتفننوا فى طرق مقاومة هذه الأخطار فإن اللوبيين بالمثل قد عانوا الكثير من أهوال الصحراء وأمواجها المتحركة الممثلة فى الكثبان الرملية وزحفها وقد تفننوا ايضا فى طرق مقاومة هذه الاخطار بطرق لا تختلف كثيرا عما أتى به الفكر الفينيقى . فالفينيقيون مثلا كانوا فى رحلاتهم يسيرون بحذاء السواحل واللوبيون أيضاً كانوا دائما لا يبتعدون كثيراً عن معاطن

المياه والواحات المنتشرة حتى يستنجدوا بها إذا حل بهم العطش أو التعب بل كانوا لاينتقلون من واحة إلا بعد أن يتحققوا من وصولهم إلى واحة اخرى بعد قطع مرحلة معينة من السفر وكان لهم فى خضرة الواحات ونخيلها ما يرشدهم الطريق إذا ضلوه كما كان لجبال الجزر وما يوجد بها من معالم أخرى فضل هداية الفينيقيين إليها إذا التبس عليهم أمر السفر . والفينيقيون قد رسموا لسفنهم طرقاً معينة يسلكونها فى اسفارهم لضمان سلامتهم واللوبيون أيضا قد رسموا لأنفسهم طرقاً لرحلاتهم حتى أصبحت واضحة المعالم مما سهل أمر السفر عليهم وعلى كل من أتى بعدهم . وكل من الطرفين قد اتخذ من اللباس ما ساعد على العمل فى السفر فالفينيقيون ارتدوا اللباس البحرى بطابعه المعروف واللوبيون اتخذوا « الجرد » وقدوجدوا فيه خير معين لهم على تحقيق أغراضهم . والمعروف أن اللوبيين قد اعتادوا فى رحلاتهم التجارية عبر الصحراء ألا يرفعوا معهم خياما حتى لا تشغلهم بحملها وحتى يستغلوا مكانها بالبضائع واستعانوا بالجرد وبعض العصى التى يسوقون بها جمالهم على اقامة ما يشبه الخيمة للاستظلال من لفح الشمس وقت الظهيرة وفى الالتحاف بالجرد وقاية لهم من حر الصيف وبرد الرياح فى ايام الشتاء وفى طياته أمكنهم أن يحملوا بعض ما يلزمهم من اشياء يكثر الاحتياج الى استعمالها اثناء السفر الأمر الذى لا يتفق وحفظها ضمن بضائعهم المحزومة . والفينيقيون قد عانوا الكثير من قرصنة البحر بصفة عامة وقرصنة الاغريق بصفة خاصة وكانوا يدفعون الاتاوات لحماية أنفسهم وكثيراً ما لجأوا الى تغيير خط سيرهم من وقت لآخر تحت ضغط التهديد أو خطر النهب والسلب وبالمثل عانى اللوبيون الكثير من النهب والسلب أو ما يمكن أن نسميه بالقرصنة وبالمثل ايضا تفننوا فى مقاومة هذا الخطر أما بالسفر فى قوافل على هيئة جماعات قد أخذت الحيطة لكل هجوم مفاجىء وإما بالعمل على استرضاء أعدائهم بدفع اتاوات معينة أو تخلصوا من كل ذلك

بتجنب مواطن الخطر واتباع طرق اخرى أكثر امنا وسلاماً . وكل من الشعبين أحب السفر وانتشر بانتشار أسواق تجارته وعاش في غير بلاده وعرف كيف يعيش فى بلاد الغير وإن كانت هجرة الفينيقيين أوسع مدى وأكثر تنظيما بسبب البحر وتسهيله لهذه المهمة . وإذا كانت موجات الفينيقيين قد تتابعت بكثرة على أثر الاخطار التى هددت موطنهم الأصلى فتخلصوا منها بالهجرة نحو الغرب وانتقلوا الى حوض البحر الأبيض المتوسط لا سيما بعد تخريب كل من صيدا وصور فبالمثل كان اللوبيون الذين سكنوا السواحل أو الجهات القريبة من الساحل حيث كان خطر تهديد الأجنبي لهم أكثر حدوثاً فاتقوا ذلك بالهجرة نحو الجنوب وأوغلوا فى الصحراء جنوبا حتى وصل بعضهم إلى اقليم السودان واندمجوا فى أهله واستوطنوا هناك وما زال للوبيين جالية محترمة فى كانو بنيجيريا كما يوجد منهم عدد كبير يحترف التجارة فى بقية البلاد المجاورة .

وإذا كانت طبيعة البلاد الفينيقية هى التى دفعت بأهلها إلى حب المغامرة ومحاولة كشف ما وراء الأفق كلما تطلعوا إلى مياه البحر فإن اللوبيين بالمثل قد دفعتهم طبيعة بلادهم إلى هذا النوع من المغامرة ومحاولة معرفة كنه الصحراء وما وراءها كلما تطلعوا إلى الأفق البعيد أمامهم فلم تقف دون بغيتهم المسافات الطويلة واستهانوا بها وما زلنا إلى يومنا هذا نرى اللوبى وهو يحدثك عن محل اقامته فى الصحراء أو أحد الأماكن المعينة مشيراً إلى قرب المسافة مع أنها فى الواقع تحتاج إلى ساعات وأحياناً إلى أيام للوصول إليها . وكان للوبيين فى كثرة الواحات ما دفعهم وشجعهم على الانتقال من واحة إلى أخرى فهم دائماً يرون الماء أمامهم لا يغيب عن نظرهم إلا ليروه من جديد . ولا بد أن اللوبيين قد بدأوا رحلاتهم الأولى بشىء من الحذر والخوف فى أول الأمر شأن كل شىء جديد ولكنهم سرعان ما أصبحوا

سادة الصحراء قد عرفوا مراعرها ومسالكها ودروبها واتخذوا لأنفسهم فيها طرقاً معينة فضلوها على غيرها لنقل تجارتهم فيما بين الساحل واقليم السودان وهذا ما يمكن أن نفسر به ضيق المساحات المزروعة فى الواحات حيث تتوفر المياه بكثرة فى بعضها لأن أهلها قد اشتغلوا بالتجارة والتاجر بطبيعة حرفته يستطيع جلب كل ما يحتاج إليه من غذاء وملبس دون حاجة للتوسع فى الزراعة حتى لاتشغله عن عمله الأساسى . وهذه المغامرات الصحراوية ولدت فى نفوسهم حب الحرية والاستماتة فى الدفاع عنها وبالتالى الشجاعة . وكثيراً ما حاولت الأمم التى قدر لها أن تبسط سيادتها على لوبيا أن تقضى على هذه الروح ولكن كان نتيجة مسعاها الفشل لأن اللوبيين قد وجدوا فى الجهات الداخلية خير ملجأ أمين لحمايتهم من تعسف الأجنبي ولهذا احتفظوا بحريتهم بل وسعى الأجنبي المغير فى كثير من الأحيان إلى التقرب منهم لأن فى ذلك صفاء للعلاقات الأمر الذى يتطلبه ازدهار التجارة بين موانىء الساحل وإقليم السودان . وكان هـذا أمراً ضرورياً لكل من نجح فى بسط سيادته على الساحل اللوبى ولهذا كثيراً ما كانت السيادة الأجنبية مقتصرة على الساحل وعلى بعض المدن بالذات وكثيراً ما كانت تلك السيادة اسمية على الجهات الداخلية بل أحياناً لم يعرف لها الأهالى وجوداً أو تعارضاً مع ما عودوا به أنفسهم من حرية تامة .

والخلاصة أن التقارب كان كبيراً بين الفينيقيين واللوبيين وأن هـذا التقارب قد سهل مهمة الاتصال بين الطرفين وجعلهما يتفاهمان بسرعة ويتعاونان سوياً فى ميدان التجارة على أن يتولى كل منهما من ناحية هذه المهمة بطريقته الخاصة وهكذا كان فى هذا التعاون البرى والبحرى مساعدة كبرى فى نشأة بعض المدن اللوبية وتطورها فيما بعد . وهكذا كانت هـذه المدن نقط الالتقاء بين البحر والصحراء حيث تلتهى إليها تجارة القوافل اللوبية البرية ليبدأ

من عندها النشاط التجارى للفينيقيين ممثلا فى قوافلهم البحرية .

... ...

ويصعب علينا تحديد الزمن الذى بدأ فيه اللوبيون نشاطهم الصحراوى التجارى وإن كنا نسلم بأنه قد تم على مراحل متتالية حتى وصل بهم إلى إقليم السودان إلا أن أقدم ما وصل إلينا بخصوص محاولاتهم الأولى فى هذا الباب ما جاء ذكره فى القصة التى رواها لنا هيرودوت بعد أن سمعها من بعض أهالى مدينة قورينا عندما كان فى زيارتها نقلا عن ملك واحة آمون «سيوة» عندما كانوا فى إحـــدى زياراتهم لمعبد الإله آمون إذ أخبرهم ملكها أن خمسة من الشباب من أولاد رؤساء قبيلة النازامونس Nasamones الذين كانوا يعيشون بالقرب من خليج سرت الكبير والذين امتدت مواطنهم إلى بعض المسافة فى الداخل قد دفعتهم غريزة حب الاستطلاع وروح المغامرة التى هى من طبيعة الشـباب إلى التوغل فى الصحراء جنوباً وقد زودوا أنفسهم بكمية وافيــة من الزاد والماء تمكنهم من قطع مسافة تزيد عما تعوده الناس فى ذلك الوقت عندما كانوا يتوغلون جنوباً . واستمر هؤلاء الشباب الخمسة فى رحلتهم الفريدة من نوعها بالنسبة لذلك العصر وقد انحرفوا فى مسيرهم نحو الغرب حتى وصـلوا بعد أيام عديدة إلى سهل به الكثير من الأشجار المحملة بالفاكهة وبينما كان هؤلاء الشـباب منهمكين فى جمع الفاكهة وإزالة ما بأنفسهم من تعب انقضت عليهم جماعة من الاقزام السود لم يكن التفاهم معهم من السهل على هؤلاء الشباب لجهل كل من الطرفين بلغة الآخر . واستطاع هؤلاء الاقزام حمل الشباب عبر مستنقعات واسعة هنـاك حتى وصلوا بهم إلى بلدة يتكلم أهلهـا لغة الأقزام أنفسهم وقد شاهد الشباب هناك نهراً كبيراً به كثير من التماسيح وهو يشق البلدة جارياً من الغرب إلى الشرق ثم تذكر لنا هذه القصة أن هؤلاء الشبان

المغامرين قد استطاعوا العودة بسلام إلى وطنهم الأول حيث قصوا على أهلهم وعشيرتهم ما شاهدوا وعاينوا(١)

وكان ملك واحة آمون قد ظن أن هذا النهر الذى وصفه الشبان الخمسة فى مغامرتهم هذه هو نهر النيل وقد شاركه فى هذا الرأى هيرودوت نفسه لأن كل منهما فى ذلك الوقت كان لا يعرف نهراً كبيراً فى افريقية إلا نهر النيل ولكن الغالب كما يبدو من سياق هذه القصة واتجاه هؤلاء الشباب فى رحلتهم واتجاه هذا النهر فى مجراه أن ذلك النهر هو نهر النيجر وأن تلك البلدة التى وصلوا إليها هى التى تعرف الآن ببلدة تمبكتو التى تكون بموقعها حلقة الإتصال بين إقليم الصحراء وإقليم السودان والتى أصبحت فيما بعد مركزاً عاماً من مراكز تجارة القوافل التى يقصدها اللوبيون بقوافلهم .

وإذا راجعنا ما رواه لنا هيرودوت بخصوص الإتصال بين ساحل لوبيا والأجزاء الجنوبية وتحديد طول المرحلة اللازمة من الساحل إلى فزان(٢) يثبت لنا أن هذا الإتصال كان فى عصره قد تم بشكل واضح وتحددت معالمه ولم تكن تجارة القوافل قد وصلت إلى هذا الحد الذى ذكره لنا هيرودوت إلا بعد أن سرت فى أدوار متعددة من الفشل والنجاح إلى أن تم لها النجاح نهائياً وإذا كانت هذه النتيجة قد تمت قبل مجىء هيرودوت بزمن طويل فمن المسلم به أن المحاولات الأولى قد قامت منذ أمد بعيد يصعب علينا تحديده بالضبط وإن كان فى ظهور المدن الساحلية على يد الفينيقيين كمدن قائمة بذاتها يقصدها الجميع ما يصلح أن نجعله أساساً لبداية نشاط طرق القوافل التى لا شك أن

---

١ — Hugh Murry & James Wilson. - Narrative of Discovery and Adventure in Africa, P. 40.

٢ — E. W. Bovill :— Caravanes of the Old Sahara, P. 16.

اللوبيين قد بدأوا بها قبل مجىء الفينيقيين إليهم الأمر الذى دفع هؤلاء إلى النزول إلى الساحل اللوبى واستغلال ما يوجد به من أسواق ساحلية تنتهى إليها تجارة دواخل القارة وبحكم هذه التجارة ومجىء الفينيقيين تطور أمر هذه الأسواق إلى مدن قائمة بذاتها لها معالمها الخاصة .

ولاشك أن تجارة القوافل قد تطور أمرها فى عهد الفينيقيين ونمت وازدهرت حتى أصبح الرؤساء المشرفون عليها وأصحاب رؤوس أموالها يقومون برحلات تفقدية من وقت لآخر وصلوا فى بعضها إلى الجهات الداخلية لدراسة حالة التجارة فى أسواقها الجنوبية وكان أهم هذه الرحلات ماقام به ماجو الفينيقى Mago حيث قام بثلاث رحلات من هذا النوع التفتيشى عبر الصحراء مما يؤيد قولنا هذا . وليس معنى هذا أن مهمة الاشراف على نقل التجارة بين ساحل لوبيا والجهات الداخلية قد انتقلت من اللوبيين إلى غيرهم بل ظلت الحال على ماهى عليه رغم هذا النوع من الرحلات التفتيشية . وظل اللوبيون وسطاء بين الطرفين وظلت فى حماية قبائلهم وفى مقدمتها قبائل الجرامنت من بلاد فزان .

... ...

ولم يقتصر ازدهار تجارة القوافل على العهد الفينيقى بل كان الأمر كذلك وبشكل أوسع فى العهد الرومانى بعد أن قدر للبلاد أن تخضع للسيادة الرومانية وكان لابد لروما وقد ازدهرت فيها الحياة وأصبحت عاصمة للامبراطورية الرومانية ذات العظمة والأبهة أن تسرف فى البذخ ووسائل الزينة والترف وأن تستعين فى ذلك بما تنتجه أواسط أفريقية من ذهب وريش النعام وحيوانات مفترسة وطيور جميلة للتسلية وعبيد أشداء للخدمة وإعداد القصور فنشطت حركة التجارة مع إقليم السودان . وإذا كانت أوربا قد اعتمدت فى الماضى على مناجمها الخاصة بها للحصول على الذهب فإنها لم تعد كافية لسد ماتطلبه الحياة

الجديدة فى روما بل ولم تعد كافية لسد حاجة بقية الشعوب الأوربية الأخرى فاتجهت أنظار الجميع إلى مناجم أفريقية وذهب ساحل غانة بصفة خاصة ونتيجة لذلك زاد دخل اللوبيين كوسطاء لهذه التجارة ولم يكتف الرومان بالسياسة التى اتبعها الفينيقيون من قبلهم بخصوص هذه التجارة بل أرادوا أن يكون نصيبهم منها أوفر وأن يضمنوا ورودها بانتظام حتى لاتصاب الحياة عندهم بأى نقص طارىء من ناحيتها فلجأوا إلى القوة الحربية لتدعيم هذا النوع من التجارة وأرسلوا قوة حربية بقيادة كورنوليس بالبوس Cornelius Balbus عام ٢٠ ق م فتم له الاستيلاء على إقليم فزان وكان من بين الأماكن التى احتلها والتى تبين لنا مدى اهتمام الرومان بتجارة القوافل فى ذلك العهد واحة غدامس Ghedames (Cydamus) وواحة تابوديوم Tabudium (تابونى Taboni فى الطريق مابين مزدة ومرزق) وسيلابا أو سيليبا (Cellaba or Cilliba) المعروفة الآن بواحة زويلة فى إقليم فزان وواحة ربسا Repsa المعروفة الآن بواحة غات وجرمة Garme «Jerma» التى كانت عاصمة للجرمنت فى بلاد فزان .

على أن السيادة الرومانية على إقليم فزان لم تتم بواسطة هذه الحملة نهائياً بل كان فيها وفى الاستيلاء على هذه الواحات التى سبق ذكرها مايوضح لنا مدى اهتمام الرومان فى ذلك الوقت بتجارة القوافل. وقد لجأ الرومان كذلك إلى إقامة الحاميات فى بعض هذه الواحات لحماية القوافل من الاعتداء إلى جانب مافى وجودها من تدعيم لسيادتهم على هذه المناطق وأقاموا الحصون والقلاع على مسافات معينة لإحكام حلقة الدفاع ضد أى هجوم معاد كما زودوا طرق القوافل بحفر آبار جديدة وأقاموا الصهاريج لحفظ المياه . ويذكر لنا التاريخ أن الفرقة الثالثة من لامبسا (Lambessa) كانت تعسكر فى واحة غدامس (١). وإذا

(١) E. W. Bovill :- Caravanes of the Old Sahara, P. 18

كانت بقايا هذه القلاع التى أقامها الرومان غير كافية لتدعيم هذا القول فإن مرور هذه السنين الطوال إلى جانب ما كان قد اعتاده الأهالى من الانتفاع بأحجار المبانى القديمة فى تشييد مبانيهم الجديدة مايثبت أن قيامها كان محققاً بدليل ماذكره لنا الرحالة بارث Barth(٢) فى رحلته من مبان عديدة وجدها مبعثرة بطول الطريق جنوباً حتى جرمة نفسها . ومع كل هذه الاحتياطات التى اتخذها الرومان لضمان بقاء حركة تجارة القوافل وازدهارها فإنهم لم ينجحوا فى ذلك إلا باسترضاء أهالى البلاد أنفسهم واتباع سياسة التفاهم ومحاولة إشراكهم فى هذه التجارة بالقدر الذى يضمن لهم استمرارها وعدم خسارتها لأن هذه السيادة الرومانية كثيراً ما كانت تنتابها فترات من الضعف العام بسبب ما كان ينتاب العاصمة نفسها والامبراطورية الرومانية بصفة عامة وبسبب ماطبع عليه الأهالى من حب للحرية وضرورة المحافظة على حياتهم بالمحافظة على هذه التجارة فكانوا يشنون غاراتهم على القوافل من وقت لآخر وينهبونها بل كانوا يتجرأون أحياناً ويهاجمون الحاميات فى القلاع والحصون وينزلون بها الخسائر ويقطعون عنها الامدادات بالاستيلاء على الآبار ومنع العدو من الوصول اليها بل كثيراً ما كانوا يلجأون إلى ردمها بالرمال إذا أعيتهم الحيل وغلبهم العدو ورأوا أنفسهم مجبرين على الانسحاب أمام قوات العدو المتزايدة .

٭ ٭ ٭ ٭ ٭ ٭ ٭ ٭ ٭

على أن تجارة القوافل اللوبية فى العهد الرومانى قد تطور أمرها بظهور الجمل فى لوبيا ولاشك أن دخول هذا الحيوان إلى بلاد الشمال الإفريقى يعتبر من الحوادث الهامة فى تاريخ هذا الاقليم بصفةعامة وفى تاريخ القوافل التجارية

(٢) مكتشف جغرافي ألمانى قام برحلة لحساب الحكومة البريطانية ١٨٥١ الى بحيرة تشاد عن طريق مدينة طرابلس .

بصفة خاصة غير أن الباحث لايستطيع القول بتاريخ محدد معروف يرجع إليه دخول هـذا الحيوان لهذه البلاد وإن كان من المؤكد أنه قد وصـل إليها من الخارج وأنه فى نشأته غريب عنها وإن كان فى انتشار الجمل بشكل واسع فى جميع أنحاء الشمال الافريقى مادفع البعض إلى الاعتقاد بأن الجمل قد نشأ فى هذه الأجزاء من شمالى أفريقيـة كما نشأ فى غـيرها إن لم يكن الشمال الافريقى هو الموطن الأصلى له وأن شمالى أفريقية قد عرف الجمل منذ زمن بعيد يرجع إلى عصر ماقبـل التاريخ . واذا كان هناك من يعتقد أن الجمـل قد ظهر فى شمالى أفريقية بمجىء العرب اليها فإن هـذا القول مبالغ فيه أيضاً لأنه من الثـابت أن العرب عندما أتوا إلى شمالى أفريقية قد وجدوا الجمل معروفاً هناك ومستعملا على نطاق كبير . أما عن الوطن الأصلى لهذا الحيوان فمن المسلم به أنه قد نشأ فى أواسط قارة آسيا وفى بلاد التركستان بالذات حيث كان يتجول بحرية تامة غير مقيدة . والجمال كما نعرف نوعان . أحدهما له سنام واحـد Dromedary والآخر له سنامان ويوجد الأول فى الجهات الغربية من آسيا بما فى ذلك صحراء بلاد العرب ويمتد غرباً إلى صحراء شمالى أفريقية . أما الثانى فيعيش فى شرق آسيا فيما وراء نهر الفرات والخليج الفـارسى الى بلاد الصـين حتى يصـل إلى الجهات الجبلية الباردة فى شمالى منغوليا .

ومن المرجح أن لوبيا قد عرفت الجمل أبان حكم الرومان لها . أما فيما قبل ذلك العهد فلا وجود للجمل فيها ونستدل على ذلك بمـا كتبه هيرودوت عن حيوانات لوبيا وقد قام بزيارتها حوالى ٤٥٠ ق . م إذ أنه لم يذكر الجمـل من بين ما ذكره من حيواناتها كما اننا لا نجد اشارة واحدة إلى الجمل فيما وصل إلينا عن الفترةالسابقة للحكمالرومانى بل إن وجودالجمل فى أوائل السيادة الرومانية أمرمشكوك فيهلأنماريوس Marius فى حملته التى قادها ضد يوجرتا Jugurtha قد اتخذ من الحصان وسيلة لنقل معداته اثناء عملياته الحربية فى الصحراء رغم

ما فى ذلك العمل من تعب ومشقة . ويذكر المــؤرخ الرومانى سلوستوس Sallustus أن المناسبة الأولى التى رأى فيها الجنود الرومان الجمل لم تكن فى افريقية بل كانت فى آسيا اثناء حملة لوكاس Lucullus الحربية ضد متريدتس Mithridates كما أن المؤرخ بلينى Pliny الذى قدر له أن يسافر الى افريقية قد ذكر لنا أن الجمل ينتسب فى أصله إلى قارة آسيا ولهذا لم يكن للجمل وجود فى افريقية فى العصور السابقة للحكم الرومانى بل إن البلاد لم تعرفه إلا بعد مضى فترة من الحكم الرومانى . وقد أتى ذكر الجمل لأول مرة فى افريقية سنة ٤٦ ق . م فى موقعة ثابسس Thapsus عندما أتى اسمه ضمن الغنائم التى فاز بها قيصر Caesar فى حربه مع Juba اذ استطاع قيصر أن يغنم اثنين وعشرين جملا . وفى قلة عدد هذه الجمال تدعيم لبداية ظهور الجمل كحيوان معروف فى افريقيـة فى ذلك الوقت . وقد ظل الحال كذلك وإن أخذ عدد الجمال فى الزيادة شيئاً فشيئاً حتى إذا كانت سنة ٣٦٣ م وجدنا القائد الرومانى رومانوس Romanus قد فرض على أهالى مدينة لبدة امداده بأربعة الاف جمل لاغراضه الحربية . ويجب الا نأخذ من كثرة هذا العدد دليلا على وجود الجمل بكثرة فى ذلك الوقت إذ كان لمدينة لبدة ظروفها الخاصة التى مكنتها من امتلاك مثل هذا العدد وأكثر منه فهى بوقوعها عند نهاية طريق القوافل لتجارة قبائل الجرمنت بفزان فيما بين البحر الابيض المتوسط والسودان كانت أكثر استخداما لهذا الحيوان من غيرها وبالتالى كثر وجود هذا الحيوان فى منطقتها عن بقية المناطق الأخرى فلا عجب بعد ذلك إذا سمعنا هنا لأول مرة عن الجمل فى اعداد كثيرة بالنسبة لأى مكان آخر . وبمرور الزمن أخذ ذكر الجمل يتردد كثيراً ضمن ما ذكره الكتاب فى العهد البيزنطى وأصبحت مشاهدته واستعماله من الأمور المألوفة فى ذلك الوقت .

هذا بخصوص تحديد زمن دخول هذا الحيوان فى بلاد الشمال الافريقى

أما بخصوص من تولى القيام بهذا العمل فهنـــاك احتمال كبير بأن الرومان لم يقوموا بادخاله فى افريقية وإن كان يحتمل أيضاً أنهم وقد واجهتهم مصـاعب النقل فى هذه البلاد قد لجأوا إلى حلها بالطرق التى حلوا بها نفس المصاعب التى وجدوها فى آسيا باستعمال هذا الحيوان . وإذا فرضنا أنهم قد نجحوا فى حلها بطرق أخرى فان الرغبة فى تنمية الحركة الاقتصادية لا شك قـــد دفعتهم إلى استيراد الجمال من آسيا الى الشمال الافريقى وليس هذا بالأمر الصعب عليهم إذ أن هجرة الحيوانات الأليفة مرتبطة إلى حد كبير بالنشاط البشرى وتنقلات الانسان الأمر الذى دفع الكثير إلى الاعتقاد بأن حيوان الجمل قد انتقل من الشرق الى شمالى افريقية على ايدى قبائل زناته البربرية فى هجرتهـا من المشرق إلى المغرب . أما إذا كانت هذه الهجرة قد تمت بتشجيع الرومان أو مساعدتهم فهذا لا يمكن القول به ولكننا نعتبر زناته المسئول الأول (١) عن جلبـه الى الشمال الافريقى والتوسع فى استخـدامه هنـاك وذلك فى العهـــد الرومانى لشمال افريقية .

وعلى كل فإن الجمـل حيوان طارىء على بلاد الشمال الافريقى وإن كانت طبيعة البلاد قد وافقت تربيته والاكثار منه حتى بدا كأنه حيوان أصلى بها ولا شك أن ادخاله فى شمالى افريقية يعتـــبر حادثاً عظيما له خطورته ونتائجه بل يمكننا أن نعتبر ذلك بداية عصر جـديد فى تاريخ البـلاد إذ بظهوره حـدث تطور كبير فى حياة السكان وأعمالهم ونشاطهم التجارى لا سيا فيا يتعلق بذلك النشاط الذى ربط السواحل الشمالية باقليم السودان ولا غرابة بعد ذلك إذا رأينا العهد الرومانى قد اقترن بازدهار تجارة القوافل وكثرة الثروة فى البلاد وانتعاش حياة الاهالى بل أن ظهور الجمـل فى ذلك الوقت كان أكبر مساعـد

E. W. Bovill : Caravanes of the Old Sahara, P. 22 — 1

للرومان على التوغل جنوباً ومحاولة بسط سيادتهم على الاجزاء الجنوبية الأمر الذى لم يحاوله الفينيقيون من قبلهم . ولا شك أن الجمل بطبيعته واستعداده الخاص قد لعب دوراً هاماً فى هذا التطور كما لعب أدواراً أخرى مماثلة فيما جد من حوادث فيما بعد . ولا شك أن اللوبيين قد استفادوا كثيراً من ادخال الجمل فى بلادهم ولا نبالغ إذا قلنا أن دخوله يعتبر انقلابا فى حياتهم الاجتماعية ومعيشتهم الخاصة وطرق تفكيرهم وبه استطاعوا استغلال ما قد وجدوه من مراع بعيدة فى جوف الصحراء لتربية حيواناتهم دون مشقة كبيرة بالنسبة لما كانوا يعانونه فى السابق بل واستطاعوا استغلال ما فى الواحات الجنوبية من حياة زراعية وخصوبة لم تعرف توقفاً لانسياب المياه المستمرة . أما ما استفاده اللوبيون من الجمل فى تخفيف متاعب السفر وزيادة قدرتهم على قطع المسافات الطويلة وحمل أكبر كمية من المتاع والبضائع فهذا شىء مسلم به لا يحتاج الى مناقشة وإن كانت الحقيقة تستدعى تسجيل كل ذلك . والخلاصة أنه بدخول الجمل فى الشمال الافريقى قد حدث تطور كبير فى تجارة القوافل إذ به قلت أغلب المشاق والمتاعب التى يجدها أرباب القوافل التجارية فضلا عن أنه فتح أمامهم طرقاً جديدة للاستغلال التجارى وآفاقا أخرى كان لا يمكن الوصول إليها بدونه .

وإذا كانت البلاد قد عرفت الجمل فى العهد الرومانى بعد أن عرفت التجارة وقامت لها طرق تربط أسواقها على الساحل وفى الداخل قبل مجىء الرومان إليها فيحق لنا أن نتساءل عن الطريقة التى كان اللوبيون فى العهد الفينيقى وفيما بعده قبل مجىء الجمل ينقلون بها بضائعهم بين إقليم السودان والمدن الساحلية وبالعكس . لقد تأكد لنا قيام اللوبيين بهذه المهمة ونجاحهم فيها كما تأكد لنا أن الجمل قد طرأ على لوبيا بعد أن عرفت تجارة القوافل. لا نستطيع القول برأى نهائى فى هذه المسألة وهى مسألة جديرة بعناية خاصة من البحث

للوصول إلى نتيجة نهائية تتفق والحقيقة إلا أنه من المسلم به أن البلاد فى العصور القديمة لم تكن الحياة الصحراوية تغلب عليها كما هى عليه الآن بل إن الشواهد والآثار الباقية تدل على أن نوعاً آخر من الحياة قد قام فيما نسميه الآن بالصحراء الكبرى إلى أن حدث تطور فيما بعد فى الحالة المناخية. ولاشك أن تلك الحياة الأولى السابقة لما طرأ على المناخ من تغيير قد سهلت إلى حد كبير مهمة اللوبيين فى تجارتهم بين الساحل والداخل . ولا شك أيضاً أنهم كانوا يقومون بهذه المهمة على مراحل مع الاستعانة بالواحات واتخاذها محطات للاستراحة والتزود وإن كان ذلك كله على حساب الزمن بالنسبة لما تطور إليه الحال بعد ادخال الجمل. ولا شك أن اللوبيين كانوا يعتمدون فى نقل تجارتهم على ما كانوا يمتلكونه من حيوانات أخرى كالحمير مثلا وقد ذكر لنا التاريخ أن ماركوس كاتو Marcus Cato فى حملته الحربية قد اعتمد على الحمير فى نقل جنوده عبر منطقة سرت مستعيناً فى ذلك بتقسيمهم إلى مجموعات أخذ فى ارسالها على دفعات حتى لا يضطرب أمر مسيرها ويمكن سقيها دون عناء كبير وتزاحم على الآبار كما أن افلاس Ophellas والى قورينا من قبل البطالمة قد ساعد اجاثوكليس Agathocles طاغية سيراكوز فى حربه ضد قرطاجة وسير إليه جيشاً قوامه عشرة آلاف من المشاة وستمائة من الخيالة ومائة من العربات فلم يأت ذكر للجمل فى هذه الحملة بل كان المعول على الحصان وزميله الحمار . أما قبائل الجرامنت الداخلية فقد كانت تعتمد على حيوان خاص بها قد اندثرت معالمه وإن تركوا صورته منقوشة على بعض الصخور فى إقليم فزان.

كل هذا يدفعنا إلى القول بأن اللوبيين قد كان لهم من الوسائل ما ساعدهم على القيام بمهمة تجارة القوافل وإن كان ذلك بصورة محدودة مع كثير من المتاعب والوقت بالنسبة لما صار إليه أمر هذه التجارة بعد إدخال الجمل فى فى شمالى افريقية واستغلاله فى هذه المهمة استغلالا واسعاً منذ ظهوره فى لوبيا

حتى أصبح أمر هذه القوافل مربوطاً به وقد رسم بعظامه معالم طرقها فى كثير من المسافات فأصبح المسافرون يسترشدون بها فى رحلاتهم .

... ...

وبمجىء العرب الى الشمال الأفريقى وخضوع لوبيا للحكم العربى زاد انتشار الجمل فى لوبيا . ولقد كان من نتيجة أقلمة هذا الحيوان على يد العرب الفاتحين الحصول على نوع جيد من الجمال اشتهرت بها البلاد وزاد بذلك نطاق التجارة اللوبية . وهذا النوع الجديد هو الذى أعجب الرحالة العياشى ودعاه الى تسجيل ذلك فى أخبار رحلته عندما زار البلاد فقال «وأبل عمالة طرابلس غاية فى الجودة قل أن توجد لها نظير شبيهة بابل بلدنا بل تزيد حتى عليها بكثرة الخدمة فإنهم يستعملونها فى سائر الأشياء حتى الحراثة والدراسة ويسقون عليها ويديرون الرحا فتمرنت بذلك على المشاق العظيمة .... ولذا قيل فى أمثال الجميع جمل طرابلس وقربة مصرية (١). وكان فى التشابه الكبير بين اللوبيين والعرب الفاتحين من حيث الطباع وطبيعة الأرض ما ساعد على الاندماج بين الطرفين والاشتراك سوياً فى القيام بتجارة القوافل حتى ازدهرت على أيديهم ووصلوا بهذا التعاون الى ميادين أخرى جديدة ما كانت قد عرفت فى السابق واقترن هذا النشاط التجارى بشىء جديد لم تعرفه تجارة القوافل فى السابق وهو التدوين العلمى والتسجيل لنواحى نشاط هذه التجارة والبلاد التى وصل إليها التجار جنوباً حتى أصبحنا مدينين إلى حد كبير لهذا العصر العربى فيما وصل الينا من معلومات عن تلك البلاد الواقعة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى ولم نكن نحصل على مثلها فى العصر القديم بهذه السهولة ولا بهذا الشكل الوافى وفى مقدمة من كتب فى وصف هذه البلاد المسعودى وابن حوقل والبكرى والادريسى وياقوت الحموى وابن العمرى وابن بطوطة وابن

١) رحلة العياشى ج ١ ، ص ٦١

خلدون وقد قام بعضهم برحلات إليها مع بعض القوافل التجارية كما أن بعضهم الآخر استقى ما وصل إليه من معلومات عن طريق هذه القوافل وأصحابها.

كما أن ظهور الاسلام ومجيء العرب إلى شمالى افريقية أدى إلى تطور آخر فى طرق تجارة القوافل فبعد أن كان معظمها يتركز فى طرق رئيسية محدودة بين الساحل وإقليم السودان ظهرت للوجود طرق أخرى هامة لها خصائصها المميزة لها وإن كان بعضها معروفاً قبل مجيء العرب وقد سلكه الأقدمون من اللوبيين فى تنقلاتهم الكثيرة السابقة وفى مقدمة هذه الطرق طريق الحج الذى يخترق شمالى افريقية من الغرب إلى الشرق بحذاء الساحل وهو طريق كان معروفاً فى أساسه إلا أن ظهوره بشكل معين فى موسم معين من السنة لغرض دينى مستمر قد صبغه بصبغة الجدة وأكسبه طابعاً جديداً ولا شك أن قوافل هؤلاء الحجاج وهى فى طريقها بين أقصى غربى الشمالى الأفريقى والأراضى الحجازية قد اقترنت بالتجارة إلى جانب تأدية فريضة الحج بل ان فى كثرة عدد جمال هذه القوافل وتنوع ما كان يحمله الحجاج معهم من أشياء يدفع الإنسان إلى القول بأن هؤلاء الحجاج كانوا يقومون بالتجارة إلى جانب قيامهم بفريضة الحج. ولا شك أيضاً أن كثيراً منهم كان يستعين بهذا العمل لسد نفقات الحج بل وللحصول على أرباح مباحة إلى جانب تسديد هذه التكاليف.

وظلت تجارة القوافل اللوبية على حالها من النشاط طيلة العهد العربى حتى إذا خضعت البلاد للحكم العثمانى انتابها تطور خطير أدى إلى اضعاف شأنها كما كان الحال تماماً بالنسبة لتجارة القوافل والبضائع الشرقية على أثر ما جد من اكتشاف طرق بحرية جديدة ترتب عليها تحويل مجرى هذه التجارة عن طرقها الاولى. وكما أن تجارة التوابل والبضائع الشرقية قد تحولت عن مصر وأملاكها فى الشام إلى طريق رأس الرجاء الصالح فإن التجارة مع أواسط أفريقية أيضاً بدأت تسلك طريقاً بحرياً بعد اكتشاف السواحل الغربية الافريقية وبعد أن

عرف الاستعمار الأوربى طريق التغلغل فى النواحى الداخليـة . ومع كل هذا فقد ظلت بعض موارد هذا الانتاج الافريقى بعيـــدة عن أيدى الأوربيين لوقوعها فى الداخل مما صعب أمر الوصول إليها على الأوربيين إلى جانب مايوجد فى ساحل غانة من غابات كثيفة ومناطق موبوءة بالأمراض ومناخ لا يساعد الأوربيين كثيراً على تحقيق أغراضهم ولهذا كله ظل بعض تجارة القوافل يتجه شمالا كالمعتاد وإن عمل هذا الطريق البحرى على إضعاف شأنه وإلى جانب ذلك اقترن العهد العثمانى بشىء من الفوضى وسوء النظام فعجل بهذا الاضعاف ويكفى لتبيين مدى اهتمام العثمانيين القليل بهـــذا النوع من التجارة إذا عرفنا أنهم أصبحوا ينظرون إلى منطقة فزان بعد الاستيـلاء عليها كمنفى للمغضوب عليهم سياسياً بعد أن كانت فى نظر الجميع مركزاً من مراكز التجـــارة الداخلية والحيوية الاقتصادية حتى إذا حكمت الأسرة القرهمانلية استطاع مؤسسها أحمد باشا الكبير أن يرفع من شأن البلاد بحكمته وحسن سياسته وأن يتجه بنظره إلى استغلال هـذا النوع من التجارة وتنظيم مواردهـا والاشراف عليهـا بكل حزم وعناية وكان له فيهـا مورد استعان به على سد ما يطلبه أمر إنشـاء دولته والوقوف بها فى مصـاف الدول المحترمة وتحقيق أغراضه بالمال وقد سار بنوه من بعده على هذه السياسة التى رسمها لهم جدهم العظيم كما ساروا حسب سياسته البحرية التى اختطها لهم والتى سبق أن رأينا بعض مظاهرها فى الصفحات المتقدمة .

وخلاصة القول أنه إذا كانت البحرية اللوبية قد قدرلها نوع من الازدهار فى العهد القرهمانلى فإن الحال كذلك بالنسبة لتجـارة القوافل وان انتابهـا أيضاً من وقت لآخر شىء من الضعف نتيجة لما كانت تتعرض له البلاد من أحداث سياسية خارجية متمثلة فى ضغط الدول الأوربية وتدخلها فى شئون البلاد أو نتيجة لاضطرابات القبائل وقلاقلها فى الداخل . وعلى أى حال فقد كانت تجارة القوافل فى العهد القرهمانلى عاملا هاماً فى تـكوين ثروة البلاد ويكفى أن نعرف

أن العبد الواحـد فى ذلك الوقت كان يباع بقيمة تتراوح مابين الثمانين والمـائة والخمسين دولاراً اسبانيا (١) حسب هيئته وسنه وحسب حالة العرض والطلب. وإذا كان حاكم فزان وحده كما كان الحال فى عهد واليه محمد المكنى أيام يوسف باشا القره مانلى قد بلغ ايراده الخاص من العبيد مابين أربعة آلاف وخمسة آلاف عبد فى السنة (٢) خلاف المقـادير الأخرى من البضـائع الاستوائية فإن ذلك يساعدنا على تقدير الدخل العام لمالية الدولة بصفة عامة فى العهد القره مانلى ومدى ما كانت عليه من كفاية بالنسبة لحاجات البلاد ومطالبها . بل ان محمد المكنى نفسه ما استطاع الوصول الى وظيفة الولاية العامة لإقليم فزان الابعد أن تعهد ليوسف باشا برفع الاتاوة التى يدفعها للباشا من خمسة آلاف دولار سنوياً الى خمسة عشر ألف دولار وبهذه الزيادة الكبيرة استطاع أن ينحى الأسرة الحاكمة فى فزان وأن يحل محلها فى عام ١٨١١م. بل أن يوسف باشا نفسه سرعان ماطالب المكنى برفع هذا المبلغ من خمسة عشرة ألف الى ثمانية عشرة (٣) ألف ولاشك أن الباشا لم يقدم على المطالبة بهذه الزيادة الكبيرة الابعد أن تأكد له وفرة مايحصل عليه حاكم فزان من مال خاص من التجـارة مع وسط أفريقيـة فهو الى جانب ما يحصل عليه من عدد كبير من العبيد كان يتقاضى دولارين اسبانيين عن كل عبد يمر باقليمه لبقية التجار (٤) فضلا عن أنه كان يأخذ دولاراً ونصف دولار عن بيع كل عبد بالاضافة الى المبلغ الرئيسى (٥).

---

١) Captain G. F. Lyon: A. Narrative of travels in Northern Africe in the years 1881, 1819, 1820, P. 121.

٢) المصدر السابق س ٤

٣) « « س ٢٥٨

٤) « « س ١٩٩

٥) « « س ١٩٩

وفى عهد يوسف باشا اتخذت التجارة مع السودان نظاماً معيناً مع اقليم فزان تجنباً لأى التباس وتحديداً للمسئولية العامة فقد اعتبر يوسف باشا منطقة بونجيم (Bonjem) (جنوبى شرقى مسراته) هى المنطقة التى يتم عندها تبادل المسئولية بخصوص تجارة العبيد فيما بين رجال سلطته ورجال محمد المكنى أى أن كل العبيد الذين كان يرسلهم محمد المكنى الى الباشا فى مدينة طرابلس تحت مسئوليته يحاسب على كل واحد منهم قبل الوصول الى هذة المنطقة أما اذا قدر لبعضهم الموت أو التعرض لأى مكروه بعد الوصول الى (بونجيم) فان المسئولية لاتقع على المكنى بل كانت من نصيب رجال الباشا نفسه وبالمثل اذا أرسل الباشا أى بضاعة الى المكنى لبيعها هناك أو فى وسط أفريقية فإن المكنى كان المسئول الأول عنها بعد منطقة بونجيم . وكان فى توزيع المسئولية بهذا الشكل خير ضمان لتجارة القوافل وتقليل خسائرها .

... ...

وقد اقترنت تجارة القوافل فى العهد القرهمانلى خصوصاً أيام يوسف باشا بظاهرة جديدة كان لها أثرها الفعال فيما بعد فى القضاء على هذه التجارة بطريقة غير مباشرة ذلك أن الدول الأوربية الاستعمارية وقد صعب عليها الوصول إلى أواسط افريقية من السواحل الجنوبية والغربية للقارة قد اخذت توجه اهتمامها إلى الساحل الشمالى لافريقية وتتنافس فيما بينها للوصول إلى داخل افريقية تلك القارة المظلمة كما كانوا يسمونها وقد اشتد التنافس الاستعمارى فى القرن التاسع عشر الميلادى مما جعل مدينة طرابلس وبقية المدن الساحلية الأخرى محطات للرحالة الأوربيين الذين يقصدون البلاد بغية التوغل إلى داخل القارة مستعينين على ذلك بما يجدونه من توصية خاصة من الباشا نفسه بعد اتقان إخفاء الغرض الأساسى من رحلاتهم بشتى الطرق والمعاذير كالتعلل بالكشف عن بعض النباتات الطبية أو دراسة بعض المناطق الأثريه أو الرغبة

فى إرضاء روح المخاطرة والمجاذفة عندهم وإن كانوا فى الحقيقة يقومون بالتمهيد العلمى للتوسع الاستعمارى متحملين فى سبيل ذلك كل أنواع المتاعب والمشاق وتعريض أنفسهم للهلاك أحياناً رغم استعانة الكثير منهم بدراسة اللغة العربية واظهار اعتناق العقيدة الإسلامية ومزاولة شعائرها على مرأى من رجال القوافل وقد كان لهم فيها أكبر معين على تحقيق رحلاتهم إذ كان الكثير منهم يرافقها فى السفر وينتظر مواسم قيامها لمصاحبتها وفى ذلك ما يخفف عليهم متاعب السفر وجهل الطرق . وهكذا ساهمت تجارة القوافل فى تنشيط الحركة الاستعمارية الأوربية فى القرن التاسع عشر الميلادى بطريقة غير مباشرة كما استعان بها قناصل الدول الأوربية الاستعمارية فى الحصول على المعلومات الضرورية عن الجهات الداخلية بل كان قناصل الدول الأوربية وفى مقدمتهم قنصل بريطانيا فى مدينة طرابلس يتخذون من هذه القوافل سبيلا لبث عيونهم فى الجهات الداخلية وتزويدهم بالأخبار الضرورية كما جاء ذكر ذلك فى كتاب الرحالة الميجر دنهام وزميله عند ما طمع بو بكر بو حلوم(١) Boo-Bucher Boo-Khaloom فى عزل حاكم فزان وتولى الحكم مكانه أيام يوسف باشا فى سنة ١٨٢٢ عندما كان الكولونيل وارنجتون Warington قنصلا لبريطانيا فى مدينة طرابلس وقد لعب هذا القنصل دوراً كبيراً فى الجاسوسية لحساب دولته وإعداد التقارير الوافية عن البلاد الداخلية الافريقية مستعيناً بما يصل إليه من معلومات من رجال هذه القوافل معتمداً على حسن علاقاته مع بعضهم تحقيقاً لهذه الغاية كما نجح فى التقرب من الباشا نفسه وكسب ثقته حتى كان لا يرد له طلباً يتصل بمساعدة الرحالة من الانجليز وتأمين أسفارهم فى الداخل صحبة القوافل التجارية للباشا أو غيرها .

1- Major Dixon Denham:- Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa, P. 23.

وهكذا تطورت تجارة القوافل فى آخر العهد القرهمانلى وأصبحت تحمل بذور أضعافها فيما تحمله من بضائع بين ساحل لوبيا وأواسط افريقية حتى إنه لم يمض القرن التاسع عشر إلا وكانت هـــذه البذور قد نمت وترعرعت واستطاعت بمفعولها السام القتال أن تأتى على ثمارها الحلوة وكانت الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر فترة نضال قوى بين تجارة القوافل وعوامل اضعافها متمثلة فى ازدياد التغلغل الأوربى فى الداخل والتحكم فى أسواق الإنتاج هناك وتحويل معظم هذا الإنتاج إلى الأسواق الأوربية عن طريق البحر بعد أن نجح الأوربيون فى إقامة بعض المحطات التجارية لهم على ساحل نيجيريا وغيرها من بلاد ساحل غانا لتكون حلقة الصلة بين الأسواق الداخلية والسفن الأوربيـة فضلا عن أن تجـارة العبيد قد أخذت فى الإختفـاء بعد الموقف الإيجابى لدول أوربىمنها عقب مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ واضطرار حكام الولايات العثمانية إلى مجاراة هـذا الشعور الجديد نحو تجارة العبيد كسباً لود بعض الدول الأوربية ومجاراة للتيار الأوربى العام الذى اتخذ من تجارة العبيد فرصة للتنديد بالحكم وفساده فى بلاد الشرق ومدعاة للتدخـل الأوربى هنـاك لبسط السيادة الأوربية انقاذاً لهذه النفوس البشرية فى الظاهروتحقيقاً للغرض الاستعمارى فى الواقع . وهكذا شاء الأوربيون أن يروا فى تجارة العبيد نوعاً من الذل والاستعباد البشرى فى الوقت الذى استباحوا فيه لأنفسهم استعباد الشعوب جملة واذاقتها أقسى أنواع العـذاب بل وشن الحروب عليهم وسفك دماء الاف الالاف من البشر فى سبيـل التوسع الاستعمارى مع أن كثيراً من هؤلاء العبيد كان يتمتع بحرية وحياة لم يحلم بها الكثير من اولئـك الذين قدر هم أن يخضعوا للسيادة الأوربية التى جاءت ترتدى ثوب الرحمـة والشفقة من اجلهم فحكمت على بلاد بأجمعها بالعبودية التامة والاستغـلال الرخيص الذى يتنافى وأقل واجبـــات المرء نحو شعوره الانسانى ولا أدل على ذلك مما رواه

الاستــاذ بل K.D.Bell فى كتيبه عن واحــة الـكفرة (١) حيث يذكر لنا أن العبيد الذين كانوا ملكا للسادة السنوسية فى واحة الـكفرة وبعد أن تم تحريرهم واطلاق سراحهم على أيدى الإيطاليين بعد احتلالهم لهـــا سنة ١٩٣١ كانوا يتمتعون بسعادة أكثر فى ظل العبـودية السنوسية عما كانوا يتمتعون به اثناء الحـكم الإيطالى رغم هذا التحرر ورغم اطلاق سراحهـم . بل إن فى استمرار بعض هؤلاء العبيد فى علاقاتهم القديمة مع سادتهم القـدماء وأولادهم فيما بعد أكبر دليل على ما كان يتمتع به هؤلاء العبيد من حياة ومعاملة حسنـة الأمر الذى يتنافى وما يدعيـه الرأى الأوربى العام من قول لا يتفق وهذه الحقيقـة للقضاء على هذه التجارة فى الظاهر وتبرير نشاطهم الاستعمارى فى الواقع .وإذا كان بعض الظلم وبعض العسف قد وقع على هؤلاء العبيد فقد شاركهم فى هذا الـكثير من اخوانهم الأحرار . وهكذا قضت الشعوب الأوربيـة على فـكرة الرق وعلى تجارة العبيد وأحلت محلها الفـكرة الاستعمارية وسيـاسة استعباد الشعوب بالجملة لا بالقطاعى واعتبرت البلاد المتخلفة نهباً حلالا وقسمتها فيما بينها الى مناطق نفوذ ثم دفعها الشر الى التنافس فيما بينها فى استعباد الشعوب لاستغلال ثرواتها على حساب أهلها دون عمل أى تقدير لهم وإن كان فى ذلك تعارض تام مع ما نادى به الأوربيون من أهداف سامية لتبرير القضاء على تجارة العبيد . وهكذا ايضاً يأبى التاريخ إلا أن يسجل هذه المهزلة الانسانية فى هذه «التقليعة» الجديدة التى أهتدت إليها الدول الأوربية الاستعمارية فى القرن التاسع عشر لتحقيق أغراضها الاستعمارية فى ثوب محاربة الاستعباد الفردى نفسه ولنا فى الخطاب الذى ألقاه رئيس الوزارة الايطالية فى البرلمان الايطالى عقب الانذار النهائى الذى وجهته ايطاليا إلى تركيا يوم ٢٦ سبتمبر بخصوص احتلال لوبيا ما يوضح لنا هذه السياسة الملتوية فقد جاءت الفقرات التالية ضمن خطابه « إن افريقية الغربية من تونس إلى مراكش تحت حماية إدارة أوربية إلا لوبيا وحدها فإنها متأخرة جداً عن الزمن فأسواق العبيد ما زالت قائمة فى بنغازى والرجال

والنساء يؤخذون عنوة في أواسط افريقية لبيعهم في هذه الأسواق (١) .

هذا بخصوص تجارة العبيد أما بقية البضائع الأخرى التي كان اللوبيون يستوردونها من أواسط افريقية فقد انتاب الاقبال عليها أيضاً شيء من الضعف العام في الاسواق الأوربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فهذا ريش النعام الذي كان يستخدم بكثرة كوسيلة من وسائل الزينه في البيوت وملابس السيدات والذي كانت مدينة باريس أكبر سوق له قد أخذ الناس يقلعون عن استعماله وظهرت موجة من التفكير الانساني العام لمحاربة هذا النوع من الزينة بحجة أن في الحصول على الريش نوعا من تعذيب طائر النعام واستعاضوا عنه بطرق أخرى في زينتهم . كما حدث تطور في وسائل الزينة الذهبية أدى الى التخفيف من اشكالها مما جعل الاقبال على الذهب ضعيفاً في هذه الناحيه فضلا عما جد من تطور في سك النقود واحلال عملة الورق محل العملة الذهبية ، كل ذلك أثر في الاقبال على الذهب. كما أن أوربا بتوسعها الاستعماري في بلاد الشرق قد وجدت لها ميداناً متسعاً لتحقيق طلباتها منه بعد أن كادت مناجم الذهب في وسط افريقية أن تقرب من النفاد.

كل هذه العوامل وقد تضافرت مع بعضها كان لها أكبر الأثر في تدهور تجارة القوافل الى أن جاء الاحتلال الإيطالي في العشرينات الاولى من القرن العشرين فكان أكبر عامل للقضاء على البقية الباقية منها لما اقترن به هذا الاحتلال من اضطراب وفوضى عمت البلاد بأجمعها وامتدت بامتداد النفوذ الايطالي إلى الداخل وقد استمرت هذه الحال لمدة عشرين عاما حتّى تعطلت القوافل عن المسير بين الساحل والجهات الداخلية وعبثاً حاولت إيطاليا بعد أن خضعت لها البلاد وبعد أن تم

D. C. Cumming : The Modern History of Cyrenaica - 1 (Handbook on Cyrenaica), P. 33

لها الاستيلاء على فزان وواحة الكفرة عام ١٩٣١ أن تستعيد ما كان لتجارة القوافل من شأن مضى ولو بصورة مصغرة فحددت معالم بعض طرق القوافل تسهيلا للمسافرين كما فعلت فيما بين واحة جالو وواحة الكفرة باقامة العلامات حيث لا يوجد أى دليل لارشاد المسافرين كما أنشأت إيطاليا بعض المطارات الجوية فى بعض الواحات الداخلية لتسهيل الإشراف على هذه الأراضى الواسعة وإن كانت فى حقيقة الأمر قد اتخذت منها محطات لقواتها العسكرية لتنفيذ أغراضها الحربية فيما بعد كما فعلوا فى واحة هون وواحة الكفرة وغيرهما .

ومع أن القرن التاسع عشر قد شاهد تدهور تجارة القوافل اللوبية وهى فى دور احتضارها إلا أن حالة التحسن الضئيل كثيراً ما كانت تنتابها كما حدث فى السبعينات الأخيرة منه . ويثبت لنا هذا بمراجعة الجدول الآتى الخاص بقيمة البضائع الواردة والصادرة من اقليم طرابلس دون برقة إذ كانت تجارة القوافل فى تلك الاعوام تكون ربع التجارة العامة لطرابلس وكثيراً ما كانت تصل أرباحها إلى ٥٠ ./. من اثمانها . (١) هذا فى الوقت الذى كانت فيه تجارة القوافل قد اضمحل شأنها وربما يساعدنا التقدير العام المبين بالجدول على أخذ فكرة عامة عن مدى الرخاء الذى تمتعت به البلاد أيام أن كانت هذه

السنوات	قيمة الواردات بالجنيه الانجليزى	قيمة الصادرات بالجنيه الانجليزى	الزيادة بالجنيه الانجليزى	العجز بالجنيه الانجليزى
١٧٧١ - ١٨٦٢	٠و٩٢٥و٦٦٠	١و٠١٦و٦٠٠	٩٠و٣٤٠	٠٠٠٠
١٨٨١ - ١٨٧٢	٣و٥٢٣و٨٣٢	٤و٤٨٤و٣٢٤	٩٦٠و٤٩٢	٠٠٠٠
١٨٩١ - ١٨٨٢	٣و٦٤٧و٩٢٠	٣و٥٦٤و٧٥٥	٠٠٠ ٠٠٠	٨٣و١٦٥
١٩٠١ - ١٨٩٢	٤و٤٦٧و٩٦٢	٣و٤٠٤و٣٠٠	٠٠٠ ٠٠٠	١و٠٦٤و٦٦٢

(١) Diplomatic and Consular Reports "No.578, Miscellaneous series", London 1902, P. 8.

التجارة فى أوج مجدها قبل أن يعرف النفوذ الأوربى طريقه الى الداخل وقبل أن يتحول معظم هذه التجارة إلى الطريق البحرى الجديد . والجدول الآتى أيضاً يعطينا فكرة صحيحة إلى حد كبير عن الأموال الطائلة التى كانت تجنيها البلاد من تجارة القوافل وعن نوع البضائع المطلوبة فى ذلك الوقت مع أن هذا الجدول ايضاً خاص باقليم طرابلس دون برقه وتلك الجداول مستمدة من التقرير السنوى الذى قدمه قنصل بريطانيا فى مدينة طرابلس لحكومته (١) وكان العاج

السنوات	قيمة العاج بالجنيه الانجليزى	قيمة الريش بالجنيه الانجليزى	قيمة الذهب بالجنيه الانجليزى	قيمة الجلد بالجنيه الانجليزى
١٧٦٢-١٨٨١	٢٠٠ر٥٠٠	١١٧ر٥٠٠	—	—
١٨٧٢-١٨٨١	٣٨١ر٣٠٠	١ر٢٩٣ر٥٠٠	٨٣ر٥٠٠	٨٨و٠٠٠
١٨٨٢-١٨٩١	١٩١ر٥٠٠	٩٩٩ر٠٠٠	—	٩٢ر٥٠٠
١٨٩٢-١٩٠١	٩٨ر٨٠٠	٥٧٩ر٠٠٠	—	٤٦٣ر٩٠٠

يذهب إلى اسواق لندن أما الريش فكانت تصدره طرابلس إلى باريس كما كانت تصدر الجلود إلى نيويورك بأمريكا .

. . .   .

ولكن هذه الأرباح الطائلة التى جنتها البلاد لم تكن من غير مقابل بل كثيراً ما دفع اللوبيون فى مقابلها أحياناً أغلى مايملكون وما يكافحون من أجله . فنى كثير من هذه القوافل التجارية كان بعضهم يتعرض للهلاك وفقد المال أما المتاعب والأهوال التى كانوا يقاسونها فهىء شىء عادى بالنسبة

(١) المصدر السابق الذكر

لهم قد ألفوها واعتبروها جزءاً من حياتهم الطبيعية القائمة على السفر من مكان لآخر وكثيراً ما كانت بعض القوافل تضل الطريق خصوصاً إذا كان طريق الرحلة جديداً على أصحابها أو حدث أى تغيير فى المعالم المعروفة التى تحدد طرق القوافل وتظهرها للعيان وكانت الكثبان الرملية وزحفها أكبر خطر يهدد معالم هذه الطرق ويخفيها . والزائر للصحراء يدهش لكثرة تلك المسارب المتقاطعة المتقاربة أحياناً حتى يصعب عليه تحديد وجهته فيتعرض للهلاك إذا قدر له أقل خطأ فى تحديد المسرب الذى يجب عليه أن يسلكه بالذات وما أكثر احتمال هذا الخطأ حتى على الخبراء بمعالم الصحراء لأن عوامله كثيرة وإن احتاط أصحاب القوافل لذلك بالخبراء فى أسفارهم وبالماء الكافى فخبرة الخبراء كثيراً ما تقف دون التغلب على مثل هذه المآزق وإن استعانوا بشروق الشمس وغروبها نهاراً والنجوم ليلاً وهبوب الرياح فى تحديد اتجاه مسيرهم . وكثيراً ما كان ينفد الماء قبل الوصول إلى المعاطن التالية فتهلك القافلة وإن نجا بعضها فذلك من المعجزات وكثيراً ما تنفق جمال القافلة وتترك عظامها على الطريق تحدد مساربه مشيرة إلى الهلاك الذى ينتظر الغير إذا قدر له أن يمر بهذا المسلك دون الاستعداد الكافى .

أما المياه بالنسبة لهذه القوافل فهى أساسية وبدونها لا يمكن لأى قافلة أن تسير ولهذا اهتموا بحفر الآبار وتحديد المسافات بينها واتخذوا من الواحات محطات لهم واستعانوا بالقرب فى حملها وتفننوا فى وسائل حماية هذه القرب حتى لا تتمزق اذا احتكت بعض الجمال ببعضها البعض ومع كل ذلك فإن حرارة الصحراء كافية فى كثير من الأحيان باضاعة كمية كبيرة من المياه المحفوظة فى القرب بعامل البخر أو بعامل الرشح ولهذا كثيراً ما حسبوا لهذا النقص الحساب إلا أن تقديرهم أيضاً كثيراً ما كان يخونهم فتتعرض القافلة للهلاك بسبب العطش رغم عمل كل الاحتياطات اللازمة لمقاومة هذا العدو الذى لا يعرف رحمة ولا صبراً .

ومن الاخطار الكبيرة التى كانت تتعرض لها تجارة القوافل فيما بين الساحل واواسط افريقية الاعتدادات المنظمة التى تقوم بها جماعات قد احترفت هذا النوع من الغزو ووضعت له الأسس الكفيلة بنجاحه وإن كان أصحاب القافلة كثيراً ما يفلتون منه بفضل استعداداتهم وتجنبهم للطرق المهددة ولكن يجب علينا أن نعرف أن هذا الغزو الصحراوى الذى كانت تتعرض له تجارة القوافل اللوبية لم يكن نوعاً من القرصنة وان شابهها فى كثير من الأوجه إذ أنه قد نشأ بحكم ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية للصحراء حيث القتال غريزة ملازمة لطبيعةالرجل. يعتبر الرجل الغزو خليقاً بالشهامة وخاصية من خواص الرجولة ولا يقتصر حب الغزو وتمجيده على فريق دون آخر بل يشمل الجميع وان اتخذ صوراً مختلفة باختلاف الأماكن والسكان وإن تطور أخيراً بحكم تعاليم الدين الإسلامى وتنظيم الحياة على أسس اجتماعية جديدة لم يخل من حسابها هذا النوع من طرق كسب العيش . ولنا فى تاريخ بعض المتزعمين لحركة المقاومة الشعبية للغزو الإيطالى فى العصر الحديث ما يؤيد هذا الرأى اذ أن كثيراً منهم كان من غزاة الصحراء ولكنهم تطوروا فيما بعد واتجهوا بنشاطهم نحو العدو المغير وكان لهم فى تمريناتهم السابقة ما جعلهم يحرزون النصر تلو النصر على العدو المعتدى وبذلك استطاعوا قيادة الحركة الشعبية ضد العدو وهكذا تحور ميدان البطولة واستعملت البطولة نفسها .

٭ ٭ ٭ ٭ ٭ ٭ ٭ ٭ ٭

هذا ونجاح القافلة كثيراً ما كان يتوقف على الجمال وعددها وقوة احتمالها ففى وفرتها ووجود الاحتياطى منها تسهيل لمهمة القافلة إذا تعرضت لأى طارىء فى جمالها كما أن الاعتماد على النوع الجيد المختار من الجمال يضمن سلامة وصول القافلة فى المواعيد المحددة فلا ترتبك التجارة ولا تفوتها الأسواق الهامة فضلا

عن ضمان سلامة أصحابها لاسيما إذا اقترنت هذه الجمال الجيدة بخبراء فنيين لهم مقدرتهم المعترف بها فى قيادة القوافل والقيام بهذه المهمة على أحسن ما يكون أسوة بالملاحين المهرة فى قيادة أى قافلة من السفن وسط البحار. وكثيراً ما كان لبعضهم من المهارة التى تخفف على القوافل مهمة سفرها وتشعر أصحابها كأنهم فى نزهة صحراوية وكان لبعضهم طرق مختلفة ورثوها عن آبائهم وتفننوا فى اكتسابها ووسائل تحسينها حتى أصبحوا مفضلين على غيرهم للقيام بهذه المهمة فى مقابل أجور باهظة وصلت فى كثير من الأحيان إلى أخذ نصيب وافر من أرباح القافلة المضمون لها النجاح . وإذا كانت القوافل كثيراً ما تنجح فى مهمتها بالاعتماد على مثل هؤلاء الخبراء فإن لحداة الابل أيضاً فضلا كبيراً فى هذه المهمة بما يبذلونه من مجهود صوتى وفن موسيقى يساعد القافلة على السير الحثيث ويدفع بجمالها إلى الأمام مستخفة بالمتاعب مجددة نشاطها بعد ما تلاقيه من تعب. ومؤلف هذا الكتاب لا ينس تلك الشهور التى قضاها وهو لا يزال فى المرحلة الأولى من أعوام الطفولة فى صحبة إحدى القوافل وإن لم تكن قافلة تجارية ولا ينس صوت «ابن شتوان» الذى قام بمهمة الحداء وأغانيه الجميلة ما زال صداها يتردد فى النفس إلى يومنا هذا وما زال مؤلف هذا الكتاب تدور فى مخيلته صورة الأبل وأصحابها وقد انتابتهم النشوة من صوت الحادى وترانيمه الجميلة واندفعت الأبل فى صفوف متراصة إلى الأمام بخطوات منتظمة أشبه بخطوات الجند فى مسيرهم وهى شاخصة ببصرها متطلعة إلى الأفق مستبشرة بما فى معانى أغانيه من مستقبل باهر لها ولأصحابها . ولا عجب فى ذلك فإن لحدو الأبل أثراً قوياً فى نفوسها وفى نفوس البشر لا يستطيع فهمه على حقيقته إلا من قدر له أن يقضى فترة فى صحبة القوافل .

والملاحظ أن الاغانى التى يتغنى بها الحداة كثيراً ما تدور حول تخفيف المتاعب الحاليه وتهوينها بانتظار الفرج القريب والراحة التامة كما فى الاغنية التى مطلعها ·

مدى رقابك واشربى الارياح ✡ وان شاءالله بعدالشقاءترتاحى(١)

وكثيراً ما كان بعضها يدور حول احدى قصص الغزو وهجوم الاعداء على الأبل واستماتة أصحابها فى الدفاع عنها وانقاذها من هذا الغزو ورد العدو مهزوماً بعد الحاق الخسائر به ومن هذه الاغانى الاغنية التى مطلعها

هادول يبوهـا وهلها مابوا ✡ سود المناسم دونها نتنابو (٢)

وإذا كانت قوافل الحجيج لها نوع خاص من الحداء فإن حـداة القوافل التجارية كثيراً ما كانوا يرددون هذا النوع أيضا فى اثناء قوافلهم التجارية لما فى معانى هذا النوع من استبشار وتفاؤل بالناحيـــة الدينية الممثلة فى الحج والقيام به واستقبال متاعبه بكل صدر رحب وفى الاغنية التاليـة ما يوضح هذا المعنى .

يا قاطعة رقراق سرت وبرقة ✡ يا زايره قبر النبى من شرقة

مدت جماجها وقالت سوقوا ✡ وبكره على قبر النبى بنتوقو

ومن الأغانى التى جمعت بين معانى التبرك بالحج والاستماتة فى الدفاع عن الابل الاغنية التى مطلعها .

ما من حـــاج بلغتى مزاره ✡ القـبر الهـاشمى فى يوم عيـد

---

(١) مع ملاحظة أن أهل لوبيا ينطقون حرف القاف جيا وحرف الجيم معطشا كما هى الحال عند اهالى الصعيد من مصر

(٢) سود المناسم كناية عن الابل لما يوجـد فى مقدمة اخفافها من عظام ناتئة سوداء ومعنى هذا المطلع أن هؤلاء الغزاة يريدون الاستيلاء على هذه الابل ولـكن أهلها رفضوا ذلك ووقفوا دونها لحمايتها وتقاتلوا من أجلها .

وما من طفل مجلى غياره ❊ طاج ينين فى ركابك يميد

... .

وتنقسم طرق القوافل الى نوعين أحدهما رئيسى والآخر فرعى . ويشمل النوع الأول الطرق الطويلة التى تقطعها القوافل فى مدد تتراوح بين الشهرين والثلاثة بل قد تصل الى أكثر من العام وهى بمثابة حلقة الصلة بين الاقاليم أما النوع الثانى فيشمل الطرق القصيرة التى تقطعها القوافل فى أيام معدودة لقصرها وهى تربط المراكز بعضها ببعض وتصل ما بين بعض الواحات المتقاربة وهى أقل شأناً من النوع الأول كما أنها محدودة الأثر بالنسبة إليه . ومن أمثلة النوع الأول طريق الحج الذى يمتد بحذاء الساحل الذى يعبر البلاد بطول ساحلها الشمالى ويصلها بتونس غرباً وينتهى شرقاً الى مصر بعد أن يعبر برقة الى الجنوب من هضبة الجبل الأخضر دون المرور مع القوس الساحلى لشبه جزيرة برقة توفيراً للوقت وتقريباً للمسافة وهو الطريق الذى سلكته الجنود الفاطمية فى فتحها لمصر كما سلكه الجيش الثامن البريطانى أخيراً فى حربه مع دولتى المحور الذى قطع به خط الرجعة على فلول الجنود المحورية وهى فى تقهقرها الى الغرب. والى جانب هذا الطريق الرئيسى الشمالى المعروف بطريق الحج هناك طريق آخر يمتد من الغرب الى الشرق محاذياً للطريق الأول وإن كان يقع الى جنوبيه ويختلف عنه فى طبيعته . وبواسطة هذا الطريق الداخلى يمكن للقوافل السير من مدينة طرابلس نحو الجنوب الشرقى الى واحة سوكنة فواحة زلة ثم الى واحة أوجلة فواحة سيوة ومن هناك الى دلتا مصر حيث تنتهى هذه القوافل إلى مراكزها معروفة ممثلة فى قرية كرداسة الواقعة الى الغرب من القاهرة وإلى مديرية الفيوم وإلى منخفض القطارة فوادى النطرون ثم إلى مديرية البحيرة . وكلها أسواق للتجارة ومحطات للقوافل التجارية فيما بين وادى النيل ولوبيا . وقد لعب بعضها وما زال يلعب دوراً هاما فى التجارة

خصوصاً تجارة الأبل التى تصدر عن هـــذا الطريق الى أسواق قريتى امبابه وكرداسة بمديرية الجيزة وأبو المطامير بمديرية البحيرة . وهناك فى هذه المراكز كما فى غيرها بقايا الكثير من اللوبيين الذين اشتغلوا بالتجارة مع وادى النيل وقدر لبعضهم البقاء هناك واقامة مراكز تجارية ما زال بعضها على اتصال بلوبيا وأهلها خصوصـــاً فى الايام الأخيرة بعد طرد الايطاليين من لوبيا وقد صاحب ذلك تيار تنقل وحركة بين وادى النيل والبلاد اللوبية . والملاحظ أن هذا الطريق الاخير لا يطرقه اللوبيون إلا للاغراض التجارية بعكس الطريق الأول الذى تغلب عليه صفة الحج ويفضل معظم التجار اللوبيين الطريق الثانى توفيراً للوقت خصوصـــاً فى فصل الشتاء حيث يهربون ببضائعهم من الأمطار الساحلية (١) . وقد زادت أهمية هذا الطريق الأخير فى عهد المقاومة الشعبية للاحتلال الايطالى اذ عن طريقه تم فرار معظم اللاجئين اللوبيين الى مصر بعد أن فشلت حركة المقـــاومة وبعد أن سد الايطاليون الطريق على المهاجرين من المناطق الساحلية باستيلائهم على النقط الهامة فى الطريق الأول الساحلى . ورغم ما فيـــه من صعوبة بالنسبة لنقل العائلات فإنه كان اضمن وآمن من الطريق الأول الساحلى . على أن هذا الطريق الثانى أيضـــاً كثيراً ما كان يسلكه بعض الحجاج فى طريقهم إلى الحج خصوصـــاً أولئك الذين يسكنون الواحات الداخلية من اقليم فزان بعد أن يتصلوا به بالطرق الثانوية الخـــاصة بهم كما جاء وصف ذلك فيما كتبه الرحالة فردريك هرنمان FRedericK Horneman فى رحلته التى قام بها سنة ١٧٩٧ ابان الحملة الفرنسية على مصر لاكتشاف الجهات الداخلية لافريقية بالاتجاه من الشرق الى الغرب فى الوقت الذى كان فيه الرحالة مونجو بارك Mungo Park مشغولا باكتشاف الاجزاء الداخليـة لافريقية أيضا ولكن بالاتجاه المعاكس لمسير فردريك .

---

1 — Oric Bates : The Eastern Libyans, P. 23.

وقد استطاع فردريك القيام بهذه الرحلة بعد أن التحق بقافلة من الحجاج أثناء عودتها من الأراضى الحجازية فى طريقها الى فزان وقد بدأ رحلته فى اليوم الخامس من شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ بعد أن انتظر قافلة الحجاج ومن معهم من التجار فى قرية كرداسة الواقعة بالقرب من مدينة القاهرة الى الغرب منها فى مديرية الجيزة (١) .

وإذا استثنينا هذين الطريقين الأوليين فإن بقية الطرق الأولية الأخرى للوبيين تتجه من الجنوب إلى الشمال وتصل مابين ساحل البحر الأبيض وإقليم السودان وهى فى اتجاهها تسير فى خطوط متوازية وإن كان بعضها يتقابل مع البعض الآخر فى واحات معينة تقوم بدور الوساطة والتبادل العام بين مختلف طرق القوافل وهى فى هذه الحالة أشبه بمحاط المواصلات المعروفة حديثاً فى السكك الحديدية . وفى مقدمة هذه الطرق الطريق الذى يصل مدينة طرابلس بإقليم تشاد وهو من أقدم طرق القوافل التى عرفها اللوبيون إذ يرجع استخدامهم له إلى أكثر من ٢٠٠٠ سنة تقريباً وعن طريقه جلبوا محاصيل أواسط أفريقية إلى موانى الشمال وهو يمر بعدة واحات أهمها منطقة كاوار Kawar فواحة مرزق شمالا . ومن الأخيرة إما تتجه القوافل غرباً إلى واحة غات فواحة غدامس شمالا فدينة طرابلس وإما تتجه القوافل من واحة مرزق شمالا إلى مدينة طرابلس الغرب مارة بواحة سوكنة أو مارة إلى الغرب منها إلى مدينة طرابلس على البحر .

ومن الطرق الأولية كذلك الطريق الممتد من مدينة طرابلس شمالا إلى إقليم نهر النيجر جنوباً حيث منطقة سوكوتو Sokoto ومنطقة كانو Kano ببلاد

---

1 — W. Bulmer & Co.: The Journal of Frederick Horneman's travels from Cairo to Mourzouk, P. 1.

نيجيريا ماراً بواحة غدامس وواحة غات وأير Air . أما فى الناحية الشرقيةمن لوبيا فنجد كذلك طريقاً أولياً هاماً يصل مدينة بنغازى باقليم تشاد بالسودان ماراً باجدابية فواحة أوجلة فإلى واحة الكفرة ومن هناك إلى اقليم تشـــاد . ويتقابل هـذا الطريق فى واحة أوجلة مع الطريق الأولى الذى يتجـه من الغرب إلى الشرق محاذياً للطريق السـاحلى . كما أن واحة أوجـلة نفسها تتصل بواحـة مرزق فى وسط إقليم فزان بطريق رئيسى يجعل من السهل الاتصال بين بنغازى والسودان الغربى .

وهكذا تعـددت هذه الطرق الأوليـة وتشعبت إلى جانب المئات الأخرى من الطرق الفرعيـــة وهـكذا أيضـاً تطورت أهميـــة بعض الواحات واكتسبت مركزاً ممتازاً فى الصحراء وظهر بعضها بمظهر المدن المزودةبالفنادق وسبل الراحة والاستجمام . فهـذه واحة مرزق عاصمة اقليم فزان حتى سنة ١٩٤٣ برغم موقعها غـــير الصحى وتأثيره على سكانها قد لعبت دوراً هاماً فى تجارة القوافل الأمر الذى جعلهـا عاصمة لهذا الاقليم لـكثرة مايصل اليهـا من قوافل، فهى بمثابة البؤرة للطرق التجارية ومنها يستطيع تجار القوافل الاتصال بأى مكان يريدونه ويستطيعون يومياً أن يتزودوا بأخبـار القوافـل الأخرى من البلاد البعيدة لـكثرة مايصل اليها من قوافل . والخلاصة أنها احتلت ماكان لواحة جرمة من مـكانة خاصة فى تجارة القوافل وقت أن كانت جرمة عاصمة للجرامنت فى اقليم فزان فى العصور القديمة . وهذه واحة سوكنة بالمثل كذلك وان كانت أقل أهمية من واحة مرزق فإنها ملتقى لعدة طرق رئيسية هامة فضلا عن الطرق الثانوية الأخرى وكـذلك بالمثل واحـــة زويلة المعروفة بكثرة الاشراف من سكانها وقدكان لهم دور كبير فى حياتها الى جانب ما اشتهروا به من هدوء بالنسبة لبقية سكان فزان كما يقرر ذلك الرحالة Lyon فى كتابه (١)

(١) G. F. Lyon :- A Narrative of travels in Northern Africa in the years, 1818, 1819, 1820, P. 212.

أثناء رحلته التى قام بها وقد شاهد هناك بقايا مسجد يرجع الى العصر العربى الأول وقبور هؤلاء الأشراف المدفونين بها وسمع بعض مارردده الناس عن صلاحهم وتقواهم ثم وصف قلعتها ومساجدها الثلاثة الأخرى . وقد سبقه إلى تبيين أهمية موقعها وقيامها كسوق الرحالة العربى البكرى فى القرن الحادى عشر (١) حيث وصفها لنا بأنها مدينة وأنها مجمع للرفاق من كل جهة كما أنهم يفترقون منها حيث تتشعب الطرق منها .

وإذا كان بعض هذه الواحات قد اختلفت أهميتها من وقت لآخر فان ذلك بدون شك يرجع إلى ما كانت عليه طرق القوافل التى تمر بها من أهمية إذ كثيراً ما كان يحدث لبعض التجار أن يتجنبوا بعضها نظراً لما كانوا يتعرضون له من أخطار بسبب الحروب والقلاقل أحياناً فيما بين القبائل التى تسيطر على هذه الطرق أو بسبب ما كانت تستهدف له بعض الأسواق المعينة من اضطرابات تقف دون تحقيق بغية تجار القوافل فيحاولون الاستعاضة عنها بأسواق أخرى ومن ثم إلى سلوك طرق أخرى. بل كثيراً ما كان يحدث أن تظهر للوجود بعض الطرق التى لم تكن مطروقة من قبل ولكن حاجة التجار ورغبتهم فى الحصول على الأرباح كانت تدفعهم إلى محاولة الاهتداء إلى مسالك جديدة تضمن لهم استمرار موردهم التجارى ومن أمثلة هذا النوع ذلك الطريق الذى نشأ باكتشاف واحة الكفرة التى تقع فى منتصف الطريق فيما بين بنغازى وإقليم السودان الشرقى والتى كان لها فى موقعها الخاص وصعوبة الوصول إليها ما حماها من الغزو العربى ولذا بقيت فى عزلة حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى عندما استطاعت قبيلة زوية Zuwaya (من واحة جخرة) أن تستولى عليها

١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص١٠

من أيدى أهلها التبو سنة ١٨٤٠ بعد أن أحاطت بها القوى الاسلامية من كل جانب. ولما كانت قبيلة زوية هذه معروفة بنشاطها التجارى فقد اتخذت من الكفرة محطة لها فى تجارتها مع واداى والفاشر وزاد فى أهمية هذه الواحة كمركز تجارى بشكل واضح عندما بنى السنوسى الكبير زاويته المعروفة هناك وعندما انتقل إليها السيد المهدى بدعوة من زوية واتخذها قاعدة لنشاط حركته الدينية وبانتقال السيد المهدى اليها يبدأ العصر الذهبى لتجارة القوافل المارة بها وقد ساعد على ذلك قيام الثورة المهدية فى السودان وما اقترنت به من فوضى واضطرابات كان لها أثر كبير فى الحالة التجارية فى السودان اضطر على اثرها التجار الذين يتعاملون مع واداى والفاشر والأبيض أن يتجنبوا طريق النيل أو طريق درب الأربعين الذى ينتهى عند مدينة اسيوط بالوجه القبلى بمصر وأن يحولوا نشاطهم التجارى إلى طريق الكفرة فأوجلة فاجدابية وأخيراً إلى مدينة بنغازى على البحر. بل إن القلاقل التى حلت بالسودان بسبب ثورة المهدى وما سبق ذلك من نشاط الخديوى اسماعيل والى مصر فى محاربته لتجارة العبيد قد جعل التجار يتجهون إلى الطرق الغربية التى تلتهى إلى الموانىء اللوبية بدل إن كانت تنتهى إلى أسواق القاهرة والاسكندرية. وما زالت واحة الكفرة تتمتع ببعض النشاط المحلى لتجارة القوافل رغم ما جد عليها من تطور كبير قد سبق بيانه وترينا الخريطة التى نشرها الأستاذ Bell فى كتيبه عن واحة الكفرة أن هناك عشرة طرق لتجارة القوافل تخرج منها وما زالت كل هذه الطرق مطروقة حتى يومنا هذا وإن قل عدد القوافل التى مرت بها أخيراً. ففى عام ١٩٤٣ رغم ظروف الحرب قد مرت بها خمسة وسبعون قافلة كان عددجمالها ٢٢٥٠ جملا(١). وواحة الجغبوب نفسها رغم وقوعها فى طريق تجارى أولى ينتهى شرقاً عند وادى النيل فإنها لم

١— K. D. Bell.- Kufra "Handbook on Cyrenaica", P.4

تكن قد اكتسبت قيمتها كقاعدة تجارية هامة لما فى مياهها من ملوحة إلا بعد ان اتخذ السيد السنوسى الكبير منها قاعدة له بعد انتقاله من زاويته فى البيضاء فى الجبل الأخضر ببرقة. وبانتقال السنوسى الكبير إليها وفدت عليها جماعات من الناس معظمهم من طالبي العلم بعد أن كانت خالية غير مسكونة(١)

... ...

وإذا كان اللوبيون بصفة عامة قد اشتهروا بتجارة القوافل منذ القدم فإن هناك جماعات منهم قد تخصصت فى هذا النوع من التجارة بشكل واضح بحيث يتعذر على غيرهم أن ينافسهم فيه. وقد عرفت تجارة القوافل قبائل الجرامنت فى العصر القديم كمحترفين لهذا النوع من التجارة وكسادة فى هذا الميدان حتى أنه لم يكن فى استطاعة غيرهم القيام بأى نشاط تجارى ما لم يشرف عليه الجرامنت ويتولوا أمر حمايته. وأهالى واحة غدامس التى عرفها العرب باسم غدامس قد كانت لهم شهرة كبيرة فى هذا الميدان منذ أن عرفت التجارة طريقها بين الساحل الشمالى ووسط افريقية، وكان لموقع واحتهم وسيطرتهم على الطريق التجارى فيما بين مدينة طرابلس وإقليم السودان خصوصاً منطقة تمبكتو أثر كبير فى نشاطهم وانصرافهم إلى تجارة القوافل وجعل واحتهم محطة هامة لها وقد ساعدهم على هذا أيضاً ما تمتع به أهالى غدامس من ذكاء عال فى هذه الناحية وأمانة خالصة هى الأساس الأول لضمان النجاح التجارى وقد استعانوا على ذلك بارسال بعضهم إلى مدينة طرابلس للاقامة هناك للاشراف على استلام تجارتهم فى محطتها النهائية لضمان سلامتها ومراقبة الحالة التجارية وأسعارها وتقلباتها كما استعانوا أيضاً بوكلائهم فى واحة غات وفى بقية الأسواق الأخرى الهامة بالسودان لأحكام حلقة الاتصال التجارى وليكونوا على علم بما يحدث فى هذا الميدان التجارى. والحقيقة أن أهالى غدامس قد أخلصوا فى عملهم وحالفهم التوفيق بهذا الاخلاص

---

١ — دائرة المعارف الاسلامية. المجلد الثانى مادة «Djaghbub»

وصعب على الغير أن ينافسهم فكانت لهم الأولية وكانت لهم الأرباح الطائلة وإليهم يرجع الفضل فى تنبيه أهالى مدينة طرابلس الى هذا الميدان التجارى وعلى يديهم تتلمذ الكثير من التجار الموفقين من هذه المدينة حتى امكنهم منافسة أهالى غدامس فيما بعد .

أما فى الشطر الشرقى من لوبيا فنجد بعد الفتح العربى المجابرة وهم سكان واحة جالو كما نجد قبيلة زوية وهى التى تسكن واحة جخرة . وقد نشأ عن النشاط التجارى لهاتين القبيلتين انتشار عنصرهما فى كل مكان امكنهم الوصول إليه . فكثير منهم يقيم فى مصر والسودان حيث يتجهون غالباً بنشاطهم التجارى ولهم مقدرة فائقة مسلم بها من الجميع على تحمل متاعب السفر واتقان تجارة القوافل بشكل تام. وقد كان لحياة السفر التى اعتادوها أثر كبير فى تكييف معيشتهم وقد لاحظ عليهم ذلك الرحالة فردريك هرنمان (Frederick Horneman) فذكر أن أولئك الذين يشتغلون بالتجارة يحتفظون فى العادة بثلاثة بيوت أحدها فى قرية كرداسة بالقرب من القاهرة والثانى فى أوجلة نفسها والثالث فى واحة زويلة أو مرزق بفزان . وكثير منهم له زوجة وأولاد فى كل من هذه الأماكن بل كان بعضهم يتخذ له زوجة أثناء مدته المحدودة (١) التى تبقاها القافلة فى احدى المحطات لتعوله وتقوم بحاجياته الضرورية . ولهذا كثرت علاقاتهم مع الجميع بطول البلاد الواقعة فى طريقهم التجارى . وليست هذه الحياة الفريدة من نوعها بصعبة عليهم او غريبة عنهم بل أنهم قد تعودوا عليها منذ نشأتهم الأولى وعملوا على تربية أولادهم واعدادهم لها فى المستقبل كما كان الحال بالنسبة لآبائهم وأجدادهم من قبل .

وكثيرا ما كانت القوافل التجارية تغير مجرى طريقها أمام مايصادفها من عقبات فهذه مدينة طرابلس التى حلت محل مدينة أويا القديمة قد آل اليها ما كان

(١) W. Bulmen & Co. The Journel of Fredericle Horneman's travel from Cairo to Mourzouk P. 38.

يصل من قوافل الى لبدة وصبراته حتى اذا حل الخراب بهما وانتعشت مدينة طرابلس على يد العرب الفاتحين انتقل النشاط التجارى بأجمعه فى الشطر الغربى من لوبيا اليها بعد أن كانت كل من لبدة وصبراته تشاركها فى هذا العمل بل بعد أن كان لمدينة لبدة النصيب الأول منه . ومدينة طرابلس نفسها قد تعرضت لمثل هذا الحال وان كان ذلك لفترة قصيرة لم يقدر لها أن تطول وذلك ابان الاحتلال الاسبانى لها فى أوائل القرن السادس عشر اذ انتقل نشاطها التجارى الى مدينة مسراته الواقعة الى الشرق منها على النهاية الغربية لخليج سرت الكبير واحتلت هذه المدينة وأهلها ما كان لمدينة طرابلس من نشاط تجارى وأصبح ميناؤها حلقة الصلة بين القوافل التجارية الداخلية وسفن البنادقة وغيرهم . والأمثلة من هذا النوع كثيرة يصعب على المؤرخ حصرها أو تتبعها فى صفحات قليلة لاسيما فيما يختص بالمناطق الداخلية منها . ولكن كل هذه الأخطار لم تقف دون مسيرها وكان لها فى تعدد طرقها ما ساعدها على الاستمرار دون توقف الى أن قدر لها أن تتعرض لحوادث تاريخية هامة كان لها أكبر الأثر فى اضعاف شأنها وبالتالى فى القضاء عليها بشكل واضح وان كنا مازلنا نرى لها بقية من النشاط حتى فى أيامنا هذه بعد كل مامر عليها من عراقيل وأزمات مضعفة .

* * *

واذا كانت الحياة فى أوربا لم يمكنها الاستغناء عن توابل الشرق وانتاجه واذا كان البنادقة والجنويون وغيرهم قد اتخذوا من نقلها من الاسواق الشرقية إلى أوربا موردا طيبا للارباح الطائلة واذا كانت القاهرة باسواقها وبغداد بمتاجرها والاسكندرونه بمخازنها والقسطنطينية كذلك بموقعها وبقية المدن الأخرى التى استفادت من هذا النوع من التجارة قد ازدهرت فيها الحياة وبلغت شأنا محترما حتى ان حكامها استطاعوا أن ينعموا بحياة طيبه وان يحققوا ماصعب على غيرهم محاولة التفكير فيه فإن الاوربيين كذلك لم يمكنهم الاستغناء عن انتاج وسط افريقية من عبيد وذهب وريش نعام ودهن نعام وجلود وطيور جميلة

ولهـذا ايضاً كان لمـدينة طرابلس وبقية المـدن الاخرى التى ساهمت معها فى تجارة وسط افريقية نصيب كبير من هذا النوع من الحياة حتى أن الأوربيين نظروا إليها بعين الاعتبار والتقدير خصوصاً اولئك الذين تعاملوا مع أهلها ولم تتح لهم الظروف فرصة زيارتها الأمر الذى دفع بعضهم الى الاعتقاد بأنها مخازن للذهب والفضة وقد أقيمت مبانيها من معدنها ولا أدل على ذلك من هذه القصة التى ذكرها لنا ابن غلبون فى تاريخه « وقد اخبرنى بعض الثقات من تجـار البلد . قال دخلت مدينة بلنسية واتيت سوقها فسألنى بعض التجار بها لما رأى الهيئة مغربية من أى بلاد المغرب أنت فأخبرته عن وطنى فسألنى : أيبنون بيوت طرابلس بلبن الذهب والفضة أم هى كسائر الدنيـا ؟ ظننت أنه يسخر منى حتى أقسم لى بمعبودهم » (١).

ولم يقتصر أثر تجارة القوافل على هذا الثراء الذى تمتعت به البلاد بل تعدى ذلك إلى التـكوين الجنسى فيهـــا لا سيما فى الجهات الجنوبية منها وقد وصل هذا الأثر جنوباً حتى اشرف على المناطق التى تسكنها العناصر الزنجيـة نفسها . ولولا هذه القوافل لـكانت تلك الواحات المنتشرة فى الصحراء الجنوبية أحسن ما يمثل مناطق العزلة فى التـكوين البشرى ولـكن بسبب هذه القوافل التجارية اختلط سكانها بغيرهم وتأثروا بما تأثرت به الجهات الساحلية الشمالية من عناصر اجنبية طارئة وإن كان ذلك بشكل محـــدود قبل مجىء العرب أما بعد الفتح العربى فكان تأثر الجهات الجنوبية بالعنصر العربى بمـــا فى ذلك واحات اقليم فزان عظيما حتى أن الدم العربى انتشر جنوباً بشكل واضح وظهرت اثاره فى ملامح السكان وما زال إلى يومنا هذا بعض القبائل هناك تحتفظ بانسابها العربية وكثير من أفرادها ينتمون الى البيت النبوى الشريف وقد حملت هذه القوافل فيما حملت معها من بضائع هذه الدماء العربية ووصلت بهـا جنوباً الى السودان

---

١) ابن غلبون : تاريخ طرابلس الغرب ص ١٦٥ .

حيث انتشرت واستقرت . وكذلك بالمثل فيما يتعلق بنشر اللغـة العربية فإلى تجارة القوافل يرجع الفضل الأكبر فى نشرها فى الصحراء والوصول بها إلى مشارف السودان . أما عن الأثر الدينى الذى تركته تجارة القوافل فهذا شيء واضح مسلم به إذ لولاها ماعرفت المسيحية فى العصر القديم طريقها الى الجنوب ووصلت الى أبعد من اقليم فزان حتى إذا جاء العرب فاتحين مبشرين بالدين الاسلامى كان التجار المرافقون للقوافل التجارية خير دعاة لهذا الدين الجـديد فسرعان ما انتشر جنوباً ووجد قلوبا مفتوحة لاعتناقه وإذا كانت القوافل التجارية قد ساعدت على نشر الدم العربى واللغة العربية فإن نجاحها فى نشر العقيدة الاسلامية كان أكثر حتى اصبحنا الآن نرى الدين الاسلامى منتشراً فى جهات جنوبية نائية رغم مايقف دون ذلك من مصاعب وعراقيل. وفى القرن التاسع عشر بدأنا نجد صراعاً قوياً بين دعاة المسيحية من اوربيين وغيرهم ممثلين فى هيئات تبشيرية منظمة ودعاة الاسـلام ممثلين فى تجار القوافل ورغم ما استعد له المبشرون المسيحيون من مال وقوة سياسية ووسائل اغراء لتدعيم نشاطهم هـذا فإن الغلبة كانت فى جانب دعاة العقيدة الاسلامية ولولا موقف الدول الاستعمارية هناك وخوفها من الهزيمة أمام هؤلاء التجـار المسلمين الذين قاموا بهـذه المهمة دون كلفه ودون تخصص لكان النصر النهائى لتجار القوافل فى هذه الناحية ولساد الدين الاسلامى تلك الربوع السودانية.ولاشك أن نشاط حركة الدعوة الاسلامية فى الصحراء واقليم السودان فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر يرجع الفضل الأول والأخير فيه إلى قيام الحركه السنوسية المباركه وانصراف مؤسيسها الى هذا النوع من النشاط بعد أن عملوا على تنقية العقيدة الاسلامية مما علق بها بين سكان الجهات الساحلية الشمالية وعادوا بالعقيدة الى الاسـلام الصحيح. وكانت جهود السنوسيين فى الدعوة للعقيدة الاسلامية الصحيحة مع ما اقترنت به من اصلاحات اجتماعية موفقة خير درع لوقاية تلك الجهات من الخضوع للنشاط الأوربى المسيحى بعد أن تم للدول الاستعمارية الأوربية النصر

السياسى بفصل قوة السلاح . والحقيقة أن السنوسيين ايضا قد نجحوا كذلك فى تأخير هذا الاحتلال الأوربى بفضل نشاطهم الدينى وهم أن غلبوا أخيراً على امرهم فإن هزيمتهم لن تدوم فقد تركوا من مبادىء العقيدة التى بشروا بها هناك ما يكفى فى يوم ما تحريك أهلها وايقاظ نفوسهم للطالبة بحقوقهم المسلوبة . ولقد وجد السادة السنوسيون فى تجارة القوافل خير معين لهم على نشر دعوتهم فى الجهات الجنوبية مستعينين فى ذلك بما كان لهم من علاقات ودية نشأت بين السنوسى الكبير وسلطان واداى Wadai محمد الشريف عندما كان الاثنان يدرسان الفقه الاسلامى فى مكة فلما عاد الأمير محمد الشريف إلى بلاده وأصبح سلطانا لواداى سنة ١٨٣٨ كان خير معين لنشاط الحركة السنوسية هناك وفيما جاوره من بلاد السودان . ولقد كان السنوسى الكبير موفقاً كل التوفيق عندما اشترى احدى القوافل وهى فى طريقها من واداى إلى بنغازى وأعتق عبيدها وقام بتعليمهم فى الجغبوب وتفهيمهم للعقيدة الاسلامية الصحيحة ثم أرسل بهم الى واداى كدعاة لما تعلموه واعتنقوه فكانوا أحسن دعاة للعقيدة الاسلامية ونجح السنوسى الكبير فى دعوته نجاحاً كبيراً لم يستند فيه على القوة أو على النفوذ السياسى كما كان يفعل دعاة التبشير المسيحى فى تلك الجهات .

هذا شأن لوبيا واللوبيين يوم ان عرف أهلها كيف يستغلون بيئتهم الطبيعية وما حباهم الله به من موقع فريد وهكذا جمعوا بقوة عزيمتهم وحسن تفكيرهم بين البر والبحر ووصلوا وسط افريقية بالعالم الخارجى وحملوا إلى قلب القارة السوداء نور الحضارة المتمثل فى الدين . ولقد سار اجدادنا اشواطاً بعيدة جداً فى هذا السبيل ثم حاول الاستعماريون من بعدهم أن يصلوا إلى قلب القارة من جديد وانتهوا بأن اعترفوا بأن أهل البلاد فى الشمال الافريقى أقدر منهم فى هذا المضمار وأوسع حيلة واكثر قبولا فهل نستطيع حمل العبء من جديد وان نضفى حيويتنا الاقتصادية والثقافية والحضارية على جيراننا البعيدين نحو الجنوب ؟

المصـــادر

١ ـ البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب (الجزائر سنة ١٨٥٧ م) .

٢ ـ ابن غلبون : تاريخ طرابلس الغرب (القاهرة سنة ١٣٤٩) .

٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية (المجلد الأول .A. D ، مادة Djaghbub) ، (المجلد الثانى .E. K مادة Kufra) .

٤ ـ E. W. Bovill : Caravans of the Old Sahara, «London 1933»

٥ ـ Charles Wellington Furlong : The Gateway of the Sahara «New York 1909».

٦ ـ Hugh Murry and James Willson : Narrative of Discovery and Adventure in Africa, «London 1840».

٧ ـ Captain G. F. Lyon : A Narrative of Travels in Northern Africa, in the years 1818, 1819 and 1820, «London 1821».

٨ ـ Major Dixon Denham : Narrative Travels and Discoveries in Northern and Central Africa in the years 1822, 1823 and 1824, «London 1826».

٩ ـ K. O. Bell : Kufra, « Part IX, Handbook on Cyrenaica Cairo, 1944 - 1947».

١٠ ـ D. C. Cumming : The Modern History of Cyrenaica, «Part Y, Handbook on Cyrenaica, Cairo 1944–1947».

Oric Bates : The Eastern Libyans, London 1914 — ١١

The Journal of Frederick Horneman's travels, From Cairo — ١٢
to Mourzouk, the capital of the Kingdom of Fezzan, in Africa, in the years 1797 - 1798, Printed by W. Bulmer & Co. «London 1802».

E. E. Evans Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica — ١٣
«London 1949».

Diplomatic and Consular Reports, Trade of Tripoli for — ١٤
the year 1901 «No. 2843, Annual Series», Foreign Office, London, July 1902».

Diplomatic and Consular Reports, Tripoli, Report on the — ١٥
trade and Economic State of the Yilayat of Tripoli, Northern Africa, During the past forty years, «No. 578 Mescellaneous Series», London 1902.

Major A. J. Cachia : Lybia under the second Ottoman — ١٦
Oecupation, «Tripoli 1945«.

فهرس موضوعات الكتاب